بشار بن برد

بين الجد والمجون

بقلم

حسين منصور
أستاذ في الأدب

الطبعة الأولى

١٣٤٨ هـ - ١٩٣٠ م

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر
لصاحبها مصطفى محمد

المطبعة الرحمانية بمصر
لصاحبها عبد الرحمن موسى شريف

الفصل الأول

الملامة

بشار

هو الشاعر . . ! ؟ وأمير الشعراء المحدثين لعهده . الذى أمسك بيده المجهر فاستطاع أن يرى أدق المعانى وأرق الأساليب فاصطنعها.

أبوه « برد بن يرجوخ بن ازدكرد بن شروستان بن بهمن بن دارا بن فيروز بن كرديه بن ماهفيدان بن داذان بن بهمن بن ازدكرد ابن حسيس بن مهران بن خسروان بن أخشين بن شهرداده بن نبوذ بن ماخرشيدا أنماذ بن شهريار بن بغدارا سيحان بن مكرد بن ادريس بن يُشتاسب الملك بن يُهْراسب الملك » كذلك روى صاحب الاغانى !! ولذلك وضع بشار عائلته فى مقام واحد مع العائلة الكسروية . فقال فى مدحه لعقبة بن سَلْم :

ورب ذى تاج كريم الجد كآل « كسرى » وكآل « برد »

فصلته عن ماله والولد

وجده « يرجوخ » من سبى المهلب بن ابى صفرة . صار من فيئ امرأته « خيرة القشيرية » وولد عندها ابنه برداً — ونرجح

هذه الرواية لأن « برداً » اسم عربى فحامله مولود فى بيئة عربية وهو الاسم العربى الوحيد فى نسب بشار — وتزوج برد « أم بشار » وهو فى ملك « خيرة » وكان مقيما لها فى ضيعتها بالبصرة المسماة « خَيْرفان » مع عبيد لها واماء . ثم وهبته الى صديقة لها من بنى عقيل تدعى « أم الظباء » امرأة « أوس بن ثعلبة البكرى » صاحب قصر أوس بالبصرة وكان من فرسان بكر بن وائل بخراسان . فولد برد « بشاراً » وهو فى ملكها . ثم اعتقتهما فعرف بشار بالعقيلى ! ! (١)

ولد شاعرنا بالبصرة حوالى سنة ٧٧ ونشا فى بنى عقيل . فشب فصيح اللسان . لايعتور بيانه لكنة أو خطا . لذلك عدّه النحاة آخر من يحتجون بشعره !

كنيته « أبو معاز » ولقبه « المرعث » لأنه كان يلبس رعثين أو بالحرى قرطين كالعادة الفارسية القديمة ! (٢)

---

(١) وذكر بعضهم أن سبب انتقاله من الأزد الى بنى عقيل خلاف ذلك — قال — كان بشار وأمه لرجل من الأزد فتزوج امرأة من بنى عقيل فساق اليها بشاراً وأمه فى صداقها . فاعتقته العقيلية . . . ! !

والرواية الاولى أوجه . فأنا لا نعرف من هو ذلك الرجل الأزدى ومن هي المرأة العقلية ! ؟

(٢) فقد كانت الفرس تلبس الرعاث وتلبسه مماليكها من أسرى الأمم الأخرى . فما ذكره التاريخ من ذلك . أن أبرويز ملك الفرس أهدى الى موريقس ملك الروم مائة غلام من أبناء أراكنة الترك فى نهاية الجمال والحسن . فى آذانهم أقراط الذهب فيها الدر واللؤلؤ ! !

وولد بشار اكمها جاحظ العينين يغشاهما لحم احمر سوأهما حتى صار يضرب به المثل . ففى ذلك يقول مَخْلَد بن على السلامى فى هجاء ابراهيم بن المدبر :

رايتك لا تحب الود الا   إذا هو كان من عصب وجلد
اراني الله وجهك جاحظيا   وعينك عين بشار بن برد

وكان آدم اللون ضخم الجثة مفرط الطول مجدور الوجه . قال عنه الاصمعى « وصف لى بشار فكان اقبح الناس عمى وافظعهم منظراً »

والظاهر أن أم بشار لم تكن منجبة . فقد ولدت ولدين آخرين

وبمثل هؤلاء الغلمان وعد الله عباده فقال « يطوف عليهم ولدان .. مخلدون .. » وقال الاعشى البكرى يصف الفرس فى يوم ذى قار :

لما أتونا كأن الليل يقدمهم   مطبق الارض تغشاها بهم سدف
بطارق وبنو ملك مرازبة   من الأعاجم « فى آذانها النطف »
من كل مرجانة فى البحر أحرزها   تيارها ووقاها طينها الصدف

ويؤيد قولنا تحريض واصل بن عطاء على بشار . قال « أليس لهذا الاعمى [المشنف] المكتنى بأبى معاذ من يبعج بطنه ! ؟ » وهذا خلاف ما أوله الرواة وجرى عايه الادباء لهذا العهد من أنه لقب بهذا الاسم لبيتين قالهما : أو لهيئة جيبى قيصه .. ! !

ودليل آخر أن أحدنا لا يمكنه أن يقول ان حديث الحسناء قرط معلق بأذنه . ولكن بشاراً يقوله :

وكيف تنامى من كان حديثه . بأذنى — وان غيبت — قرط معلق ! ؟

من أبوين مختلفين وبكل منهما عاهة مستديمة . وقد ذكرهما صفوان الانصارى فى هجائه لبشار . . وسيأتى خبرهما !!

لباسه :

قال الجاحظ : كانت الشعراء تلبس الوشى والمقطعات والاردية السود وكل ثوب مشهر . وكان لجربان قميص بشار وجبته لبنتان . فكان اذا أراد نزع شيء اطلق الازرار فسقطت الثياب على الارض، ولم ينزع قميصه من جهة رأسه قط !!

وقال ابن سلام : كان لقميص بشار جيبان . جيب عن يمينه وجيب عن شماله . فاذا أراد لبسه ضمه عليه من غير أن يدخل رأسه فيه . وأذا أراد نزعه حل أزراره وخرج منه

أولاده :

الراجح أن بشاراً قد ترك بعده خلفاً بالرغم من موت الكثير منهم — روى بعضهم فى اثبات ولاء بشار لبنى عقيل قال — حدثنى رجل من ولد بشار يقال له « حمدان » كان قصاراً بالبصرة . قال ولاؤنا لبنى عقيل . فقلت لأيهم ؟؟ قال لبنى ربيعة بن عقيل !!

مات له ابن وابنة . فلما توفى ابنه جزع عليه جزعا شديداً ، فقيل له « أجر قدمته وفرط افترطته وذخر ادخرته » فقال « ولد دفنته وثكل تعجلته وغيب وعدته فانتظرته ! والله . . . لئن لم أجزع للنقص فلا افرح للزيادة » ثم قال يرثيه :

أجارتنا لا تجزعى وأنيبى ... أتانى من الموت المطل نصيبى
بنى - على رغم وسخط - رزئته ... وبدل احجاراً وجال قليب
وكان كريحان العروس - بخاله - ... ذوى بعد اشراق يسر وطيب
أصبت به فى حين أورق غصنه ... فألقى علىَّ الهم كل قريب
عجبت لاسراع المنية نحوه ... وما كان - لو مليته - بعجيب !!

وجعل الناس في الجنازة يعزونه ويسلونه فما يغنى ذلك شيئا .

ثم التفت اليهم وقال . لله در جرير ؛ حيث يقول وقد عزى فى ابنة سوادة :

قالوا «نصيبك من أجر» فقلت لهم ... كيف العزاء وقد فارقت أشبالى !؟
أودى سوادة يجلو مقلتى لحم ... باز يصرصر فوق المربأ العالى
ودعتنى حين كف الدهر من بصرى ... وحين صرت كعظم الرمة البالى
الا تكن لك بالديرين معولة ... فرب نائحة بالرمل معوال

وهذا من أقوى الادلة على حبه لأبنائه :

ورثى ابنته فقال — ولقد ماتت صغيرة كأخيها — :

يابنت من لم يك يهوى بنتا ... ما كنت إلا خمسة أو ستا
حتى حللت فى الحشا وحتى ... فتت قلبى — من جوى — فانفتا
لانت خير من غلام بتا ... يصبح سكرانا ويمسى بهتا

وقد كبرت إحدى بناته وربما زوجت . فهى تقول لابيها : ياأبت !

مالك يعرفك الناس ولا تعرفهم ؟ ، قال كذلك الأمير يابنية !!(1)

أصدقاؤه :

رجل ضرير كبشار أشد الناس احتياجا الى أصدقاء يشد بهم أزره ويانس بهم فى وحشته ، ولكن صداقة كهذه قائمة على أسس من العطف والشفقة ففيها من المنة مالا تقبله نفس شاعرة حساسة كنفس ابن برد لذلك عمل بشار جهده ليجعل الصداقة قائمة على أساس آخر فاستل من لسانه صارما عضبا أصلته على أعناق المتصلين به وكل ذى علاقة معه . فاقام بعزمه أساسا من الخوف وآثار حوله عاصفة من الرعب والتوجس . فهابه أصدقاؤه وخافوه وصارت القوة بيده وصار هو القوى وهم الضعفاء يمن ولا يمن عليه !!

فمن هؤلاء الأصدقاء رجل بالبصرة من بنى منقر . أمه عجلية

وتروى هذه الابيات التى يرثى بها ابنته لابى نخيلة الراجز . قال صاحب الاغانى : تزوج أبو نخيلة امرأة من عشيرته فولدت بنتاً فغمه ذلك وطلقها تطليقة . ثم ندم فراجعها فبينا هو فى بيته يوماً إذ سمع صوت ابنته وأمها تلاعبها فحركه ذلك ورق لها فقام اليها فأخذها وجعل ينزيها ويقول :

يا بنت من لم يك يهوى بنتا ... ما كنت الا خمسة أو ستا
حتى حللت فى الحشا وحتى ... فتت فى القلب جوى فانفتا
لأنت خير من غلام أنتا ... يصبح مخموراً ويمسى سبتا

وانى أرجح هذه الرواية الاخيرة . وأرجح ان بشاراً تمثل بالابيات ليس الا كما تمثل بأبيات جرير لما مات ولده !!

كان كثير التودد اليه فكان يهديه أضحية فى كل سنة ومعها ألف درهم — من الاضاحى التى كان أهل البصرة يسمنونها سنة وأكثر لعيد الأضحى ثم تباع الاضحية بعشرة دنانير - ففى سنة اقتصد وكيله واشترى أضحية هزيلة - وكانت نعجة عبدلية من نعاج عبد الله بن دارم وهو نتاج مرذول - فلما ادخلت على بشار وقالت له جاريته « ربابة » ليست هذه من الغنم التي كان يبعث بها اليك . فقال ادنيها مني : فلمسها ثم قال اكتب ياغلام :

وهبت لنا يافتى مِنقر ... وعجل .. وأكرمهم اولا
وأبسطهم راحة فى الندى ... وأرفعهم ذروة فى العلا
عجوزاً ! ! أوردها عمرها ... وأسكنها الدهر دار البلى
سلوحا !! توهمت أن الرعا ... ء سقوها ـ ليسهلها ـ الحنظلا
واضرط من أم مبتاعها ... إن اقتحمت بكرة حرملا
فلو تاكل الزبد بالنرسيا ... ن .. وتدمج بالمسك والمندلا
لما طيَّب الله أرواحها ... ولا بلَّ من عظمها الأنحلا

***

وضعت يميني على ظهرها ... فخلت حراقفها الجندلا
وأهوت شمالى لعرقوبها ... فخلت عراقبها مغزلا
وقلبت إليتها بعد ذا ... فشبهت عصعصها منجلا

فقلت : أبيع فلا مُشتَرى أرجى لديها .. ولا ماءً كلا
أم اشوى وأطبخ من لحمها وأطيب من ذاك مضغ السلا
إذا أمررّت على مجلس - من العجب - سبح أوهللا
رأوا آية ! خلفها سائق يحث ! وإن هرولت هرولا

***

وكنت أمرت بها ضخمة بشحم ولحم قد استكملا
ولكن « روحا » عداطوره وما كنت أحسب أن يفعلا
فعض الذى خان فى أمرها من فرج أمه .. بظهرها الاغزلا
ولولا مكانك قلدته علاطا .. وأنشقته الخردلا
ولولا استحائيك خضبتها وعلقت فى جيدها جُلجلا
فجاءتك حتى ترى حالها فتعلم أنى بها مبتلى
سائلتك لحما لصبياننا فقد زدتني فيهم عيّلا
فخذها وأنت بنا محسن وما زلت بى محسنا مجملا

وبعث بها اليه ...

فدعا ذلك الرجل وكيله « روحا » وقال له : ويلك ! تعلم أنني افتدى من بشار بما أعطيه وتوقعني فى لسانه ؟؟ إذهب فاشتر أضحية وان قدرت أن تكون مثل الفيل فافعل . وأبلغ بهاما بلغت وابعث بها اليه !

وكان ابو سفيان بن العلاء بن لبيد التغلبي على شرط البصرة ...

وابو سفيان اسم لا كنية .. وكان يحب الجلوس إلى بشار والائتناس بكلامه . ولكن بشاراً كان يستثقله . ففيه يقول :

ربما يثقل الجليس - وان كا ... ن خفيفا فى كفة الميزان
كيف لا تحمل الأمانة ارض ... حملت فوقها «اباسفيان» !؟

ويقول :

هل لك فى مالى وعرضى معا ... وكل مايملك جيرانيه
واذهب إلى ابعد ما يُنْتَوَى؟؟ ... لا ردَّك الله ولا ماليه!!

وكان بشار من طبيعته شديد التبرم بالناس . فكان يقول : الحمد لله الذى حجب بصرى! فقيل له ولم يا أبا معاذ ؟؟ قال لئلا أرى من ابغض !! .. لذلك كان يصفق استحسانا عندما يخلو الجو . فيقول

قد نام واش وغاب ذو حسد ... فاشرب هنيئا خلا لك الجو !!

واستطرد فاقول : وكان ممن استثقلهم بشار صديقه «هلال بن عطيه الرائى» وفيه يقول :

وكيف يخف لى بصرى وسمعى ... وحولى عسكران من الثقال !؟
قعوداً حول دسكرتى وعندى ... كأن لهم علىَّ فضول مال !
إذا ما شئت صبحنى «هلال» ... واى الناس اثقل من هلال !؟

وقال له هلال يوما ... وكان يمازحه . إن الله لم يذهب بصر احد إلا عوضه بشىء . فماذا عوضك ؟؟ قال الطويل العريض!! قال هلال وماهذا ؟ قال الا اراك ولا امثالك من الثقلاء !! ثم قال له : ياهلال

اتطيعنى فى نصيحة اخصك بها ؟ قال نعم قال انك كنت تسرق الحمير زمانا ثم تبت وصرت رافضيا فعد إلى سرقة الحمير فهى خير لك والله من الرفض !!

وذكر بعضهم ان الذى مازحه هو « ابن سيابة » فقال له بشار : يا ابن سيابة ! لو نكح الأسد ما افترس ..! قالوا وكان يتهم بالابنة ! والذى اعتقده ان هذا المزاح تكرر على مسامع بشار عند ما قاله ابن سيابة فقال له بشار ما قال .

ولكن بشارا يعرف كيف يتخلص من الثقلاء . فقد قعد اليه رجل من ذلك الصنف اللعين . فاستثقله ؛ فضرط عليه ضرطة . فظن الرجل أنها أفلتت منه . ثم ضرط اخرى . فقال الرجل أفلتت . ثم ضرط ثالثة . فقال يا ابامعاذ ماهذا ؟؟ قال مه ! ؟ ارأيت أم سمعت؟ قال بل سمعت صوتا قبيحا . قال لاتصدق حتى ترى ...

وكان بشار كثير الولوع بصديقه « ديسم العنزى » ومع ما كان بينهما من صداقة فقد كان بشار يكثر من هجائه . ولم يكن لهذا الصديق ذنب سوى أنه كان يحفظ شيئا من شعر حماد وأبى هشام الباهلى فى بشار . فلما بلغ ذلك بشاراً قال معنفا له :

أديسم يا ابن الذئب من نجل زارع ... أتروى هجائى سادراً غير مقصر ؟!

قال أبو حاتم — : أنشدت أبا زيد هــذا البيت وسألت عن معناه . فقال لمن هذا الشعر ؟؟ قلت لبشار فى ديسم . فقال قاتله الله !

ما أعلمه بكلام العرب ! ! إن « الديسم » هو ولد الذئب من الكلب والكلاب يقال لها « أولاد زارع » وبذا فقد هجاه أفظع هجاء ونسبه شر نسبة .

وقدم من مكة صديق لبشار اسمه « كردى بن عامر المسمعى » ولم يهد بشاراً شيئا . فكتب إليه بشار :

ما أنت يا كردى بالهشّ ولا أبرّيك من الغشّ
لم تهدنا نعلا ولا خاتما من أين أقبلت؟ من الحشّ؟

فاهداه هدية حسنة وقال له . تعجلتنا يا أبا معاذ . فانشدك الله ! الا تزيد على مامضى .

وشبيه بهذه الحادثة حكايته مع « سهيل بن عمر القرشى » وكان يبعث إليه فى كل سنة بقواصر تمر . فابطأ عليه سنة فكتب إليه :

تمركم يا سهيل در ! وهل يطـ مع فى الدر من يدىْ متعىّ
فاحبنى يا سهيل من ذلك التمـ ر ـ نواة ـ تكون قرطا لبنتى

فبعث إليه بالتمر وأضعف له وكتب إليه يستعفيه من الزيادة من هذا الشعر !!

على أنه كان لبشار أصدقاء ، من غير هـذا النوع . يأنس بهم ويرتاح لمعاشرتهم وتميل إليهم نفسه . فهو يراعى شعورهم ويستبقى صداقتهم . وهم فى الغالب بؤساء خلعاء يتندمون معه على الخمر ويتذاكرون فى الزندقة . أمثال سعد بن القعقاع وتسنيم بن الحوارى وغيرهما .

وهؤلاء هم الذين أخذوا أمكنتهم من قلب بشار . فاذا خلّى أحدهم مكانه شعر شاعرنا بالفراغ الهائل فى فؤاده فاستوحش وبكى . وسترى الآن كيف بكى هؤلاء الأصدقاء !!

أما « سعد بن القعقاع » فقد كان يتقدم بشاراً في المجانة . فقال لبشار وهو ينادمه . ويحك يا أبا معاذ ! قد نسبنا الناس إلى الزندقة ! فهل لك أن تحج بنا حجة تنفى ذلك عنا ؟؟ قال نِعْمَ ما رأيت .

فاشتريا بعيرا ومحملا ومركبا . فلما مرّا بمكان يقال له زرارة . قال له ويحك يا أبا معاذ ! ثلاثمائة فرسخ ! متى نقطعها ؟ مِلْ بنا إلى زرارة نتنعم فيها فاذا قفل الحاج عارضناهم بالقادسية وجززنا رؤوسنا فلا يشك الناس أنا جئنا من الحج !! فقال بشار نعم ما رأيت ! لولا خبث لسانك ! وإنى أخاف أن تفضحنا ! قال لا تخف .

فمالا إلى زرارة ! وما زالا يشربان الخمر حتى نزل الحاج بالقادسية راجعين . فاخذا بعيراً ومحملا . وجزا رؤوسهما . وأقبلا ... فتلقاهما الناس يهنونهما !! فقال فى ذلك سعد :

ألم ترنى و «بشاراً» حججنا   وكان الحج من خير التجارة
خرجنا طالبى سفر بعيد   فمال بنا الطريق إلى زرارة
فآب الناس قد حجوا وبروا   وأبنا موقرين من الخسارة

فوقع ما حذر منه بشار وافتضح أمرهما .

أما « تسنيم بن الحوارى » فقد كان صديقا مقربا لبشار . ولكن

القافية أوقعته فى لسانه . وحكاية ذلك . أن حماراً نهق ذات يوم بقرب بشار فخطر بباله بيت فقال :

ما قام أير حمار فامتلا شبقا إلا تحرك عرق في است ...

ومر به فى تلك الساعة صديقه تسنيم فسلم عليه فرد عليه بشار السلام وضحك وقال « فى است تسنيم — علم الله » فقال له إيش ويحك ؟؟ فأنشده البيت :

ما قام اير حمار فامتلا شبقا إلا تحرك عرق فى است تسنيم

فقال له عليك لعنة الله ! فما عندك فرق بين صديقك وعدوك أى شيء حملك على هذا ؟؟ ألا قلت فى است أحد ممن هجوك ؟؟ وليست قافيتك على الميم فاعذرك ! !

قال بشار : صدقت والله فى هذا كله . ولكن ما زلت اقول « فى است من ؟ فى است من ؟ . . ولا يخطر ببالى احد . حتى مررت وسلمت فرزقته » فقال له تسنيم . إذا كان هذا جواب السلام عليك فلا سلم الله عليك ولا علىّ حين سلمت عليك . فجعل بشار يضحك ويصفق بيديه وتسنيم يشتمه !!

وفى الحق ان بشاراً يكاد لايفرق بين عدوه وصديقه . فكان أصدقاؤه يخافونه كما يخافه اعداؤه . فقد مر به صاحب له إسمه « عباد بن عباد » فقال السلام عليك يا ابا معاذ . فقال وعليك السلام اعباد ؟؟ قال نعم . قال إنى لحسن الرأى فيك . فقال ما أحوجنى إلى ذلك منك يا أبا معاذ !!

وقالوا كان له ندماء خمسة. اختطفت المنون منهم أربعة وبقى واحد يقال له « البراء » فركب يوما فى زورق يريد عبور دجلة فغرق. فقال بشار لاخير فى الدنيا بعد الاصدقاء

وكان هذا فى أواخر أيامه بعد مانهاه المهدى عن الغزل والمجاهرة بالزندقة. وعندى أن موت ندمائه الذين كان يبث لهم ذات صدره ويتحدث اليهم ويتحدثون اليه ملأ نفسه يأسا يتمثل فى قوله « لاخير فى الدنيا بعد الاصدقاء » فاقبل يعب من الخمر ويأكل من الشجرة المحرمة. فيجاهر بزندقته ويتغزل ويشتم الخلفاء والوزراء والامراء. مستدنيا بذلك منيته! مستدنيا يوم لقائه باصدقائه!

قال يرثيهم :

يابن موسى! ماذا يقول «الامام» فى فتاة فى القلب منها أوام ؟
بت من حبها أوقر بالكأ س ويهفو عن فؤادى الهيام
ويحها كاعبا تدل بجهم كعثبى كأنه حمام
لم يكن بينها وبينى إلا كتب العاشقين والاحلام

✡✡✡

يابن موسى! اسقنى ودع عنك سلمى إن سلمى حمى وفى احتشام
رب كأس كالسلسبيل تعلا ت بها والانام عنى نيام
حبست للشراة فى بيت راس عتقت عانسا عليها الختام
نفحت نفحة فهرت نديمى بنسيم وانشق عنه الزكام

فكأن المعلول منها اذا را ... ح شيخ فى لسانه برسام
صدمته الشمول حتى بعينيه ... ه انكسار وفى المفاصل خام
وهو باقى الاطراف حيث بها السكا ... س وماتت أوصاله والكلام

☆☆☆

« وفتى » يشرب المدامة بالما ... ل ويمشى يروم ما لا يرام
أنفذت كأسه الدنانير حتى ... ذهب العين واستمر السوام
تركته الصهباء يصبو بعين ... نام إنسانها وليست تنام
جن من شربة تعل باخرى ... وبكى حين سار فيه المدام
«كان لى صاحبا» فاودى به الده ... ر وفارقته .. عليه السلام

☆☆☆

بقى الناس بعد هلكك ندامى ... وقوعا لم يشعروا ما الكلام
كجزور الايسار لا كبد فيـ ... ـها لباغ ولا عليها سنام

☆☆☆

يا بن موسى! افقد الحبيب على العيـ ... ـن قذاة . وفى الفؤاد سقام
كيف يصفو لى المقام وحيداً ... والأخلاء فى المقابر هام ! ؟
نفستهم على أم المنـايا ... فانامتهم بعنف فناموا
لا يفيض انسجام دمعي عليهم ... إنما غاية الحزين انسجام

وقال

غمض الحديد بصاحبيك فغمضا ... وبقيت تطلب فى الحبالة منهضا

وكأن قلبي عند كل مصيبة　　عظم تكرر صدعه فتهيضا
« وأخ » سلوت له فاذكره أخ　　ومضى!! وتذكرك الحوادث مامضى
فاشرب على تلف الاحبة ! إننا　　جزر المنية ظاعنين وخفضا

☆☆☆

ولقد جريت مع الصبا طلق الصبا　　ثم ارعويت فلم أجد لى مركضا
وعلمت ما علم امرؤ فى دهره　　فاطعت عذالى وأعطيت الرضا
وصحوت من سكر وكنت موكلا　　أرعى الحمامة والغراب الأبيضا
ما كل بارقة تروض بمائها　　ولربما صدق الربيع فروضا

☆☆☆

قد ذقت الفته وذقت فراقه　　فوجدت ذاعسلا وذا جمر الغضا
ياليت شعرى فيم كان صدوده　　أأسأت ؟! أم رعد السحاب وأومضا؟
ويلى عليه وويلتى من بينه　　ما كان إلا كالخضاب.. وقدنضا!!

وقديما أخذ أحدقى فى خزية فصلب فرثاه بقوله :

لعمرى لئن أصبحت فوق مشذب　　طويل تعفيك الرياح مع القطر
فقد عشت مبسوط اليدين مبرزا　　وعوفيت عند الموت من ضغطة القبر
وافلت من ضيق التراب وغمه　　ولم تفقد الدنيا فهل لك من شكر؟؟
فطوبى لمن يبكى أخاه مجاهرا　　ولكننى أبكى لفقدك فى سرى !
وما تشتفى عيناى من دائم البكا　　عليك . ولو أنى بكيت الى الحشر

قلت ان بشارا كان من طبيعته كثير التبرم بالناس . وكان لايكاد يفرق بين عدوه وصديقه لمجونه واستهتاره . وأزيد فاقول انه كان يحتقر الناس ويسخر بهم . بل يتجاهل وجود المتصلين به لعلمه بنفاقهم خصوصاً مع ضرير مثله . فقد استأذن عليه جماعة فأذن لهم والمائدة موضوعة بين يديه . فلم يدعهم الى طعامه . ولما أكل دعا بطست فكشف عن سوأته وبال . ثم حضرت الظهر واعقبها العصر والمغرب فلم يصل . فقال له بعضهم . أنت أستاذنا وقد رأينا منك أشياء انكرناها . قال وما هى ؟ ؟ قالوا دخلنا والطعام بين يديك فلم تدعنا . فقال إنما اذنت لكم بالدخول لتأكلوا . ولولم أرد ما أذنت لكم . ثم ماذا ؟ ؟ فقالوا دعوت بالطست فبلت ونحن حضور . فقال أنا مكفوف وانتم المأمورون بغض البصر دونى . ثم ماذا ؟ ؟ قالوا حضرت الظهر والعصر والمغرب ولم تصل . فقال الذى يقبلها تفاريق يقبلها جماعة ! ! وهذا تخلص ليس الا .

وكان بشار مع تفقهه فى الدين — حتى انه كان يعد فى طبقة واصل بن عطاء وغيره — متهاوناً بالفرائض الدينية . قال بعض أصحابه : كنا اذا حضرت الصلاة نقوم ويقعد بشار . فنجعل حول ثيابه تراباً لننظر هل يصلى . فنعود والتراب بحاله ! !

وهو أيضا لا يحابى صديقه ولا يعرف المحاباة . فقد أنشده

« أبو النضير الشاعر » قصيدة له . فقال له بشار . أيجيئك شعرك هذا كلما شئت ؟ أم هذا شيء يجيئك الفينة بعد الفينة إذا تعقلت له ؟ ؟ فقال بل هذا شعر يجيئني كلما أردته . قال . . قل فانك شاعر ! ! فقال لعلك حابيتني أبا معاذ وتحملت لى ! ؟ قال — أنت أبقاك الله أهون عليّ من ذلك ! !

شعره

ولد بشار أعمى فما نظر الدنيا قط . فكان يشبه الاشياء بعضها ببعض فى شعره فيأتي بما لا يقدر عليه المبصرون . فقيل له يوما وقد أنشد قوله :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

ما قال أحد مثل هذا التشبيه ! فمن اين لك ولم تر الدنيا ولا شيئاً فيها ؟ ؟ فقال ان عدم النظر يقوى ذكاء القلب ويقطع عنه الشغل عما ينظر اليه من الاشياء . فيتوفر حسُّه وتذكو قريحته — ثم انشدهم :

عميت جنينا والذكاء من العمى فجئت عجيب الظن للعلم موئلا
وغاض ضياء العين بالعلم رافداً لقلب اذا ما ضيّع الناس حصّلا
وشعرٍ كنُوْرِ الروض لاءمت بينه بقول اذا ما أحزن الشعر أسهلا

قال الشعر ولم يبلغ العشر سنين — فهو من النوابغ المبكرين — وكان اذا أراد ان ينشد صفق بيديه وتنحنح وبصق يميناً وشمالا :

روى عن نفسه أنه هجا جريراً الخطفى فأعرض عنه . قال « ولو أجابنى لكنت أشعر الناس » وكان منذ ذلك الحين يميل الى الهجاء . فكان اذا هجا قوماً جاءوا أباه فشكوا إليه فيضر به ضربا مبرحا . فتقول له امراته « أم بشار » لم تضرب هذا الغلام الصغير الضرير ؟ أما ترحمه ؟ فيقول بلى والله انى لأرحمه ولكنه يتعرض للناس فيشكونه الىّ ! !

فسمع بشار كلامه فطمع فيه وقال يا أبت ؛ ان هذا الذى يشكونه اليك منى هو قولى الشعر وانى ان اتممت عليه أغنيتك وسائر أهلى . فاذا شكونى اليك فقل لهم . أليس الله عز وجل يقول « ليس على الاعمى حرج » ؟ ؟ فلما أعادوا الشكوى على أبيه قرأ عليهم الآية — وربما رتلها ترتيلا — فانصرفوا وهم يقولون « فقه برد أغيظ لنا من شعر بشار » وهذا طبعا خروج بالآية عن معناها . فالاعمى ليس عليه حرج فى تقاعده عن القتال . لافى قذف الناس ! !

ودع عنك الآن التأمل فى ذكاء هذا الغلام وحسن تصرفه . واستمع الى ما يقوله عن طريقته فى النظم . . قيل له : بم فقت أهل دهرك وسبقت رجال عصرك فى حسن معانى الشعر وتهذيب ألفاظه فقال « لأنى لم أقبل كل ماتورده على قريحتى ويناجينى به طبعى ويبعثه فكرى . ونظرت الى مغارس الفطن ومعادن الحقائق ولطائف التشبيهات . فسرت اليها بفهم جيد وغريزة قوية . فاحكمت سيرها

وانتقيت حرها وكشفت عن حقائقها واحترزت من متكلفها . . . والله ماملك قيادي — قط — الاعجاب بشيء مما آتي به . . . ، وهذا هو شأن النوابغ والعباقرة طلاب المثل الاعلى . فهم مهما أبدعوا وأتوا بالعجاب لايرون ذلك شيئا وينحون على نفسهم باللائمة ويتهمونها بالتقصير ! !

وقيل له . انك لتأتي بالشيء الهجين المتفاوت . قال وما ذاك ؟ ؟ قيل بينما تقول شعراً يثير النقع وتخلع به القلوب مثل قولك :

اذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما
اذا ما أعرنا سيداً من قبيلة ذرى منبر صلى علينا وسلما

تقول

ربابة ربة البيت تصب الخل فى الزيت
لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت

فقال : لكل وجه ! فالقول الاول جد ! وهذا قلته فى ربابة جاريتى ! وأنا لا آكل البيض من السوق وربابة لها عشر دجاجات وديك ، فهى تجمع لى البيض . وهذا عندها أحسن من « قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل » عندك ! !

ولمثل هذين البيتين الاخيرين كان اسحق الموصلى لايعتد ببشار ويقول هو كثير التخليط فى نثره . وأشعاره مختلفة لا يشبه بعضها بعضا . أليس هو القائل ؟ ؟

انما عظم سليمى حبتى　　قصب السكر لاعظم الجمل
واذا أدنيت منها بصلا　　غلب المسك على ريح البصل

لو قال كل شيء جيد ثم أضيف اليه هذا لزيفه . وكان يقدم عليه مروان بن أبي حفصة . ويقول هو أشد استواء شعر منه . وكلامه ومذهبه أشبه بكلام العرب ومذاهبها !

وليس لرأى الموصلى ونقده قيمة لأنه اولاً قائم على اغراض شخصية . وكذلك كان رأيه فى ابى نواس . فانه كان لايعده البتة ولا يرى فيه خيراً ! ! وثانيا انه لم يراع اصول النقد فينظر فى أى وقت قال الشاعر هذين البيتين . ولو فعل لعلم ان هذا الشعر مما كان يلهو به فى صباه . . كما سيرد عليك أيها القارىء ! !

وقد اعتذر بشار عن هذه السقطة وغيرها فقال : إن الشاعر المطبوع كالبحر ؛ يقذف درّة مرة ومرة يقذف جيفة .

واستطرد فاقول — : قال « العباس بن الفضل » أحد أدباء البصرة . كان بشار منقطعاً الىّ والى اخوتى فكان يغشانا كثيراً . ثم خرج ابراهيم بن عبد الله بن حسن العلوى فخرج معه عدة منا . فلما قتل ابراهيم توارينا . وحبس المنصور عدة من اخوتى . فلماولى المهدى أمّن الناس جميعا وأطلق المحبوسين . فقدمت بغداد أنا واخوتى نلتمس أمانا من المهدى . . . وكان الشعراء يجلسون بالليل فى سجن الرصافة ينشدون ويتحدثون . فلم اطلع بشاراً على نفسى الا بعد ان

اظهر لنا المهدى الامان . فأتيت سجن الرصافة بالليل وصحت ببشار . يا أبا معاذ من الذى يقول ؟ ؟

أحب الخاتم الاحـــمر من حب مواليه

فاعرض عنى وأخذ فى انشاده شعره . فصحت يا أبا معاذ من الذى يقول ؟ ؟

انما عظم سليمى حبتى قصب السكر....الخ الخ

فغضب وصاح . من الذى يقرعنا بأشياء كنا نعبث بها فى الحداثة . فهو يعيرنا بها ؟ ؟ فتركته ساعة ثم صحت به يا أبا معاذ من الذى يقول ؟ ؟

أخشاب ! حقا ان دارك تزعج . وأن الذى بينى وبينك ينهج ؟ فقال ويحك ! عن مثل هذا فسل ! ثم انشدها حتى أتى على آخرها . وهى من جيّد شعره ! !

وذكر الرواة لشعره عيوبا — فقالوا — كان يحشوه اذا أعوزته القافية والمعنى بأشياء خيالية لاحقيقة لها . فمن ذلك أنه أنشد يوما شعراً فقال فيه « غنى للغريض يا ابن قنان » فقيل له من ابن قنان هذا . لسنا نعرفه من مغنى البصرة ؟ ؟ فقال وما عليكم منه ألكم دين قبله فتطالبوه به ؟ أو ثأر تريدون أن تدركوه منه ؟ أو كفلت لكم به فاذا غاب طالبتمونى باحضاره ؟ قالوا ليس بيننا وبينه شىء من هذا . وانما أردنا أن نعرفه ! قال هو رجل يغني لى ولا يخرج من بيتى !

فقالوا له الى متى ؟ قال مذ يوم ولد الى أن يموت

وأنشد أيضافى هذه القصيدة « ووافانى ☆ هلال السماء فى البردان »
فقيل له يا أبامعاذ أين البردان هذا ؟ لسنا نعرفه بالبصرة ! ؟ فقال هو بيت «حجرة» فى بيتى أسميته بالبردان - وهذا صحيح - أفعليكم من تسميتى دارى وبيوتها « حجرها » شىء فتسألونى عنه ؟ ؟

وزار يوما بعض أصحابه وهو مغتم . فقيل له مالك مغتما ؟ ؟ فقال مات حمارى فرأيته فى النوم . فقلت له . لم مت ؟ ألم أكن أحسن اليك فقال :

سيدى خذ بى أتانا عند باب الاصبهانى
تيمتني بدلال وبدل قد شجانى
تيمتنى يوم رحنا بثناياها الحسان
وبغنج ودلال سل جسمى وبرانى
ولها خد أسيل مثل خد«الشنفرانى»
فلذا مت ولو عشـ ـت إذن طال هوانى

فقيل له : ما الشنفرانى ؟ فقال ما يدريني ؟ هذا من غريب الحمار فاذا لقيتموه فاسألوه عنه ! !

ومن حسنات بشار أنه يندر ان يذكر اسم ممدوحه فى القصيدة وتلاحظ ذلك فى شعره الذى يمدح به عقبة ابن سلم ويزيد بن عمر ابن هبيرة وابراهيم بن عبد الله بن حسن العلوى وغيرهم . وأن ذكره

لا يملأ أبيات القصيدة بتكريره !

وكان الاصمعي كأغلبية الرواة في ذلك العهد ، يرى أن الشعر الجاهلي هو المثل الاعلى الذي يجب النسج على منواله وأن شعراء ذلك العصر هم القدوة تحيط بهم لقدم العهد قدسية وتجثم العصمة تحت ألسنتهم . فكان يقول : بشار خاتمة الشعراء .. والله .. لولا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم !!

ولذلك بشار يقول « أزرى بشعري الاذان » أي أنه اسلامي .

ولكن الاصمعي يخالف رأيه الاول ويؤمن بالتجديد حينما سئل عن بشار ومروان بن أبي حفصة . أيهما أشعر ؟؟ فقال بشار ! قيل له ولم ؟ قال لان مروان سلك طريقا كثر من يسلكه فلم يلحق بمن تقدمه وشركه فيه من كان في عصره ، وبشار سلك طريقا لم يسلك وأحسن فيه وتفرد به وهو أكثر تصرفا في فنون الشعر واغزر وأوسع بديعا !!

ويقول أيضا في التفضيل بينهما — وقد عاد من بغداد الى البصرة بعد موت بشار — فسأله رجل عن مروان . فقال وجدت أهل بغداد وقد ختموا به الشعراء . وبشار أحق أن يختموهم به من مروان . فقيل له ولم ؟ قال وكيف لايكون كذلك وما كان مروان في حياة بشار يقول شعراً حتى يصلحه له بشار ويقومه !؟ وهذا سلم الخاسر من طبقة مروان يزاحمه بين أيدي الخلفاء بالشعر ويساويه في الجوائز ! وسلم معترف به أنه تبع لبشار .

وكل ما قاله الاصمعي حقيقة . فقد كان سلم الخاسر تلميذا لبشار وتخرج عليه فزاحم مروان فى صلات الخلفاء حتى حصلت بينهما مهاجاة عنيفة نمسك عنها . ! وكان مروان يعرض قصائده على بشار فيبدى رأيه فيها ، وأحيانا لايجيبه بانهاجيدة أو رديئة ، بل يقدر قيمة القصيدة ماليا . فيقول له سيعطونك كذا وكذا ، وقد صدق بشار مرتين فى تقديره فاظهر له مروان العجب من ذلك ، فقال بشار ألم اقل لك انى اعلم الغيب ؟ . ولم يكن يعلم الغيب وانما كان يفهم الخلفاء وسياسة الدولة إذ ذاك ! . روى صاحب الاغانى قال : قدم مروان على بشار بالبصرة فأنشده قوله

« طرقتك زائرة فحى خيالها »

فقال له . يعطونك عليها عشرة آلاف درهم . ثم قدم عليه فانشده قوله :

انى يكون ! ! وليس ذاك بكائن   لبنى البنات وراثة الأعمام

فقال يعطونك مائة الف درهم — لما فى ذلك من الرد على العلويين فكان كما قال فى المرتين ! ! فجاءه مروان وقال له ما رأيت أعجب من حديثك ! ! فقال يابنى أما علمت أنه لم يبق أحد أعلم بالغيب من عمك ! ؟ (١)

---

(١) وقد تتفكه حينما تعلم أن مروان نفسه اضطر مرة لأن يقدر قصيدته ماليا — : دخل على جعفر بن يحيى البرمكى وأنشده :

وانظر الى الفرق بين ذوق الشاعرين . قالوا انشد بشار مروان بيته :

واذا قلت لها جودى لنا خرجت بالصمت عن لاونعم

فقال مروان . جعلنى الله فداءك ياأبا معاذ . هلا قلت « خرست بالصمت » بدلا عن « خرجت بالصمت » قال إذن أنا فى عقلك — فض الله فاك — أأتطير على من أحب بالخرس ! ؟

وقد كان بشار معروفا بذوقه فى الشعر . ساله بعضهم عن أجود بيت قالته العرب . فقال ان تفضيل بيت واحد على الشعر كله لشديد . ولكن أحسن لبيد كل الاحسان حين يقول :

أكذب النفس اذا حدثتها ان صدق النفس يزرى بالأمل

أبو الفضل سباق الاضاميم جعفر أبر فما ترجو الجياد لحاقه
وزيرا إذا ناب الخلافة حادث أشار بما عنه الخلافة تصدر

فقال جعفر أنشدنى مرثيتك فى معن بن زائدة فأنشده :

أقمنا باليمامة أو نسينا مقاما لا نريد به زوالا
وقلنا أين نذهب بعد معن وقد ذهب النوال فلا نوالا
و كان الناس كلهم لمعن إلى أن زاد حفرته — عيالا

حتى فرغ من القصيدة !... وجعفر يرسل دموعه على خديه . ثم قال هل أثابك على هذه المرثية أحد من أهل بيته وولده ؟؟ قال لا قال فلو كان معن حيا ثم سمعها منك كم كان يثيبك عليها ؟؟ قال «أربعمائة دينار »قال فانا كنا نظن أنه لا يرضى لك بذلك . وقد أمرنا لك عن معن رحمه الله بالضعف مما ظننت وزدناك مثل ذلك . فاقبض من الخازن ألفا وستمائة دينار قبل أن تخرج

واذا رمت رحيلا فارتحل واعص مايأمر توصيم الكسل

فلو نصب بشار نفسه حكما بين الشعراء كما فعل النابغة فى العصر الجاهلى لارتضوه لعظم مكانته بينهم ونضوج شاعريته . بينما كان ذلك عسيراً على غيره . فقد أراد أبان بن عبد الحميد أن ينصب نفسه حكما بتحريض من البرامكة فكان بينه وبين أبى نواس ماصنع الحدّاد ! !

وكان بشار في الحقيقة ملكا غير متوج من ملوك الشعر . تخضع له الشعراء وتعرض شعرها عليه . فكان لا يحابى فى حكمه كما مرّبك فى موقفه مع « ابى النضير الشاعر » ! ! .. جاءه أبو نواس هذا الثائر على ابان بن عبد الحميد . فانشده قصيدته « اللامية » التى يصف فيها النخل . فاستحسنها . فلما خرج قال بشار . لقد حسدت هذا الغلام على هذا ! وما أخرَجَ منه عن قول شاعر الكوفة – يريد – والبة بن الحباب أستاذ أبى نواس . والكوفة ليست بلده وانما بلده البصرة بلدة بشار فكانت بينه وبين بشار مهاجاة فغلبه بشارفهرب الى الكوفة واشتهر هناك .. ! !

وجاءه العتابى – وهو حدث – فأنشده :

تصدف عن امامة أم تقيم وعهدك بالصبا عهد قديم
أقول لمستطار القلب عفى على عزماته السير العديم
أما يكفيك ان دموع عينى شآبيب تفيض بها الهموم
أشيم فلا أرد الطرف الا على ارجائه ماء سجوم

فمد بشار يده اليه وقال أأنت بصير ؟؟ قال نعم ! قال عجباً لبصير ان يقول هذا الشعر ! !

ترى ان بشاراً يتذوق الشعر تذوق الشاعر الفنان فيعطى كل شاعر منزلته ويضعه حيث وضعه شعره . وقد كان مرة ينشد الشعر فوقف عليه السيد الحميرى واقبل عليه وقال :

ايها المادح العباد ليعطى ان لله ما بأيدى العباد
فاسأل الله ما طلبت اليهم وارج نفع المنزل العواد
لاتقل فى الجوادماليس فيه وتسمى البخيل باسم الجواد

قال بشار من هذا ؟ فعرفوه . فقال لولا أن هذا الرجل شغل عنا بمدح بنى هاشم لشغلنا ولو شاركنا في مذهبنا لتعبنا !

وسأله «ابن سلام» عن الاخطل وجرير والفرزدق . أى الثلاثة أشعر ؟ فقال لم يكن الاخطل مثلهما ولكن ربيعة تعصبت له وأفرطت فيه . قال فهذان ؟ قال كانت لجرير ضروب من الشعر لايحسنها الفرزدق ، ولقد ماتت النوار فقاموا ينوحون عليها بشعر جرير ! قال وأى شىء لجرير من المراثى الا التى رثى بها امرأته ؟ فأنشده لجرير يرثى ولده «سوادة» المتوفى بالشام وكان بها معجبا . وقد مر بك تمثله بها عند ما مات ولده

قالوانصيبك من أجر فقلت لهم كيف العزاء وقدفارقت أشبالى !؟
أودى سوادة يجلو مقلتى لحم باز يصرصر فوق المرباء العالى

قد كنت أعرفه — منى — اذا غلقت رهن الجياد ومد الغاية الغالى

∴

فارقتنى حين كف الدهر من بصرى وحين صرت كعظم الرمة البالى

الا تكن لك بالديرين معولة فرب باكية بالرمل معوال

كأم بوٍّ عجول عند معهده حنت الى جلد منه وأوصال

حتى اذا عرفت الا حياة به ردت هماهم حرى الجوف مثكال

والغريب أن السبب الذى فضل به بشار جريرا هو السبب الذى فضله به الاصمعى على مروان . !

وقال بشار : ما من شعر تقوله امرأة الا وفيه سمة الخنوثة . قيل له فما تقول فى شعر الخنساء ؟ قال لا . . تلك باربع خصى . تلك بذت الفحول . !

وسمع بشار قول كثير بن عبد الرحمن :

وقد جعل الاعداء ينتقصوننا وتطمع فينا ألسن وعيون

الا انما ليلى عصا خيزرانة اذا لمسوها بالاكف تلين

فقال . قاتل الله أبا صخر ! يزعم انها عصا ويعتذر بانها خيزرانة لو قال « عصا مخ » أو « عصا زبد » لكان قد هجن مع ذكر العصا . . هلا قال كما قلت !

ودعجاء المحاجر من معد كأن حديثها ثمر الجنان

اذا قامت لحاجتها تثنت كأن عظامها من خيزران

وحدث أبو عبيدة قال : سمعت بشارا يقول . وقد أنشدنى فى شعر الاعشى

وانكرتنى وما كان الذى نكرت　　　من الحوادث الاالشيب والصلعا

فانكره – قال – هذا بيت مصنوع ما يشبه كلام الاعشى ! فعجبت لذلك ! فلما كان بعد هذا بعشر سنين كنت جالسا عند « يونس » فقال حدثنى أبو عمرو بن العلاء أنه صنع هذا البيت وأدخله في شعر الاعشى . . فجعلت حينئذ أزداد عجبا من فطنة بشار وصحة قريحته وجودة نقده للشعر . !

هذا ما يعرف عن نقد بشار للشعراء وتقديره لهم . وإن كنا لم نستوف ما انتقده به العلماء فان لبعضها مواضع أخرى من هذا الكتاب !

واليك شيئا مما ميز به العلماء بشارا على جلة الشعراء المحدثين ! .

قالوا إن أحسن الناس ابتداء قصيد فى الجاهلية ! امرؤ القيس حيث يقول « ألا عم صباحا أيها الطلل البالى »

وفى الاسلاميين القطاعى فى قوله « إنا محيوك فأسلم أيها الطلل »

وفى المحدثين بشار حيث يقول :

أبى طلل بالجزع أن يتكلما　　　وماذا عليه لو أجاب متيما

وبالجزع آثار بقين – وباللوى　　　ملاعب لا يعرفن إلا توهما

. .

ويوم كتنور الاماء سجرنه وأوقدن فيه الجزل حتى تضرما(١)
رميت بنفسى فى أجيج سمومه وبالعيش حتى بض منخر هادما

..

إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما
إذا ما أعرنا سيداً من قبيلة ذرى منبر صلى علينا وسلما
خلقنا سماء فوقنا بنجومها سيوفا ونقعا يقبض الطرف أقتما

ولشعر بشار ميزة شعر النوابغ فعليه طابع «الجمال والقوة» وقد أحسن الحسن بن رشيق حين قال «من المولدين بشار بن برد تنشد اقصر شعره عروضا والينه كلاما فتجد له فى نفسك هزة وجلبة من قوة الطبع» فأنت إذا قرأت لبشار نصف بيت راعك جماله وراعتك قوته..! فمن قوله هذا الشطر الضائع:

«وكان الزق الزنجى سرق»(٢)

---

(١) التنور معروف. سجرنه أحمينه. الجزل الحطب. وأخذ هـذا البيت بعض اصحاب ابى العباس ثعلب فقال يهجو المبرد:

ويوم كتنور الطهاة سجرنه على انه منه أحر وأوقد
ظللت به عند «المبرد» جالساً فما زلت فى الفاظه «أتبرد»

والضمير فى «قطرت» يعود على اسم محذوف تقديره الرماح أو السيوف. وذلك ثقة بفهم القارئ كقوله تعالى «توارت بالحجاب»..

(٢) يشبه الزق وهو يسحب على الارض ليوضع بين الشرب بزنجى سارق

واختلفت فى بشار الآراء شأن الشعراء النوابغ . وقد تقدم لك شيء من ذلك واليك البقية :

قيل لابى عبيدة : أمروان أشعر أم بشار ؟ ؟ فقال حكم بشار لنفسه بالاستظهار انه قال ثلاثة عشر ألف بيت جيد . ولا يكون عدد الجيد فى شعر شعراء الجاهلية والاسلام هذا العدد : وما أحسبهم برزوا فى مثلها . ومروان امدح للملوك - وهذا الكلام يدلك على مقدار ما ضاع من شعر بشار مما نأسف له اشد الاسف .

وقيل لابى زيد : ايهما اشعر مروان ام بشار ؟ فقال بشار اشعر ومروان اكفر . ومروان اجد وبشار اهزل .

فحدث الاصمعى بذلك فقال : بشار يصلح للجد والهزل ومروان لايصلح الا لاحدهما .

والاصمعى يتكلم عن عقيدة ثابتة واعجاب شديد بالشاعر . قال يصف بشاراً : كان مطبوعا لا يكلف طبعه شيئا متعذرا . لا كمن يقول البيت فيحككه أياما ! . .

وكان يشبه بشاراً بالاعشى والنابغة . ويشبه مروان بزهير والحطيئة ويقول هو متكلف ! !

يسحبونه الى القاضى . . ! ! وفى سحب الزقاق يقول أبو نواس واصفا آثار قوم كانوا يشربون :

« مساحب » من جر الزقاق على الثرى وأضغاث ريحان جنى ويابس

وقال نجم بن النطاح : عهدى بالبصرة وليس فيها غزل ولاغزلة الا يروى من شعر بشار · ولا نائحة ولا مغنية الا تتكسب به . ولا ذوشرف إلا وهو يهابه و يخاف معرة لسانه ! !

وقال الجاحظ : كان بشار خطيباً صاحب منثور ومزدوج وسجع ورسائل — أين هى ! ؟؟ — وهو من المطبوعين أصحاب الابداع والاختراع المتفننين فى الشعر القائلين فى أكثر أجناسه وضروبه

وقال ابن شرف القيروانى : هو أول المحدثين وآخر المخضرمين وممن لحق الدولتين · عاشق سمَع وشاعر جُمَع : شعره ينفق عند ربات الجمال وعند فحول الرجال · فهو يلين حتى يستعطف ويقوى حتى يستنكف ! . . وقد طال عمره وكثر شعره وطما بحره ونقب فى البلاد ذكره

وقال بشار نفسه : لى اثنا عشر ألف بيت عين – زادها أبوعبيدة ألفا : انظر كلمته آنفا – فقيل له هذا مالم يكن يدعيه أحد سواك ! ؟ فقال لى اثنتا عشرة ألف قصيدة ! لعنها الله ولعن قائلها ان لم يكن فى كل واحدة منها بيت عين.

وأبدى « ابن عائشة » اعجابه بفصاحة الشاعر فقال : جاء بشار يوما الى أبى وأنا على الباب ! فقال لى من أنت ياغلام؟؟ فقلت من ساكنى هذه الدار ! . . فكلمنى والله بلسان ذرب وشدق هرت ! !

—٣—

وماذا أقول ويقول غيرى فى شاعر اتفق نقاد عصره على أنه أشعر مُحْدَث لعهدهم - والمحدثون أو المولدون هم المتأخرون الذين فسدت فيهم ملكة اللسان فعالجوها بالصناعة - ولا أرى أحسن من أن أختم هذه الكلمة يقول بشار عند ماقيل له : ليس لأحد من شعراء العرب شعر إلا وقد قال فيه شيئا استنكرته العرب من ألفاظهم وشكّوا فيه ! وانه ليس في شعرك ما يشك فيه .. !! قال ومن أين ياتينى الخطأ ؟؟ ولدت ههنا ونشأت فى حجور ثمانين شيخا من فصحاء ابن عقيل مافيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ ! وإن دخلت الى نسائهم فنساؤهم أفصح منهم ! وأيفعت فأبديت الى أن أدركت ! فمن أين ياتينى الخطأ ! ؟؟

هجاؤه :

سألته امرأة . لم يهابك الناس وأنت على ما أرى ! ؟ فقال ليس من حسن يهاب الأسد ! . .

نعم ليس من حسن يهاب الاسد ، ولكنه يهاب لشره . . ! هكذا يتفلسف بشار ويخلق لنفسه عذرا فى هجائه . وقد مر بك انه أول فن من فنون الشعر عالجه . ثم أوغل فيه بعنف حتى هابته أصدقاؤه قبل اعدائه . فقيل له : إنك كثير الهجاء ! فقال « انى وجدت الهجاء المقذع آخذ بضبع الشاعر من المديح الرائع ! ومن أراد من الشعراء أن يكرم فى دهر اللئام على المديح فليستعد للفقر ! والا فليبالغ فى الهجاء

ليخاف فيعطى ، وهذا مذهب الشعراء من معاصريه وغيرهم كدعبل وأمثاله من هجائى الشعراء .

وما زال بشار عاملا بمبدئه هذا حتى أورده حتفه . فهو كما قيل– قتل الهجاء وقتله الهجاء ! . .

وحدث بعض أصحاب أبى زيد – قال – أتانى أعشى سليم وأبو حنش . فقالا لى انطلق معنا الى بشار فتسأله أن ينشدك شيئا من هجائه فى حماد عجرد أو عمرو الظالمى . فانه ان عرفنا لم ينشدنا . فمضيت معهما حتى دخلت على بشار . فاستنشدته فأنشد قصيدة له على الدال . وجعل يخرج من واد فى الهجاء الى واد آخر وهما يستمعان وبشار لا يعرفهما . فلما خرجا قال أحدهما للآخر . أما تعجب مما جاء به هذا الاعمى ! !

فقال أبو حنش . أما أنا فلا أعرض . والله والدى له أبداً ! وأحسبهما كانا قد ارادا أن يتعرضا لمهاجاته .

وكان بشار من أحذق الناس بالهجو . فقد قال مرة . ما كان الكميت شاعراً . فقيل له وكيف وهو الذى يقول :

أنصف امرىء من نصف حى يسبنى ؟

لعمرى لقد لاقيت خطبا من الخطب

هنيئا لكلب ان كلبا يسبنى ! وانى لم أردد جوابا على كلب

فقال بشار لا بل شانئك ! . أترى رجلا لو ضرط ثلاثين سنة

لم يستحل من ضرطه ضرطة واحدة ؟؟

ومن متفرقات شعره هذه الابيات التى سنوردها الآن فهى مثال واضح لما ستقرأه بعد فى طيات هذا الكتاب !..

يقول شاتما ممدوحه ومهدداً :

تأتى اللئيم وما سعى حاجاته　　عدد الحصى ويخيب سعي الدائب
أحسن صحابتنا فانك مدرك　　بعض اللبانة باصطناع الصاحب
واذا جفوت قطعت عنك منافعى　　والدر يقطعه جفاء الحالب

ويصف رجلا يحب المدح ويكره المنح :

يحب المديح «أبو مالك»　　ويفرق من صلة المادح
كبكر تشتهى لذيذ النكاح　　وتفرق من صولة الناكح (١)

ويهجو بنى ضبيعة

وفى العبلات الغر صبر على الندى　　أولئك حى من خزيمة أغلب
والأم من يمشى «ضبيعة» انها　　زعانف لم يخطب اليها.. محجب!

ويهجو العتيك مستطرداً :

وكأن غلى دنانهم فى دورهم　　لغط العتيك على خوان زياد (٢)

---

(١) وهذا المعنى من متداولات ذلك العصر . فيقول أيضا ابن هرمة وهو معاصر له :

انك والمدح كالعذراء يعجبها　　مس الرجال ويثنى قلبها الفرق

(٢) العتيك فخذ من الازد . ولأحدهم حكاية تلابس ما نحن فيه . وذلك أن المعذل الليثى كان كثير ارتكاب الجنايات فكانت تلزمه ديات كثيرة . وكان «النهس

ابن ربيعة العتكى » يكفل عنه مايلزمه من المال . فوقع المعذل ذات يوم وقبض عليه . فادركه النهس العتكى وحمله على فرس وأمره أن ينجو بنفسه . وأسلم نفسه مكانه . . ! ثم نجا بعد ذلك . فقال له المعذل أخيرك بين ان أمدحك أو أمدح قومك . فاختار العتكى مدح قومه . فقال :

جزى الله فتيان « العتيك » وان نأت   ابى الدار عنهم خير ما كان جازيا
هم خلطونى بالنفوس وأكرموا الصـ   ـحابة لما حم ما كنت لاقيا
هم يفرشون اللبد كل طمرة   وأجرد سباح يبذ المغاليا
كأن دنانيراً على قسماتهم   اذا الموت للابطال كان تحاسيا

وفى اختيار العتكى مدح قومه عبرة لنا فى هذا البحث . إذ أن العتيك والازد واليمن عموماً ما كانوا يذمون ويرمون بالحماقة دائما . . فلا مادح لهم الا فيما ندر . . وكانت كافة الشعراء المضريين تحمق رجال الازد وتستخف أحلامها — قاله عمرو الجاحظ !. .

قال عمر بن لجأ :

تصطك ألحيها على دلائها   تلاطم الازد على عطائها

وقال الراجز فى أزد عمان :

كأن أصواتهـا بالوادى   أصوات حج من عمان غادى

وذلك لرفعهم أصواتهم فى الـكلام وشغبهم فى الخطاب حتى صار ذلك مأخذاً لجميع الشعراء يشبهون به الاصوات المضطربة وصوت غليان القدور والدنان وغطمطتها . بل وأجروا ذلك على غير الازد من القبائل اليمنية . قال ابن أحمر :

إخالها سمعت عزفاً فتحسبه   اهابة « القسر » ليلا حين تنتشر

وبشار انما يشبه غلى الدنان — دنان من يمدحهم — بلغط العتيك وجلبتهم وطمطانيتهم على خوان أحد أشرافهم أو أمرائهم المسمى زياداً . . ! وصنو هذا البيت قول الكميت يشبه غلى الدنان أيضا :

كأن الغطامط من غليها   أراجيز أسلم تهجو غفارا

ويذم رجلا بالبخل — وربما كان عمراً الظالمى الذى يهاجيه[1]:-

وضيف عمرو وعمرو يسهران معاً ... عمرو لبطنته والضيف للجوع

ويقول في رجل يقال له عبدالله بن قذعة :

. . . .

وحمد كعصب البرد حملت صاحبى ... إلى ملك للصالحات قرين

☆☆☆

خليلى من كعب أعينا أخاكما ... على دهره ! إن الكريم معين

ولا تبخلا بخل « ابن قذعة » إنه ... ـ مخافة أن يرجى نداه ـ حزين

إذا جئته فى حاجة سدّ بابه ... فلم تلقه إلا وأنت كمين

إذا سلم المسكين طار فؤاده ... ـ مخافة سؤل ـ واعتراه جنون

كأن « عبدالله » لم يلق ماجداً ... ولم يدر أن المكرمات تكون

فقل « لأبى يحيى » متى تدرك العلا؟ ... وفى كل معروف عليك يمين !!

وقال بن سلام : وقف رجل من بنى زيد شريف — لا أحب أن أسميه — على بشار . فقال يا بشار ! قد أفسدت علينا موالينا تدعوهم إلى الانتفاء منا وترغبهم فى الرجوع إلى أصولهم وترك الولاء وأنت غير زاكى الفرع ولا معروف الاصل ! .. تأمل ما فى هذا

---

(١) ولم نجد له فى هجاء عمرو غيره هذين البيتين :

تالبنى عمرو وثالبته ... فأثم المثلوب والثالب

قلت له خيرا وقال الخنى ... كل على صاحبه كاذب !!

القول من البراهين القوية على تعصبه للفرس حتى كاد أن يكون من زعماء المذاهب السياسية ! ..

فقال بشار : والله لأصلي أكرم من الذهب ولفرعي أزكى من عمل الأبرار . وما فى الأرض كلب يود أن نسبك له بنسب . ولو شئت أن اجعل جواب كلامك كلاما لفعلت ! ولكن موعدك غداً بالمربد ! ..

فرجع الزيدى إلى منزله وهو يتوهم أن بشاراً يحضر معه المربد ليفاخره . فخرج من الغد يريد المربد فاذا برجل فى الطريق ينشد :

شهدت على « الزيدى » أن نساءه ضباع إلى إير العقيلى تزفر

فسأل الزيدى عن قائل هذا البيت ، فقيل إنه لبشار . فرجع إلى بيته ولم يدخل المربد — مربد البصرة — الى أن مات !

واليك أبياته التى قالها فى الزيدى — وفى أولها الضائع المجهول هذا البيت الذى قرأ فيه الأعمى رسوم المنازل ! قال :

....

وأبدى البلى فيها سطوراً مبينة عباراتها : ان كل بيت سيدثر !

☆☆☆

سلبت عظامى لحمها فتركتها مجردة تضحى اليك وتخصر

وأخليتها من مخها فتركتها أنابيب فى أجوافها الريح تصفر

إذا سمعت باسم الفراق تقعقعت مفاصلها من هول ما تتنظر

فليس الذى يجرى من العين ماؤها ولـكنها نفسى تذوب فيتقطر
خذى بيدى ثم ارفعى الثوب فانظرى
بى الضرّ — الا اننى أتستر
فما حيلتى إن لم تكن لك رحمة علىّ - ولا لى عنك صبر فاصبر
فوالله ! ما قصرت فيما أظنه رضاك — ولـكنى محب مكفر

☆☆☆

شهدت على الزيدى أن نساءه ضباع ! الى أير العقيلى تزفر
بلوت بنى زيد فما فى كبارهم حلوم . ولا فى الأصغرين مطهر
فابلغ بنى زيد وقل لسراتهم - وان لم يكن فيهم سراة توقر -
لأمكم الويلات ! ان قصائدى صواعق منها منجد ومغور
أجدكم !! لايتقون دنية ولا يؤثرون الخير . والخير يؤثر !
يلفون أبناء الزنا فى عدادهم فمدتهم من عدة الناس أكثر
اذا ما رأوا - من دأبه مثل دأبهم - اطافوا به ! والغى للغى أصور
ولو فارقوا ما فيهم من دعارة لما عرفتهم أمهم حين تنظر !!
لقد فخروا بالملحقين عشية فقلت افخروا ان كان فى اللؤم مفخر
يريدون مسعاتى - ودون لقائها - قناديل أبواب السموات تزهر
فقل فى بنى زيد - كما قال معرب - قوارير حجام غداً تتكسر

فأنشد رجل يوما « يونس النحوى » هـذه القصيدة . فقال يونس حسبك حسبك !! من هيج هذا الشيطان عليهم ؟؟ قال .

« فلان » . قال رب سفيه قوم كسب لقومه شراً عظيما .

وبشار يعلم سوء سمعته ويعرف أنه إذا تغزل بامرأة أضر بها وأساء اليها . فيقول واصفا نفسه ومنزلته فى قلب محبوبته :

أنت من قلبها محل شراب　　يرتجى شربه . ويخشى صداعه

وقد تلطف ما شاء فى هجائه لنفسه .. !!!

مدحه :

بشار يعرف قيمة شعره ويرى أنه لايهدى إلا للملوك ويفتخر بأنه يزورهم فيكرمونه . قال :

زور الملوك عليه أبهة　　يعرف من شعره ومن خطبه

لله !! ما راح فى جوانحه　　من لؤلؤ لاينام عن طلبه

يخرج من فيه للندى كما　　يخرج ضوء السراج من لهبه

وقال :

وإنى لنهاض اليدين إلى العلا　　قروع لأبواب الهمام المتوج

ومن رأيه أن الشاعر يجب عليه أن ينتجع بمدحه مكانة تليق بالشعر وأهله وأن يكون على جانب من الأنفة غير قليل . فيقول :

واذا أعرت فلا تكن جشعا　　تسمو لغث الكسب تكتسبه

ولبشار المدائح الرائعة التى تتواضع أمامها عرائس المدح . وسترى منها الشىء الكثير فى مواضعه . واليك الآن متفرقاته الشاردة وهى مطبوعة كباقى شعره بطابعه الخاص ! فمنها قوله :

إذا الحرب قامت بهم شمروا　　وكانوا أسنة خرصانها

وقوله .

وبيض ! بهامسك للمس اكفهم   على أنها ريح الدماء تضوع

وقوله :

وقد ظلموه حين سموه سيداً   كما ظلم الناس الغراب باعور

وقوله يمدح نفسه بالحزم :

اذا ما أمور الناس رثت وضيعت   وجدت أمورى كلها قد رممتها

وقوله :

هززتك لا أنى وجدتك ناسيا   لأمرى ! ولا أنى أردت التقاضيا

ولكن رأيت السيف من بعد سله   الى الهز محتاجا وان كان ماضيا

وليس شاعر كبشار فى استنجاز حاجته وتنبيه ممدوحه . فهو الذى يقول

حتى متى ! ليت شعرى يا ابن يقطين ؟   أثنى عليك بما لا منك تولينى

أما علمت جزاك الله صالحة ؟ !   عني ! وزادك خيرا يا ابن يقطين

انى أريدك للدنيا وزينتها   ولا أريدك يوم الدين للدين

وبشار — كما تعرف أو كما لا تعرف — ولاؤه فى بنى عقيل . وعقيل من بنى عامر . وعامر من قيس عيلان بن مضر بن نزار . لذلك كان بشار يتعصب للقيسية أو بالحرى للمضرية . ويتعصب لبنى عقيل خاصه فيمدحهم عصبية ويفاخر من يفاخرهم — وهكذا كان واجب المولى نحو مواليه ولو بعد عتقه !

ففاخر بشاراً «جرير بن المنذر السدوسى» وسدوس من بكر ابن وائل . من ربيعة بن نزار — وبين ربيعة ومضر المفاخرات الشديدة فى الجاهلية والاسلام ومن ثم اليمن معهما — فقال له بشار

أمثل - بنى مضر - وائل !؟ ... فقدتك من مفاخر ما أجن !!
أفى النوم هـذا أبا منذر ؟؟ ... فخيرا رأيت ! وخيرا يكن
رأيتك والفخر فى مثلهـا ... كماجنة غير ما تطحن

ونازعه رجل فى اليمانية والمضرية . فبينا هما في الكلام إذ أذن المؤذن . فقال له بشار رويدا ! تفهم ما يقول . فلما قال «أشهد أن محمدا رسول الله» قال له بشار : أهذا الذى نودى باسمه مع اسم الله عز وجل ! من مضر هو ؟ أم من صداء وعك وحمير ؟؟ فافحم الرجل!

على أنه كان كثير التلون فى ولائه ، فمرة يفتخر بولائه فى قيس وبنى عقيل ويمدحهم ! فيقول :

أمنت مضرة الفحشاء أنى ... أرى «قيساً» تشب ولا تضار!
كان الناس - حين تغيب عنهم ... نبات الارض أخطأه القطار
وقد كانت بتدمر خيل قيس ... فـكان لتدمر بهم دمار
نجى من بنى عيلان شوس ... يسير الموت حيث يقال ساروا
فما نلقاهم الا صدرنا ... برى منهم أو هم حرار

ويقول

إنى من بني عقيل بن كعب ... موضع السيف من طلى الأعناق

ومرة يتبرأ من ولاء العرب — أو يفتخر بأصله الفارسى كاسيمر بك — فيقول :

أصبحت مولى ذى الجلال وبعضهم مولى «العريب» فجد بفضلك وافخر
مولاك أكرم من تميم كلها أهل الفعال ! ومن قريش المشعر !
فارجع الى مولاك غير مدافع سبحان مولاك الاجل الاكبر

وهو كما قدمنا يتعصب لبنى عقيل بن كعب فى مفاخرتها . فتفاخرت يوما بنو عقيل وبنو سدوس ! فاستعانت عقيل ببشار وقالوا له يا أبا معاذ نحن أهلك وأنت ابننا ربيت فى حجورنا ! فأعنا .. فخرج عليهم وهم يتفاخرون . فجلس ثم أنشد :

كأن بنى سدوس رهط ثور خنافس تحت منكسر الجدار
تحرك للفخار زبانيتها وتخر الخنفساء من الصغار

فوثب بنو سدوس اليه فقالوا مالنا ولك ياهذا ؟ نعوذ بالله من شرك !! فقال هذا دأبكم أن عاودتم مفاخرة بنى عقيل — فلم يعاودوها ! ..

وكان كما أسلفنا مادحا لقيس متغنيا بفضائلها ! واليك صورة من ذلك فى غاية الطرافة — : روى أبان بن عبد الحميد اللاحقى شاعر البرامكة المنقطع اليهم وناظم كليلة ودمنة وغيرها — قال — نزل فى ظاهر البصرة قوم من أعراب قيس عيلان . وكان فيهم بيان وفصاحة فكان بشار يأتيهم وينشدهم أشعاره التى يمدح بها قيسا . فيجلونه

لذلك ويعظمونه . وكانت نساؤهم يجلسن ويتحدثن اليه فينشدهن أشعاره فى الغزل ! . . وكنت كثيراً ما آتى فى ذلك الموضع فأسمع منه ومنهم . فأتيتهم يوما فاذا هم ارتحلوا ! فجئت الى بشار . فقلت ياأبامعاذ أعلمت أن القوم قد ارتحلوا ؟ ؟ قال لا ! قلت فاعلم ! قال قد علمت لا علمت

فلما كان بعد ذلك بأيام سمعت الناس ينشدون :

دعا بفراق من أهوى «أبان» ففاض الدمع واحترق الجنان
كأن شرارة وقعت بقلبي لها فى مقلتى ودمى استنان
ذا أنشدت أو نسمت عليها رياح الصيف هاج لها دخان

☆☆☆

عتبت على الزمان . وأى حى من الاحياء أعتبه الزمان ! ؟
وآمنة من الحدثان تزرى علىّ ! وليس من حدث أمان
وليس بزائل يرمى ! ويرمى ! معان مرة ! أو مستعان !

فعلمت أنها لبشار . فأتيته وقلت يا أبا معاذ ماذنبى اليك ؟؟ قال ذنب غراب البين ! ! فقلت هل ذكرتنى بغير هذا ؟ قال لا . فقلت أنشدك الله ألا تزيد . فقال امض لشأنك فقد تركتك ! . .

وقال بشار أيضا :

حللنا آمنين بخير عيش ولم يشعر بنا واش يكيد
ولم نشعر بجد البين حتى أجد البين سيّار عنود

وحتى قيل قوّض آل بشر وجاءهم ببينهم البريد
وابرز فى الهوادج ناعمات عليهن المجاسد والعقود

***

فلما ودعونا ! واستقلت بهم قلص هواديهن قود
كتمت عواذلى ما فى فؤادى وقلت لهن — ليتهم بعيد !
فجالت عبرة أشفقت منها تسيل — كأن وابلها فريد !
فقالوا «قدجزعت» فقلت «كلا وهل يبكى من الشوق الجليد ؟
ولكن أصاب سواد عيني عويد قذى له طرف حديد»

فقالوا

... ما لدمعهما سواء أكلتا مقلتيك أصاب عود ! ؟
لقبل دموع عينك خبرتنا - بما جمجمت - زفرتك الصعود
فقم وانظر - يزدك مطال شوق هنالك - منظر منهم بعيد

وعلى ذلك نال بشار من مواليه لقب «شاعر قيس» المادح لهم المشيد بمفاخرهم الذاب عن أعراضهم . لذلك أنف له «محمد بن حازم الباهلى» الشاعر الشهير فيما حكى عن نفسه - لأن باهلة من قيس - قال -: دعانا بشار بن برد وكانت عنده قينتان تغنيان فكان فى المجلس من يعبث بهما و يمد يده اليهما . فأنفت له من ذلك وكتبت اليه من الغد :

اتق الله أنت «شاعر قيس» لاتكن وصمة على الشعراء

ان اخوانك المقيمين بالامـ ـس أتوا للزناء لا للغناء
قطعوا أمرهم وأنت حمار موقر من بلادة وغباء

☆☆☆

أنت اعمى وللزناة هنات منكرات تخفى على البصراء
هبك تستمع الحديث فما علـ ـمك فيه بالغمز والايماء
والاشارات بالعيون وبالايـ ـدى أو أخذ الميعاد للالتقاء

☆☆☆

قد لعمرى توردوا خطة الغد ر وجاءوا بالسوأة السوءاء
غير ما ناظرين فى حرمة الو د ولا ذاكرين عهد الاخاء

فادخلهما من يومه الى السوق فباعهما ! ..

وقد قرات هذه الابيات – مع زيادة ونقصان – فى ديوان البحترى يهجو بها – كما يقول جامعه – على بن الجهم ! وأولها :

يا على ! بل يا أبا الحسن المالك رق الظريفة الحسناء

وانى أشك فى نسبتها الى البحترى لاعتبارات كثيرة . أحدها انه ليس فى الابيات هجاء بالمعنى المعروف .

غزله :

مر بعض أهل الكوفة ببشار – وهو منبطح فى دهليزه كأنه جاموس – فقال يا أبامعاذ ! من القائل ؟

فى حلتى جسم فتى ناحل لو هبت الريح به طاحا

قال أنا . ! قال ما حملك على هذا الـكذب ؟ والله إنى لأرى أن لوبعث الله الرياح التى أهلـكت الامم الخالية ماحركتك من موضعك ! فقال بشار من أين أنت ؟ قال من الـكوفة ! فقال أهل الكوفة لاتدعون ثقلكم ومقتكم على كل حال !؟

وجلس اليه أصدقاء له من أهل الكوفة كانوا على مثل مذهبه فى الاستهتار والمجون ! فسألوه ان ينشدهم شيئا مما أحدثه . فانشدهم قوله :

أنى دعاه الشوق فارتاحا من بعدما أصبح جحجاحا !؟

حتى أتى الى قوله — اسألهم أيها القارىء أين باقى القصيده !؟

فى حلتى جسم فتى ناحل لو هبت الريح به طاحا

فقالوا يا ابن الزانية ! أتقول هذا وأنت كأنك فيل عرضك مثل طولك !؟ فقال قوموا عني يابنى الزناء فانى مشغول القلب لست أنشط لمشاتمتكم ! :

ترى معاصريه واخوانه كانوا يستهزئون بعشقه ويتنادرون عليه وفى الحقيقة ان بشاراً لم يعشق ولم يكن يوما عاشقا . فمن مذهبه التنقل حيث شاء ، فهو كاذب فى دعواه حين يقول :

لقدكاد ماأخفى من الوجد والهوى يكون جوى بين الجوانح أو خبلا(١)

---

(١) « تعليق » — : قال « عطاء الملط » أتيت بشاراً . فقلت له ياأبامعاذ أنشدك شعراً حسناً ؟؟ قال ماأسرنى بذلك !! فانشدته :

أعاذلتى اليوم ويلكما مهلا فاجزعا م الآن أبكى ولا جهلا

اذاقال « مهلا » ذو القرابة زادنى ... ولوعا بذكراها ووجدانها «مهلا»
فلا يحسب البيض الأوانس ان فى ... فؤادى سوى «سعدى» لغانية فضلا
فاقسم – ان كان الهوى غير بالغ ... بى القتل من سعدى – لقد جاوز القتلا
فيا صاح! خبرنى الذى أنت صانع ... بقاتلتى ظلما – وما طلبت ذحلا! ..
سوى اننى فى الحب بينى وبينها ... شددت على أكضام سر لها قفلا[1]

وجد كاذب حين يبكى بكاء يعقوب فيقول :

نفر الحى من بكائى وقالوا ... فز بصبر لعل عينك تبرو

على أنه كان رقيق الغزل . فهو القائل :

انى اشتهى لقاءك واللـ ... ـه – فماذا عليك أن تلقانى ! ؟
قد تلف الرياح غصنا من البا ... ن الى مثله – فيلتقيان ! !

والقائل :

أصفراء ! كان الود منك مباحا ... ليالى كان الهجر منك مزاحا
وكان جوارى الحى إذ كنت فيهم ... قباحا ! فلما غبت صرن ملاحا

فلما فرغت منها قال لى « أحسن ! . . » ثم أنشدنى على رويها ووزنها : لقد كاد ما أخفى من الوجد والهوى . يكون جوى . . . . الخ الخ فاستحسنت القصيدة وقلت يا أبا معاذ قدوالله أجدت وبالغت ! ! فلو تفضلت بأن تعيدها ! ؟ فاعادها على خلاف ما أنشدنيها في المرة الاولى ! فتوهمت أنه قالها فى تلك الساعة ! . .

والقائل :

خططت مثالها وجلست أشكو | اليها ما لقيت – على انتحاب !
كأنى عندها أشكو اليها | همومى – والشكاة الى تراب !

والقائل :

تلقى بتسبيحة!! من حسن ما خلقت | وتستفز حشا الرائى بأرعاد
كأنما صورت من ماء لؤلؤة | فكل جارحة وجه بمرصاد

ومثله :

وما ظفرت عينى غداة لقيتها | بشىء ! سوى اطرافها والمحاجر
حوراء من حور الجنان غريرة | يرى وجهه فى وجهها كل ناظر

والقائل – وكأنها « تلغافة » أعنى إشارة تلغافية – تلغرافية – :

من المفتون بشار بن برد | الى شيبان كهلهم ومرد — :
ان فتاتكم سلبت فؤادى | فنصف عندها والنصف عندى!!

والقائل :

هل تعلمين وراء الحب منزلة | تدنى اليك؟ فان الحب أقصانى ! ؟

والقائل :

أتتنى الشمس زائرة | ولم تك تبرح الفلكا

والقائل :

أصفراء لا أنسى هواك ولا ودى | ولا ما مضى بينى وبينك من عهد
اذا هتف القمرى نازعنى الهوى | بشوق! فلم أملك دموعى من الوجد

أبى الله إلا أن يفرق بيننا وكنا كماء المزن شيب مع الشهد
وقد كان مابينى – زمانا – وبينكم كما كان بين المسك والعنبر الورد [1]
فجذت حبال الوصل أسياف هجركم وقدت لرجل البين نعلين من خدى

ومع ذلك فقد كان اباحى العشق شهوانى الحب بهيمى اللذة . حتى أنه كان مرة جالسا مع أصحابه فضحك بعد سكوت طويل . فقيل له ما الذى يضحكك يا أبا معاذ ؟ فقال اههنا محتشم ؟ قالوا لا ! قال لو اعطى كل انسان امنيته هلك الناس وبطل الحرث والنسل . قالوا كيف هذا ؟ قال ماعلى ظهرها رجل الا وهو يتمنى أن يكون لى ايره اير حمار . ولا امرأة الا وهي تتمنى أن يكون فرجها أضيق من حلقة الخاتم . فمتى يدخل ذاك فى هذا ! ؟ . فاعجب لهذه الخاطرة فى فلسفة الامانى والاحلام !!!

---

(١) البيت « وقد كان مابينى زمانا وبينها » أخذه على بن الجهم فقال :
وبتنا على رغم الحسود كأننا خليطان من ماء الغمامة والخمر
وأخذه ابن أبى عيينة فقال :
ما أنس لا أنس يمناها معطفة على فؤادى ويسرها على رأسى
وقولها ليته ثوباً على جسدى أو ليتنى كنت سربالا لعباس
أو ليته كان لى خمراً وكنت له من ماء مزن – فكنا الدهر فى كاس
والاصل فى هذا المعنى قول الأخطل :
من الجاريات الحور مطلب سرها كبيض الأنوق المستكنة فى الوكر
وانى وإياها اذا مالقيتها لكالماء من صوب الغمامة والخمر

وقال له رجل – وهو فى المسجد – أيعجبك الغلام الجادل ؟؟
فقال غير محتشم ! لا . ولكن تعجبني أمه !!

وقيل له أى متاع الدنيا آثر عندك ؟ فقال طعام مزّ وشراب مزّ وبنت عشرين بكر!

وحدث رجل من باهلة – قال.. كنت عند بشار فأتاه رجل فسلم عليه . فسأله بشار عن خبر جارية عنده وقال كيف ابنتى ؟؟ قال الرجل فى عافية وهى تدعوك اليوم ؟ فقال يا باهلىّ إنهض بنا ! فجئنا الى منزل نظيف وفرش سرى . فأكلنا ثم جىء بالنبيذ فشربنا مع الجارية : فلما أردنا الانصراف قامت الجارية فأخذت بيده فلما صارا فى فناء الدار أومأ اليها ليقبلها . فارسلت يدها من يده . فجعل يدور فى العرصة . وخرج المولى سيد الجارية فقال مابالك يا أبامعاذ ؟؟ فقال أذنبت ذنبا ولا أبرح أو أقول شعرا . فقال قل! فانشد:

أتوب اليك من السيئات وأستغفر الله من فعلتى
تناولت ما لم أرد نيله على جهل أمرى وفى سكرتى
ووالله ! والله ! ما جئته لعمد — ولا كان من همتى
وإلا فمت إذن ضائما وعذبني الله فى ميتتى
فمن نال خيراً على قبلة فلا بارك الله فى – قبلتى !!

ومذهبه فى النساء معروف – فهو القائل !

لا يؤيسنك من مخبأة   قول تغلظه – وإن جرحا ![1]
عسر النساء الى مياسرة   والصعب يمكن بعد ماجمحا

ورووا أن النساء المتظرفات كن يدخلن إلى بشار فى كل جمعة يومين – كذا فى الاغانى ويريد كل أسبوع – فيجتمعن عنده ويسمعن من شعره !! فسمع كلام امرأة منهن فعلقها قلبه . فراسلها يسألها أن تواصله . فقالت لرسوله « قل له . أو لك فى وأنت أعمى لاترانى فتعرف حسنى ومقداره ؟ وأنت قبيح الوجه فلا حظ لى فيك ! فلأى شيء تطلب وصال مثلى ؟ » .. وجعلت تهزأ به فى رسالتها ... فادى الرسول الرسالة !! فقال عد إليها وقل لها :

أيرى له فضل على آيارهم   فاذا أشظ سجدن غير أوابى
عجل الركوب – إذا اعتراه نافض –   – وإذا أفاق – فليس بآركاب

---

(١) حدث بعض الشعراء – قال – أتيت بشاراً وبين يديه مائتا دينار ! فقال : خذ منها ماشئت ! أو تدرى سببها ؟ ؟ قلت لا ! قال جاءنى فتى فقال لى أنت بشار ! فقلت نعم . قال إنى آليت أن أدفع اليك مائتى دينار ! وذلك انى عشقت امرأة فجئت اليها فكلمتها فلم تلتفت الى . فهممت ان أتركها فذكرت قولك

لا يؤيسنك من مخبأة قول .... الخ الخ

فعدت اليها فلازمتها حتى بلغت منها حاجتى ! . .

فانظر أيها القارئ الى تأثير الدعاية السيئة التى قام بها بشار مصوراً نفسية المرأة !! لعمرى لقد كان لها أسوأ أثر فى نفوس الشباب مما جعل الخطر حقيقيا جديراً بالتفات الخليفة نفسه ! . .

تلقاه – بعد ثلاث عشرة – قائما   فعل المؤذن شك يوم سحاب !
وكأن هامة رأسه بطيخة   حملت إلى ملك بدجلة جابى !!

وبهذه الميزة – على ما نظن – يريد بشار أن تنتخبه معشوقته حيث يقول :

زنى القوم حتى تعرفى عند وزنهم   إذا رفع الميزان كيف أميل

ومن غزله المغرى هذا البيت العجيب :

صفراء من سرب بنى مالك   لها « كعثب » من بطنها أرفع

وهو القائل أيضا معتمداً فى اصطياده النساء على مساعدة الاقدار

قال ريم مرعث   فاتن الطرف والنظر
– لست والله مدركى   قلت . . . .
– أو يغلب القدر !!
– مُنْتَ إن رمت وصلنا   فانج ! هل تدرك القمر !؟

ولما كان بشار أعمى فقد قوى حسه وصار بدلا من التمتع بالنظر والافتتان بمرأى الجمال يتمتع بسماع الحديث وبالملامسة والشم . ثم لما أنكر الناس عشقه وقالوا « إن العين باب القلب » أجابهم بقوله « والاذن كالعين توفى القلب ما كانا » وله فى ذلك أشعار كثيرة ! منها قوله :

قالت « عقيل بن كعب » إذ تعلقها   قلبى ! وأضحى به من جلها أثر
أنى – ولم ترها – تهذى !؟ فقلت لهم   إن الفؤاد يرى ما لا يرى البصر !!

أصبحت كالهائم الحيران مجتنبا لم يقض وردا ولا يرجى له صدر

وقال :

وكاعب قالت لأترابها . يا قوم! ما أعجب هذا الضرير!!

هل يعشق الانسان مالا يرى ؟؟ فقلت — والدمع بعيني غزير — :

إن كان عيني ! لاترى وجهها فانها قد صورت فى الضمير !!

وقال :

قالوا بمن لا ترى تهذى ؟؟ فقلت لهم الأذن كالعين توفى القلب ما كانا

هل من دواء لمشغوف بجارية يلقى بلقيانها روحا وريحانا ؟؟

وهذان البيتان والمقطوعتان السابقتان يقولها فى محبوبته «عبدة» !..

وقال:

إن سلمى — والله يكلؤها — كالسكر تزداده على السكر

بلغت عنها شكلا فاعجبنى والسمع يكفيك غيبة البصر

ويتشمم فيقول :

أملى ! لا تأت فى قمر لحديث — واتق الدّرعا ![1]

وتوق الطيب ليلتنا إنه واش إذا سطعا

(١) أدرع الشهر درعا إذا جاوز نصفه ودخل فى النصف الثانى . يقول لها تأتى فى ضوء القمر ولا تأتى فى الليالى الاخيرة حيث يطلع القمر متأخراً فيفضحك أثناء انصرافك وبعكس ذلك الليالى الأولى حيث يمكنها المجىء والذهاب فى سواد الليل ! !

ويقول :

إذا وضعت فى مجلس القوم نعلها   تضوّع مسكا — ما أصاب — وعنبرا

ويتذوّق فيقول :

وهبت له على المسواك ريقا   فطاب له بطيب ثنيتك !
أقبله على الذكرى كأنى   أقبل فيه فاك ومقلتيك !

ويتباصر فيقول :

وخذى ملابسى زينة   ومصبغات فهى أفخر
وإذا دخلت تقنعى   بالحمر — إن الحسن أحمر !

ولتلذذه بالحديث ونشره أذنيه دائما أكثر من وصفه فيقول :

وحديث كأنه قطع الرو   ض وفيه الصفراء والحمراء

فنعمنا — والعين حى كميت —   بحديس كنشوة الخندريس

وإنا ليجرى بيننا حين نلتقى   حديث له وشى كوشى المطارف

وبكر — كنوار الرياض حديثها —   تروق بوجه واضح وقوام

ويقول :

لقد عشقت أذنى كلاما سمعته   رخيما وقلبي للمليحة أعشق ! !
فلو عاينوها لم يلوموا على البكا   كريما ! سقاه الخمر بدر محلق
وكيف تناسى من كأن حديثه   باذنى — وان غنيت — قرط معلق

ويقول :

....

من فتاة صب الجمال عليها « فى حديث كلذة النشوان »

ثم فارقت ذاك غير ذميم كل عيش لنا وان طال فانى

ولكنه يتألم عند مايكون حديث المجالس على وتيرة واحدة فيقول « لا تجعلوا مجلسنا غناء كله ! ولا شعراً كله ! ولا حديثا كله ! فأن العيش فرص . ولكن تحدثوا وتناشدوا . وتعالوا نتناهب العيش انتهابا »

ولنا أن نسأل . هل كان بشار فى مراسلته النساء ومواعدتهن له موفقا ؟ ؟ . . فى الغالب لم يكن كذلك ! فقد وعدته امرأة بالمجىء الى منزله ثم اخلفت ! معتذرة بمرض أصابها !! ولكن بشار لم ينم ليلته تلك ! فلما أصبح قال :

يا ليلتى تزداد نكرا من حب من أحببت ـ بكرا !!

حوراء ان نظرت اليك سقتك بالعينين خمرا

وكأن رجع حديثها قطع الرياض كسين زهرا

وكأن تحت لسانها هاروت ينفث فيه سحرا

وتخال ما جمعت عليـ ـه ثيابها ذهبا وعطرا

وكأنها برد الشراب صفا وصادف منك فطرا

جنية . . ! إنسية أو بين إذاك أجل أمرا !!

تنسى الغوى معاده وتكون للحكماء ذكرا !!
وكفاك أنى لم أحط بشكاة من أحببت خبرا ! !
الا « مقالة زائر » نثرت لى الاحزان نثرا
متخشعا تحت الهوى عشرا ! وتحت الموت عشرا

. . . وقد كانت لهذه الحادثة أخوات جملته يكثر من التحدث عن الليل وطوله . فيقول :

خليلى ! مابال الدجى لايزحزح وما بال ضوء الصبح لا يتوضح؟
أضلَّ النهار المستنير طريقه أم الدهر ليل كله ليس يبرح ؟
كأن الدجى زادت — ومازادت الدجى ولكن أطال الليل هم مبرّح
فطال علىَّ الليل حتى كأنه بليلين موصول فما يتزحزح !!

ويقول :

لخديك من كفيك فى كل ليلة — الى أن ترى ضوء الصباح — وساد
تبيت تراعى الليل ترجو نفاده وليس لليل العاشقين نفاد

ويقول :

قاس الهموم تنل بها نجحا والليل ! إن وراءه صبحا

وطالما ريع بشار بالوداع — فهو يقول :

يا قلب ! مالك لا تقر إياك أعنى ! وعندك الخبر
أذبت بعد الأولى مضوا حرقا ؟ أم ضاع ما استودعوك إذ بكروا ؟

ويقول :

إن الوداع من الأحباب نافلة　　للظاعنين ! إذا ما يمموا بلدا
ولست ادرى اذا شط المزار بهم　　هل تجمع الدار أم لا نلتق أبدا ؟

ويقول :

فلأخرجن من الديار وحبكم　　في القلب لم يشعر به أحد

وأخيرا فقد سحق المشيب فؤاده فتركه يقول . وان كنت أشك فى الابيات : (١)

أنى امرؤ هدم الاقتار ما أثرتى　　واجتاح مابنت الايام من خطرى
أيام عمرو بن كلثوم يسوده　　حيا ربيعة والافياء من مضر
أرومة عطلتنى من مكارمها　　كالقوس عطلها الرامى من الوتر
نهى ظراف الغوانى عن مواصلتى　　مايفجأ العين من شيبي ومن قصدى

ويقول :

إن المشيب وما ترى بمفارقى　　صرف الغواية فانصرفت كريما
وصحوت الا من لقاء محدث　　حسن الحديث يزيدنى تعليما

فلسفته :

سترى أن بشارا لم يكن سكيرا غزلا فحسب . ولكن فيلسوف له نظراته فى الوجود وفى نفسه . ثم يصب نتائج تفكيره فى أبيات من الشعر الرصين ترى فيه الحكمة الكهلة والى جانبها الحكمة الفتية ! !

---

(١) الأبيات تروى للعتابى وهى به أشبه ! . .

ولسنا ندعى أنه كان ذا مذهب خاص أو على راس مدرسة فلسفية . بل هى خطرات لحكماء من شعراء العرب . على أن بشارا لو انقطع للفلسفة لكان الخيام الى جانبه شيئا غير مجونه واستهتاره كلفاه ثمنا غاليا . فبعد ان كان يجالس عمرو بن عبيد وواصل ابن عطاء وأمثالهما يتناقشون ويتباحثون فى شتى المسائل العلمية لعهدهم بصفتهم أكفاء بعضهم لبعض صار الى ما صار اليه من المديح والهجاء وغزل الفساق !!

وان الوصف الذى يصف به المرتضى واصل بن عطاء بقوله « إنه كان أعلم الناس بكلام غالية الشيعة ومارقة الخوارج وكلام الزنادقة والدهرية والمرجئة وسائر المخالفين » هو ذاته الوصف الذى يمكنك أن تصف بشاراً !!

قال — حاكيا نظرته فى الصداقة — :

خير اخوانك المشارك فى المـ ـر . وأين الشريك فى المر أينا ؟
الذى ! إن شهدت سرك فى الحـ ـى . وان غبت كان أذنا وعينا
مثل حر الياقوت إن مسته النـ ـار جلاه البلاء ! فازداد زينا

☆☆☆

أنت فى معشر إذا غبت عنهم بدلوا كل ما يزينك شينا
واذا ما رأوك قالوا جميعا أنت من أكرم البرايا علينا
ما أرى للأنام وداً صحيحا عاد كل الانام زوراً ومينا

ومثيله :

يا خليلىَّ! أصيبا أو ذرا ... ليس كل البرق يهدى المطرا
لا تكونا كامرىء صاحبته ... يترك العين ويبغى الأثرا

∴

ذهب المعروف - الا ذكره! ... وبما أبكى الفتى - ماذ كرا !
وبقينا فى زمان معضل ... يشرب الصفو ويبقى الكدرا

وقال - وكأنه الخيام! !

قد أدرك الحاجة ممنوعة ... وتولع النفس بما لا تنال
والهم - ما أمسكته فى الحشا - ... داء وبعض الداء لا يستقال
فاحتمل الهم على «عاتق» ... إن لم تساعفك العلندى الجلال

ومثيله :

لما رأيت الحظ حظ الجاهل ... ولم أر المغبون غير العاقل!!
رحلت عنساً من «شراب بابل» ... فبت من عقلى على مراحل

وقال :

ذكرت بها عيشا ! فقلت لصاحبى ... كأن لم يكن ما كان حين يزول
وما حاجتى - ان ساعد الدهر بالمنى - ... كعاب عليها لؤلؤ وشكول
بدا لى أن الدهر يقدح فى الصفا ... وان بقائى - إن حييت - قليل
خليلك ما قدمت من عمل التقى ... وليس لأيام المنون خليل !
فعش خائفا للموت أو غير خائف ... على كل نفس للحمام دليل !

وقال مضمنا قول امرىء القيس « اليوم خمر وغداً أمر » :

اليوم خمر ! ويبدو فى غد خبر   والدهر مابين إنعام وإيا س

وقال :

الشيب كره ! وكره ان يفارقنى   أعجب لشىء على البغضاء مودود!!

يمضى الشباب ويأتى بعده خلف   والشيب يذهب مفقوداً بمفقود!!

الدهر ظلاع باحداثه   ورسله فيها المقادير

«محجوبة» تنفذ أحكامها   ليس لنا عن ذاك تاخير

وهو هنا يقول بمذهب الجبرية:

تاتى المقسم — وماسعى — حاجاته   عدد الحصى ! ويخيب سعى الساعي

نرجو غداً ! وغداً كحاملة   فى الحى · لا يدرون ما تلد

ربما سرك البعيد وأصلا   ك القريب النسيب ناراً وعارا

متى تأب الكرامة من كريم   فمالك عنده غير الهوان

ولابد ! من شكوى الى ذى مروءة   يواسيك أو يسليك أو يتوجع

ملح

كان لبشار جار يكنى « أبازيد » فطلب منه بشار يوما ثيابا بنسيئة فلم يصادفها ! فقال يهجوه :

الا أن أبا زيد زنى في ليلة القدر
ولم يرع - تعالى الله ربي - حرمة الشهر

وكتبها فى رقعة وبعث بها اليه . ولم يكن أبو زيد هذا ممن يقولون الشعر . ولكنه قلبها وكتب على ظهرها :

« الا ان ابا زيد » له فى ذلكم عذر
أتته أم بشار وقد ضاق بها الأمر
فواثبها فجامعها وما ساعده الصبر

فلما قرئت على بشار ندم على تعرضه لرجل لانباهة له . فجعل ينطح الحائط برأسه غيظا - ثم قال - لا تعرضت لهجاء سفلة مثل هذا أبدا ! . .

☆☆☆

حدث رجل من أهل البصرة ممن كان يتزوج بالنهاريات (كذا) قال : - تزوجت امرأة منهن . فاجتمعت معها فى علو بيت وبشار مع امرأة تحتنا - أو كنا فى أسفل البيت وبشار فى علوه ! ؟ - فنهق

حمار فى الطريق فاجابه حمار فى الجيران وحمار فى الدار. فارتجت الناحية بنهيقها. وضرب الحمار الذى فى الدار الارض برجله وجعل يدقها بها دقا شديداً. فسمعت بشار يقول للمرأة « نفخ - يعلم الله - فى الصور وقامت القيامة، أما تسمعين كيف يدق على أهل القبور حتى يخرجوا منها؟؟ »... ولم يلبث أن فزعت شاة كانت فى السطح فقطعت حبلها وعدت. فالقت طبقا وغضارة الى فناء الدار فانكسرا. وتطاير حمام ودجاج كن فى الدار لصوت الغضارة. وبكى صبى فى الدار. فقال بشار: « صح والله الخبر! ونشر أهل القبور من قبورهم. أزفت - يشهد الله - الآزفة وزلزلت الارض زلزالها. » فعجبت من كلامه وغاظني ذلك. فسألت من المتكلم؟ فقيل لى بشار! فقلت قد علمت أنه لايتكلم بمثل هذا غير بشار.

∴

زار بشار يوما أحد أصدقائه فوجد عنده حمدان المصوّر يقدم له جاما « كأسا » به صور. فسأل بشار حمدان أن يصنع له أيضا جاما وبه صورة طير تطير فنقشه! وأتاه به، فقال له

— ومافى هذا الجام؟؟

— صور طير تطير!.

— كان ينبغى أن تتخذ فوق هذه الطير طائرا من الجوارح كأنه يريد صيدها! فانه كان أحسن!..

— انك لم تقل !

— بل أنت اتخذت من فقدان بصرى تكأة تسند اليها تقصيرك

— ثم تهدده بالهجاء !..

— لا تفعل ! فانك تندم !

— أو تهددنى أيضا ؟؟

— نعم !

— فاى شىء تستطيع أن تصنع بى إن هجوتك ؟

— أصورك على باب دارى بصورتك هذه وأصور خلفك قرداً ينكحك ! فيراك الغادى والرائح

فخاف بشار وقال ...

— اللهم اخزه فانا نمازحه وهو يأبى إلا الجد

☆☆☆

قال عبد الله بن مسور الباهلى يوما لابى النضير الشاعر — وقد تحاورا فى شىء — يا ابن اللخناء ! اتكلمنى ؟ ولو اشتريت عبداً بمائتى درهم واعتقته لكان خيراً منك ! فقال له أبو النضير . والله لو كنت ولد زنا لكنت خيراً من باهلة كلها !

فغضب الباهلى ! فقال له بشار . أنت منذ ساعة تزنى أمه ولا يغضب فلما كلمك كلمة واحدة لحقك هذا كله ؟ فقال له ، وأمه مثل

امي ياأبا معاذ ؟ فضحك بشار وقال · والله لوكانت أمك « أم الكتاب » ما كان بينكما من المصارمة هذا كله ! ؟

☆☆☆

كان عمرو الخياط أعور ! ففصل بشار عنده قباء ، فقال له عمرو على سبيل المزاح — سآتيك به لاتدرى أقباء هو أم دواج «قفطان» فقال له بشار · ان فعلت ذلك لأنظمن فيك بيتا لايعلم أحد ممن سمعه أدعوت لك أم عليك ! ففعل عمرو ماقال · فقال بشار :

خاط لى عمرو قباء ليت عينيه سواء
قلت شعراً ليس يدرى أمديح أم هجاء

❋❋❋

وقف بعض المجان على بشار وهو ينشد شعراً · فقال له : استر شعرك هذا كما تستر عورتك فصفق بشار بيديه وغضب · وقال له من أين أنت ويحك ! ؟ قال أنا — أعزك الله — من باهلة · وأخوالى سلول · وأصهارى من عكل . واسمى كلب . ومولدى باضاخ · ومنزلى بنهر بلال · ! فضحك بشار وقال · إذهب ويلك ! فأنت عتيق لؤمك ! قد علم الله أنك استترت منى بحصون من حديد ! ·

❋❋❋

وحكى بعضهم — قال — مررت أنا ورجل من عكل بقصر أوس — زوج أم الظباء سيدة بشار — فاذا نحن ببشار فى ظل القصر وحده فقال لى العكلى لا بدلى أن أعبث ببشار · فقلت له ويحك ! مه !

لاتعرض بنفسك وعرضك له . فقال إنى لا أجده فى وقت أخلى منه فى هذا الوقت ! : فوقفت ناحية . ودنا منه فقال يابشار ! قال من هذا الذى لايكنينى ويدعونى بأسمى ! ، قال سأخبرك من أنا . فاخبرنى أنت عن أمك أولدتك أعمى أم عميت بعد ماولدتك ؟ قال وما تريد الى ذلك ؟ قال وددت أنه فسح لك في بصرك ساعة لتنظر إلى وجهك فى المرآة ! فعسى أن تمسك عن هجاء الناس وتعرف قدرتك ! ! فقال ويحكم من هذا ؛ أما أحد يخبرنى من هذا ؛ فقال له على رسلك ! أنا رجل من عكل . وخالى يبيع الفحم بالعبلاء ، فما تقدر أن تقول لى ؟ قال لاشى ! اذهب — بابى أنت — فى حفظ الله ! :

***

سأل رجل بشاراً عن منزل رجل ذكره له . فجعل يفهمه والرجل لايفهم ! فلما يئس منه بشار أخذ بيده وقام يقوده الى المنزل الذى يبتغيه ! وجعل ينشد فى الطريق

أعمى يقود بصيرا ! ! لا أبالكم   قد ضل من كانت العميان تهديه

وظل يقوده حتى وصل به الى المنزل . ثم دفعه داخله . وقال له . هذا هو المنزل يا أعمى ! :

***

قالت امرأة لبشار . أى رجل أنت لو كنت أسود اللحية والشعر ! ! قال أما علمت أن بيض البزاة أثمن من سود الغربان ؟ ؟ قالت . أما قولك

فحسن فى السمع ! ومن لك بأن يحسن شيبك فى العين كما حسن قولك فى السمع ؟ . . . فكان بشار يقول ماأفحمنى أحد قط غيرهذه المرأة .

☆☆☆

رفع اليه غلامه فى كشف نفقته :

درهم	
١٠	جلاء مرآة

فصاح به . والله ! ... ما فى الدنيا أعجب من جلاء مرآة أعمى بعشرة دراهم ! والله لئن صدئت عين الشمس حتى بقى العالم فى ظلمة ! ما بلغت أجرة من يجلوها عشرة دراهم !

☆☆☆

مر بشار بقصاص فسمعه يقول . من صام رجبا وشعبان ورمضان بنى له الله قصراً فى الجنة . صحنه ألف فرسخ فى مثلها . وكل باب من أبواب بيوته ومقاصيره عشرة فراسخ في أمثالها .

فالتفت بشار الى قائده وقال . بئست والله هذه الدار فى كانون الثانى ! . .

❊❊❊

ومر بقوم يحملون جنازة وهم يسرعون المشى بها . فقال ماهم

يسرعون ! ؟ أتراهم سرقوها فهم يخافون أن يلحقهم الناس ليأخذوها منهم ؟

***

ومر برجل قد ندت من تحته بغلته — وهو يقول — الحمد لله شكراً ! .. فقال له استزده يزدك !

الفصل الثانى

العصر الأموى

فى أخربات العصر

بشار وسليمان بن هشام بن عبد الملك :

توفى عبد الملك بن مروان سنة ٨٦ فخلفه ولده الوليد ثم سليمان أخوه ثم عمر بن « عبد العزيز بن مروان » ثم يزيد بن عبد الملك ثم أخوه هشام الاحول — الذى سقط ولده سليمان بين ماضنى - بشار فمدحه ثم هجاه — ثم الوليد الفاسق بن « يزيد بن عبد الملك » ثم يزيد بن « الوليد بن عبد الملك » ثم خاتمهم مروان بن « محمد بن مروان » .

هؤلاء هم ملوك بنى أمية المعاصرون لبشار ، والذين كنا نرجح اتصاله بأكثرهم أو بعضهم ، لأن شعره قد رزق السيرورة فى هذا العهد وأنشده الوليد الفاسق فبكى حتى مزج شرابه بدموعه . ولكن بشاراً — على ما استقرأناه — لم يبرح مدينة البصرة ولم ينتجع خلفاء بنى أمية . وربما كانت أول رحلة قام بها هى رحلته الى « حران » الى

سليمان بن هشام بن عبد الملك سنة ١٢٧ وانصرف من عنده مغاضبا فبعث اليه يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى فأتاه وامتدحه بقصيدته الهائية فاعطاه أربعين ألف درهم ! كانت أول جائزة سنية أخذها بشار . رفعت من ذكره — كما يقول صاحب الأغانى — وامتدحه بقصائد أخرى لم تصلنا ! ولكن بشاراً اضطرب واحتار بعد قتل يزيد وسقوط الدولة الاموية سنة ١٣٢ وهى السنة التى مات قبلها واصل ابن عطاء بسنة . فرجع عائذاً لاجئا الى بلدته البصرة . فنفاه ثانية عمرو بن عبيد المعتزلى . لأننا نرجح أن ارتحاله من البصرة منتجعا سليمان بن هشام كان بالرغم عنه . فقد كان قاذما بما ياخذه من أمراء البصرة وأشرافها . ولكنه خرج منفيا ! نفاه عمرو بن عبيد لأنه رأى فى وجوده خطراً على عقائد أهل البصرة ونفوس شبابها . فلماقامت الحرب بين الامويين والعباسيين وبلغه — أولم يبلغه — موت واصل ابن عطاء صنو عمرو بن عبيد ومن أكبر الساعين في نفيه من البصرة أراد الالتجاء الى بلدته . ولكن عمرو بن عبيد أعجله ثانية فى الخروج منها . فرجع ينتجع أمراء العباسيين على مدن العراق . الى أن ثار ابراهيم بن عبد الله بن حسن العلوى بالبصرة فارسل اليه بشار بقصيدته الميمية . ولكن ابراهيم قتل قبل أن تصله القصيدة . فحمد الله بشار على ذلك — وقد كان خائفا ظانا انها بلغته وان الرواة قد رووها — وتلاعب فى أبيات القصيدة وجعلها مدحا فى المنصور الخليفة العباسى

ثم انه لم يلبث أن بلغه موت عمرو بن عبيد فى تلك السنة ١٤٥ فرجع الى البصرة يزيل بها عنه آلام الغربة ، وتزود منها مسافراً الى بغداد حيث اتصل بالمنصور ومن بعده بالمهدى ، ثم لما يئس من عطايا المهدى قفل راجعا الى البصرة وبها مات !.

كان سليمان مقيما فى « حران » فسافر اليه بشار من البصرة وقد استوعرت عليه — كما يقول — فامتدحه بهذه القصيدة ! أو بقصيدة منها هذه الابيات :

نأتك على طول التجاور زينب وماشعرت أن النوى سوف يشعب
يرى الناس ما تلقى بزينب إذ نأت عجيبا ! وما تخفى بزينب أعجب !

***

وقائلة لى حين جدد حيلنا وأجفان عينيها تجود وتسكب
أغاد الى حران فى غير شيعة ! ؟ وذلك شأو من هواها مقرب !!
فقلت لها

* كلفتنى طلب الغنى وليس وراء «ابن الخليفة» مذهب!
سيكفى الفتى من سعيه حد سيفه وكور علافى ! ووجناء ذعلب
اذا استوعرت دار عليه رمى — بها بنات الصوى — منهار كوب ومصعب
فعدى الى يوم ارتحلت — وسائلى! يزورك والرحال — من جاء يضرب!
لعلك ان تستيقى ان زورتى سليمان — من سير الهواجر تعقب!
أغر! هشامى القناة ! إذا انتمى نمته بدور ليس فيهن كوكب

وما قصدت يوما مخيلين[1] خيله فتصرف ! إلا عن دماء تصبب

وهنا تصلنا روايتان ! تقول الاولى أنه أمرله بخمسة آلاف درهم ولم يدفعها اليه فهجاه . وتقول الثانية أن سليمان كان بخيلا فدفع اليه هذه الخمسة آلاف ! فرفض بشار أن يتسلمها واستقلها . وكيف لا ؟ أليس قد ضرب اليه آباط الابل كى « تعقب زورته من سير الهواجر » ! ؟

وسواء صحت الاولى أو الثانية فانه قد هجاه بقوله :

أنا المرعث ! لا أخفى على أحد ذرت بى الشمس للقاصى وللدانى
إن أمس منقبض اليدين عن الندى وعن العدو مخيس الشيطان
فلقد أروح على اللئام مسلطا ثلج المقيل منعّم النـدمان
فى ظل عيش عشيرة محمودة تندى يدى ! وتخاف فرط لسانى
أزمان خيبنى الشباب ـ مطاوع ! وإذ الأمير علىّ من حرّان

. . . .

فاكحل بعبدة مقلتيك من القذى وبوشك رؤيتها من الهملان
ربم ! باحوبة العراق ! اذا بدا برقت عليه أكلة المرجان
فلقرب من تهوى وأنت متيم أشفى لدائك من بنى مروان

وسليمان هذا هو الذى خرج على « مروان بن محمد » بالشام

---

(١) قدتكون من قولهم خايل القوم اذا باراهم وفاخرهم . وقدتكون من الخال وهو اللواء « فالمخيلين » الحاملون اللواء كناية عن الجيش ـــ وهو الارجح !

طالبا الخلافة سنة ١٢٧ فحاربه مروان وهزمه حتى ألجأه الى تدمر . ثم هرب منها ولحق بالكوفة وعليها « عبد الله بن عمر بن عبد العزيز» يحاصره الضحاك الخارجى ، وسقطت الكوفة فالتجأ الى واسط مع عبد الله بن عمر . فلحقهم الضحاك فخرجا وبايعاه !

فلما قتل الضحاك وانهزمت الخوارج من بعده . ركب سليمان ومن معه من اهله السفن الى السند : ومكث بها الى أن ولى الخلافة السفاح العباسى . فوفد عليه ! فأكرمه وتبسط معه . ولكن كان من سوء حظه أن دخل سديف الشاعر على السفاح — وهو عنده — فانشده :

لا يغرنك ماترى من اناس   إن تحت الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى   لا ترى فوق ظهرها امويا

فقال سليمان . قتلتني ياشيخ ! .

وقام السفاح فدخل وهو يتمثل :

احيي الضغائن آباء لنا سلفوا   فلن تبيد وللآباء أبناء

فأخذ سليمان فقتل !

لقد مرّ بك أيها القارىء أن الوليد بن يزيد أنشد ابياتا لبشار فهزته حتى بكى ! فاليك الابيات واليك مافعله الوليد :

أيها الساقيان ! صبّا شرابى   واسقيانى من ريق بيضاء رود
إن دائى الصدى! وإن شفائى   شربة من رضاب ثغر برود

عندها الصبر عن لقائى! وعندى　　زفرات يأكلن قلب الحديد
ولها مبسم كثغر الأقاحى　　وحديث كالوشى وشى البرود
نزلت فى السواد من حبة القلـ　　ـب! ونالت زيادة المستزيد

. . . .

ثم قالت نلقاك بعد ليالٍ　　والليالى يبلين كل جديد
لا أبالى من ضنّ عنى بوصل　　إن قضى الله منه لى يوم جود

أنشد الوليد هذه الأبيات وقال: من لى بمزج كأسى هذه من ريق «سلمى» فيروى ظمائى وتطفأ غلتى. ثم بكى حتى مزج كأسه بدمعه. وقال. إن فاتنا ذاك فهذا!! (١)

ثم أننا بعد ذلك لا نرى موقفا لبشار مع خليفة أموى. اللهم إلا الظن بأنه قد مدح مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين فوعده ولم يعطه شيئا!.. فهجاه بأبيات لم يبق منها غير قوله:

لمروان مواعد كاذبات　　كما برق الحياء وما استهلا

---

(١) وهذا القول قبل توليته الخلافة! فسلمى هى أخت سعدة بنت «سعيد بن خالد ابن عمر وبن عثمان بن عفان» التى تزوجها الوليد ثم طلقها لما رأى أختها «سلمى» المذكورة. فخطبها من أبيها ولكنه رفض! فمكث مدة يقاسى مرارة الخيبة ونيران الغرام — وفى تلك الأثناء كان انشاده لهذه الأبيات — حتى ولى الخلافه فخطبها وتزوج بها!: ولكنها ماتت بعد مدة يسيرة!! وقيل قتل عنها.

بشار وشقيق بن ثور السدوسى :

ولكن شاعراً كبشار إن فاته الاتصال بالخلفاء فلا يفوته الاتصال بالأمراء والقواد وولاة الاقاليم . ومصاحبة العلماء ومجالستهم !.. فمن اتصل بهم من الأمراء « شقيق بن ثور » وقد روى صاحب الأغانى الحادثة – الآتية – مع أخية مجزأة ! ولكنا لا يمكننا أن نقره على ذلك فمجزأة قد استشهد فى فتح تستر مع أبى موسى الاشعرى !!

ولبشار فى مجلس شقيق حادثة تنبىء عن المشادة القائمة إذ ذاك بين العرب والموالى – فلا يخفى على القارىء أن الدولة الأموية قامت من مبدأ أمرها على العصبية العربية . فجرت سياستها على الحط من الموالى فى كل ما مناسبة . حتى ضاقوا ذرعا فنهضوا أول نهضتهم مع المختار الثقفى المطالب بدم الحسين وآل البيت عموما . وهم الذين ساروا ضد السياسة الأموية فى معاملة الموالى فتزاوجوا معهم وصاروا لهم اصهاراً . لذلك صارت الموالى الفرس من أكبر أعداء الدولة العربية الفتية : فناصروا الخوارج ثم انضموا أخيراً إلى ابى مسلم الخراسانى رافعين آل محمد على أكتافهم .وصدموا الأمويين صدمة لم تقم لهم بعدها قائمة فى الشرق ! وحققوا قول الراعى حيث يقول :

بنى أمية ! إن الله ملحقكم عما قليل بعثمان بن عفان

وتطلعنا هذه الحادثة من ناحية أخرى على مكانة بشار عند الأمير حيث يقرب مجلسه ويناديه بكنيته . مما لفت نظر الأعرابى

فسأل من الرجل ؟؟ . . وتلخيصها أن اعرابيا دخل على شقيق وبشار عنده وعليه — بزة الشعراء ! ؟ — فقال الاعرابي من الرجل ؟ ؟ قالوا شاعر ! قال أمولى هو أم عربي ؟؟ قالوا بل مولى ! فقال ماللموالى والشعر . . ! ؟ فغضب بشار وسكت هنيهة ثم قال . أتأذن لى يا أبا ثور ؟ . . قال قل ماشئت يا أبا معاذ ! فانشد :

خليلى ! لا أنام على اقتسار ولا آبى على مولى وجار
سأخبر فاخر الاعراب عنى وعنه ! حين تأذن بالفخار

***

أحين كسيت بعد العرى خزاً ونادمت الكرام على العقار
تفاخر يا ابن راعية وراعى بنى الاحرار !؟ حسبك من خسار
تريد بخطبة كسر الموالى وينسيك المكارم صيد فار !!
وكنت إذا ظمئت إلى قراح شركت الكلب فى وَلْغ الاطار
وتغدو للقنافذ تدّريها ولم تعقل بدرّاج الديار
وتتشح الشمال للابسيها وترعى الضأن بالبلد القفار

***

مقامك بيننا دنس علينا فليتك غائبا فى حرّ نار
وفخرك بين خنزير وكلب على مثلى من الحدث الكبار

فقال شقيق للاعرابى ! قبحك الله . فانت كسبت هذا الشر لنفسك وأمثالك ! . . والحادثة كما يظهر كانت بالبصرة ! !

ولا شك فى أن بشاراً كان من كبار الشعوبية والمناصرين للموالى !..[1]

بشار وعبدة :

أشهر من عشق بشار من النساء « عبدة » لاكثاره من ذكرها فى شعره — كما مر بك وسيمر — وكانت عبدة غانية جميلة من أجمل نساء البصرة . وقد تعرف بها بشار فى حجرة من حجر بيته اسمها « البردان » جعلها مصيدة للنساء . فقد كانت النساء يحضرنه يسمعن شعره ! فبينما هو فى مجلسه ذات يوم بتلك الحجرة إذ سمع كلام عبدة فى المجلس . فتعشقها من صوتها — كما هي عادته — وقال فيها شعراً . ودعا غلامه فقال له إني قد علقت هذه المرأة . فاذا انقضى المجلس

---

(١) صيد الفار من عادة الاعراب . ويذكرنا هذا بأبيات المتنبى الفكاهية وقد مر على رجلين قتلا جرذاً وابرازه يعجبان الناس من كبره . فقال :

لقد أصبح الجرذ المستغير ... أسير المنايا صريع العطب
رماه الكنانى والعامرى ... وتلاه للوجه « فعل العرب »
كلا الرجلين اتلى قتله ... فأيكما غل حر السلب ؟؟
وأيكما كان من خلفه ؟ ... فان به عضة فى الذنب ! ؟

تدريها تختلها لتصيدها — قال أبو نواس :

قرارتها كسرى وفى جنباتها ... مهى « تدريها » بالقسى الفوارس

وقال شاعر :

فان كنت لا « أدرى » الظباء فاننى ... ادس لها تحت التراب الدواهيا

وانصرف أهله فاتبعها وكلمها . وأخبرها بحبى وانشدها شعرى ! . فابلغها الغلام رسالة مولاه الشفوية وانشدها اباته . فهشت لها . . ! فكانت تزوره — مع نسوة يصحبنها — فيأ كلن عنده ويشربن وينصرفن . بعد أن يحدثها وينشدها — ولا تطمعه فى نفسها — ثم تزوجت عبدة وخرجت مع زوجها من البصرة إلى عمان . فقال بشار :

هوى صاحبى ريح الشمال ! وانه لأشفى لقلبى أن تهب جنوب
وما ذاك إلا أنها حين تنتهى تناهى ! وفيها من «عبيدة» طيب

***

عذيرى من العذال إذ يعذلوننى سفاها ! وما فى العاذلين لبيب
يقولون «لو عزيت قلبك لارعوى» فقلت «وهل للعاشقين قلوب»
إذا نطق القوم الجلوس فاننى مكب ! كأنى في الجميع غريب
. . . .
وأن نلتقى خلف العيون كأننا سلاف عقار بالنقاح مشوب(١)

---

(١) حدث أحدهم — قال — قلت لبشار كنا أمس في عرس فكان أول صوت غنى به المغنى

هوى صاحبى ريح الشمال وانه . لأشفى . . . . الخ الخ

فطرب ! وقال هو والله أحسن من فلج يوم القيامة ! . .

وقال :

لعبدة دار ! ما تكلمنا الدار !   تلوح مغانيها كما لاح أسطار
أسائل أحجاراً ونؤيا مهدما   وكيف يجيب القول نؤى وأحجار !!
وما كلمتنى دارها إذ سألتها   وفى كبدى كالنفط شبت له النار
وعند مغانى دارها لو تكلمت   لمكتئب بادى الصبابة اخبار !!

***

تحمل جيرانى ! فعينى لبينهم   تفيض بتهتان إذا لاحت الدار
بكيت على من كنت احظى بقربه وحق-   الذى حاذرت بالامس إذ ساروا

وهنا يقول :

ياعبد قد طال المطال فانعمى   واشفى فؤاد فتى — يهيم متيمٍ

ياعبد هل للقاء من سببٍ ؟   أولا . . ! فادعو بالويل والحَرَب

ياعبد هل لى منكم من عائدٌ ؟   أم هل لديك صلاح قلب فاسدٌ ؟

« ويقول »

ياعبد حيٌ عن قريبٌ   وتا ملى عين الرقيبٌ
وارمى ودادى غائبا   فلقد رعيتك فى المغيب
أشكو اليك — وإنما   يشكو المحب الى الحبيب
. . غرضا إليك من الهوى   غرض المريض إلى الطبيب

ياعبد ابالله فرّجى كُرَبى   فقد برانى وشفنى نصبى

وضقت ذرعا بما كلفت به — من حبكم ! والمحب فى تعب !
ففرجى كربة شجيت بها — وحر حزن فى الصدر كاللهب
ولا تظنى ما اشتكى لعبا — هيهات ! قد جل ذا عن اللعب

ياعبد زورينى تكن منة — لله عندى يوم ألقاك
والله ! ثم الله ! فاستيقنى — إنى لأرجوك وأخشاك
ياعبد إنى هالك مدنف — إن لم أذق برد ثناياك
فلا تردى عاشقا مدنفا — يرضى بهذا القدر من ذاك !!

عَبْد ! إنى قد اعترفت بذنبى — فاغفرى ! واعدلى خطاى بجنبى
عبد لا صبر لى . ولست فهلا — قائلا : قد عتبت فى غير عتب
ولقد قلت ! حين أنصبنى الحـ — ـب ! فأبلى جسمى وعذب قلبى
رب ! لا صبر لى على الهجر حسبى — فاقلنى ! حسبى — لك الحمد — حسبى

زودينا يا عبد قبل الفراق — بتلاق ! وكيف لى بالتلاق ! ؟
أنا والله ! أشتهى سحر عينيـ — ـك ! وأخشى مصارع العشاق
وأهاب الحرسى محتسب الجنـ — ـد ! يلف البرىء بالفساق
إننى من بنى عقيل بن كعب — موضع السيف من طلى الاعناق

أما خوفه من الحرسى محتسب الجند فلا نفهم له معنى إلا اذا كان فى ذلك العهد ما نسميه الآن « شرطة الآداب » !

يزهدنى فى حب عبدة معشر قلوبهم فيها مخالفة قلبى

فقلت :

دعوا قلبي وما اختار وارتضى فبالقلب لا بالعين يبصر ذو اللب
وماتبصر العينان فى موضع الهوى ولا تسمع الاذنان إلا من القلب
وما الحسن إلا كل حسن دعا الهوى وألف بين العشق والعاشق الصب

« ويقول »

أعددت لى عتبا بحبكم ياعبد ! . . طال بحبكم عتبي
ولقد تعرض لى خيالكم فى القرط والخلخال والقلب
فشربت غير مباشر حرجا برضاب أشنب بارد عذب

ياعبد! بالله ! ارحمى عبدك وعليه بمنى وعدك
يصبح مكروبا ويمسى به وليس يدرى ماله عندى ! ؟
ماذا تقولين لرب العلا اذا تخليت به وحدك ؟؟

ياعبد أنت ذخيرتى نفسى فدتك وجيرتى
الله يعلم فيكم ياعبد ! حسن سريرتى
نفسى لنفسك خلة وكذاك أنت أميرتى

« ويقول »

ألا طرد الهوى عنى رقادى فحسبى ما لقيت من السهاد
لعبدة ! إن عبدة تيمتني وحلت من فؤادى فى السواد

مسنی من صدود عبدة ضر فبنات الفؤاد ما تستقر
ذاك شیء فی القلب من حب «عبا دة » باد أو باطن يستسر

یاعبد ! انی قد ظلمت وانی مبد مقالة راغب أو راهب
وأتوب مما تكرهين لتقبلی والله يقبل حسن فعل التائب

یا عبد ! حبك شفنی شفا والحب داء یورث الحتفا
والحب يخفيه المحب لكی لا يستراب به — وما يخفی!

یاعبد جلی كروبی واسعفی وأثيبی
فقد تطاول همی وزفرتی ونحيبی

یاعبد حبی لك مستور وكل حب غيره زور
ان كان هجری سركم فاهجروا إنی بما سركم مسرور

عبد منّی وانعمی قد ملكتم قياديه
شاب رأسی ولم تشب وابلائی لدائيه !

عبد ! یاقرة عينی أنصفی روحی فداك
عاشقا ليس له ذكر ولا هم سواك

عبد ! یاهمتی ! عليك السلام فيم يجفی حبيبك المستهام ؟
نزل الحب منزلا فی فؤادی وله فيه مجلس ومقام ! !

یاعبد یاجافية قاطعة أما رحمت المقلة الدامعة

ياعبد خافى الله فى عاشق يهواك حتى تقع الواقعه

ستری حول سریری حسّراً يلطمن لطما
ياقتيلا ! قتلته عبدة الحوراء ظلما

رووا أنه كثيراً ما كان ينشد هذين البيتين !!

وأرى من الحسن بعدهذا أن آتى بذكر من اتصل بهم بشار من النساء . لانه على مايلوح لنا أن حوادثه هذه قد كان مسرحها البصرة . حتى شغل بذلك التغزل عن مدح الخلفاء الأمويين وعاقه عن كل ما عداه ! . .

أمامة :

كان لبشار مجلسه الذى يجلس فيه بالغداة المسمى « البردان » فدخل إليه نسوة فى مجلسه هذا ليسمعن شعره ! فتعشق امرأة منهن يقال لها « أمامة » فقال لغلامه عرفها محبتى لها واتبعها إذا انصرفت إلى منزلها . ففعل الغلام وأخبرها بما أمره ! . . فلم تجبه بما يحب . فتبعها إلى منزلها حتى عرفه . فكان يتردد اليها حتى برمت به . فشكته إلى زوجها .

فقال لها أجيبيه وعديه أن يجىء إلى هنا . ففعلت . وجاء بشار تقوده امرأة أنفذتها إليه . فدخل وزوجها جالس .

فجعل يحادثها ساعة . ثم قال لها ما اسمك بأبى أنت ؟؟ فقالت أمامة ! فقال

أمامة قد وصفت لنا بحسن | وإنا — لانراك — فألمسينا

فأخذت يده — وقد مدّها — ووضعتها فى حجر زوجها — وقد أنعظ — ففزع ووثب قائما ! وقال :

على ألية مادمت حيا | أمسك طائعا الا بعود
ولاأهدى لأرض أنت فيها | سلام الله إلا من بعيد
طلبت غنيمة فوضعت كفى | على شىء أشد من الحديد !!
فخير منك — من لاخير فيه — | وخير من زيارتكم قعودى

فأمسك زوجها به . وقال هممت أن أفضحك . فقال كفانى — فديتك — ما فعلت ! ولست والله عائداً اليها أبداً . فحسبك ما مضى ! .. فتركه

خَشَّابة :

وكانت خشابة امرأة فارسية هو يها بشار ! ثم تزوجت وسافر بها زوجها من البصرة ! .. فقال ..

أخشاب حقا ان دارك تزعج | وأن الذى بينى وبينك ينهج !؟
فوا كبداً !قدنضج الشوق نصفها | ونصف على نار الصبابة ينضج
وواحزنا منهن يحففن هودجا | وفى الهودج المحفوف بدر متوج
فان جئتها بين النساء فقل لها | عليك سلام ! مات من يتزوج
بكيت ! ومافى الدمع منك خليفة | ولكن أحزانى عليك توهج

ولها يقول :

لو كنت تلقين ما نلقى قسمت لنا | يوما ! نعيش به منكم ونبتهج

لا خير فى العيش ان كنا كذا أبدا   لا نلتقى ! وسبيل الملتقى نهج
قالوا « حرام تلاقيكم » فقلت لهم   «مافى التلاقى - ولا - في غيره حرج»
أشكوا إلى الله هما لا يفارقنى   وشرعا فى فؤادى الدهر تعتلج

. . . .

من راقب الناس لم يظفر بحاجته   وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

فلما سمع تلميذه سلم الخاسر قوله «من راقب الناس . . » أخذه فقال :

من راقب الناس مات غما   وفاز باللذة الجسور

فقال بشار . ذهب ببيتى ابن الفاعلة ! .. وغضب غضبا شديدا . فاستشفع سلم عليه بجماعة من اخوانه فجاؤوه فى أمره . فقال لهم كل حاجة لكم مقضية الاسلما . قالوا ماجئناك الافى سلم ولابد أن ترضى عنه . فقال أين هو الخبيث ؟ ؟ ها هو ذا . فقام إليه سلم فقبل رأسه ومثل بين يديه ! وقال يا أبا معاذ خريجك وأديبك !! فقال ياسلم من الذى يقول ؟ ؟

من راقب الناس لم يظفر بحاجته   وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

قال انت يا أبا معاذ - جعلنى الله فداك - قال فمن الذى يقول ؟؟

من راقب الناس مات غما   وفاز باللذة الجسور

قال خريجك يقول ذلك !! قال أفتأخذ معانى التى قد عنيت بها وتعبت في استنباطها فتكسوها ألفاظا أخف من الفاظى حتى يروى ما تقول -

ويذهب شعرى ؟؟ لا أرضى عنك أبدا !! فمازال سلم يتضرع اليه ويشفع له القوام حتى رضى عنه . بعد أن أناله لكمات أطفا بها غضبه — وكان سلم كأستاذه متهما بالزندقة !!

رحمة الله :

جارية كانت بالبصرة ! شبب بها بشار . ولها يقول :

يا أطيب الناس ريقا – غير مختبر　　الا شهادة اطراف المساويك !
قد زرتنا مرة فى العمر واحدة　　فثنى ! ولا تجعليها بيضة الديك
يا « رحمة الله » حلّى فى منازلنا　　حسبى برائحة الفردوس من فيك

ولها أيضا يقول ابو نواس – مضمنا الشطرة الاولى من بيت بشار الاخير — :

أحببت من شعر « بشار » لحبكم　　بيتا لهجت به من شعر بشار
« يا رحمة الله حلى فى منازلنا »　　وجاورينا! فدتك النفس من جار

خاتم الملك :

وهى جارية – سوداء – من جوارى البصرة . صارت لبشار فكان يقع عليها . ولها يقول:

ألا يا « خاتم الملك » ا　　لذى أملك إن نلته
فؤادى فيك مجنون　　ولو استطيع سلسلته !!
وأنت الحجر الاسود لو　　يخلو　　لقبلتـه !!

وغادة سوداء براقة كالماء : فى طيب وفى لين
كأنها صيغت لمن نالها من عنبر بالمسك معجون

يكون الخال فى خدّ نقىّ فيكسبه الملاحة والجمالا
ويونقه لأعين مبصريه ! فكيف اذا رأيت اللون خالا [1] !؟

بشار والحسن البصرى :

نشأ الحسن بوادى القرى وتلقى الفصاحة من أعرابه . وكان من أجمل أهل البصرة وأتمهم خلقا حتى قيل أن عرض زنده شبر !.. ابوه « أبو الحسن يسار » من سبى « ميسان » سباه المغيرة بن شعبة مع « سيرين » أبى محمد بن سيرين حينما افتتحها في عهد عمر بن الخطاب ثم صار « يسار » مولى لزيد بن ثابت الانصارى – وعنه أخذ الحسن العلم وتفقه فى الدين – وكانت « خيرة » أم الحسن مولاة لأم سلمة زوج النبى « صلى الله عليه وسلم » وفي بيتها ولد الحسن سنة ٢١ هجريه

ولما اتم الحسن علومه ومعارفه عين كاتبا للربيع بن زياد الحارثى والى خراسان ، ثم تقلب فى عدة مناصب كان فيها مثال النزاهة فى عمله فتناقل الناس فقهه للدين وورعه ونبله . وأخذ الحسن ينتاب مسجد البصرة يعقد فيه مجلسه ليفقه الناس ويذيع فيهم آراءه الناضجة ومواعظه الوازعة – وكان ما كان من نشوء مذهب المعتزلة فى مجلسه –

---

(١) وقال : اشبهك المسك وأشبهته قائمة فى لونه قاعده
لاشك إذ لونكما واحد انكما من طينة واحده

الى أن اختاره عمر بن عبد العزيز لقضاء البصرة سنة ٩٩ وقال عنه : لقد وليت قضاء البصرة سيد التابعين ! !

وتوفى بالبصرة سنة ١١٠ وتبع الناس كلهم جنازته . واشتغلوا بشأنه حتى أن صلاة العصر لم تصل يومئذ بالجامع · وكانت هذه أول مرة حدث فيها هذا الحادث وذلك فى زمن هشام بن عبدالملك!··

أما كيف تعرض الحسن لبشار أو بشار للحسن ! ؟ . . فذلك أنه كان لبشار مجلسان أحدهما يجلس فيه صباحا يسميه « البردان » والآخر عشاء ويسميه « الرقيق » · · ! ! ويظهر من شعره أن الرقيق قريب من باب المنزل وبه يجلس فى السهرة مساء مع أصدقائه وندمائه . بينما البردان إلى داخل المنزل وفيه يستريح نهاراً أو يستقبل النساء والخاصة من أصدقائه .فالداخل إلى البردان يمر حتما بالرقيق !·· لذلك يقول

لما طلعن من « الرقيـ ق » علىّ « بالبردان» خمسا

فأصبح ذات يوم فاحتجم وجلس بالبردان · وقال لغلامه «أمسك علىّ بابى . واطبخ لى من طيب طعامى . وصف نبيذى » وانه لكذلك وإذ بالباب يقرع قرعا عنيفا ! فقال ويحك ياغلام أنظر من يدق الباب دقّ الشرط !! فنظر الغلام ثم قال له . نسوة خمس بالباب — من بينهن « عبدة » محبوبته وهى التى يتغزل بها في أبياته الآتية — يسألن أن تقول لهن شعراً ينحن به . قال أدخلهن !!

فلما دخلن نظرن إلى النبيذ مصفى فى قنانيه . فقالت واحدة منهن هو خمر ! وقالت أخرى هو زبيب وعسل ! وقالت ثالثة نقيع زبيب ! فقال هو . لست بقائل لكنّ حرفا أو تطعمن من طعامى وتشربن من شرابى ! فتماسكن ساعة . ثم قالت إحداهن . ماعليكن!! هو أعمى ! فكلن طعامه واشربن شرابه وخذن شعره ! !

وبلغت هذه الحادثة الحسن البصرى حجة الاسلام فى مصره وهو من ذكرنا لك علما وفضلا . فعابه ونال منه ! فقال بشار — وكان يسمى الحسن « القَسّ » أى القسيس — :

لما طلعن من الرقيـ ... ق علىّ بالبردان — خمسا !
وكأنهن أهلة ... — تحت الثياب — زففن شمسا
باكرن عطر لطيمة ... وغمسن فى الجادىّ غمسا
لما طلعن حففنها ... وأصخن ! مايهمسن همسا
وسألننى : من فى البيو ... ت ؟؟ فقلت ما يأوين إنسا
فاصبن من طرف الحديـ ... ث لذاذة ! وخرجن قلسا

***

ليت العيون الطارقا ... ت طمس عنا اليوم طمسا
لولا تعرضهن لى ... يا « قس » كنت كأنت قسّا

بشار وواصل بن عطاء المعتزلى :

اتصل بشار اتصالا وثيقا بواصل بن عطاء . وهو مولى فارسى

ولد بالمدينة سنة ٨٠ ثم ارتحل إلى البصرة · فكان من علماء ذلك العصر المبرزين وخطبائه المشهورين. كنيته « أبو حذيفة » ولقبه « الغزال » لجلوسه فى سوق الغزالين عند رضيع له يعرف « بأبى عبد الله الغزال — مولى قطن الهلالى » ليتصدق على من يغشاه من النساء المتعففات · وكانت به لثغة فى الراء قبيحة ! فكان يتجنبها فى كلامه وخطبه . وهو شيخ من شيوخ المعتزلة وعلم من أعلامهم · مدحه بشار بن برد كثيراً للصداقة التى كانت بينهما ولائتلافهما في الآراء ! ثم هجاه عند ما اختلفا

وتوفى واصل سنة ١٣١ فهو من شخصيات العصر الأموى البارزة التى اتصل بها بشار وتعشقها — فى مبدأ الأمر — فامتدحها إجلالا للعلم وإكباراً للفضل ! ..

وأول مانعرفه من ذلك عند ماخطب واصل خطبته الشهيرة ! هو وخالد بن صفوان وشبيب بن شيبة والفضل بن عيسى عند والى العراق عبد الله بن « عمر بن عبدالعزيز » بالكوفة . وقد كانت خطبته على ارتجاله لها ونزعه الراء منها أطول من خطبهم · وكان ذلك سنة ١٢٦ عند ماولى « عبد الله » العراق ؛ وإليك الخطبة :

الحمد لله القديم بلا غاية والباقى بلا نهاية · الذى علا فى دنوه ودنا فى علوه ، فلا يحويه زمان ولا يحيط به مكان ، ولا يؤوده حفظ ماخلق ولم يخلقه على مثال سبق ، بل ابتدعه ابتداعا وعدله اصطناعا.

فاحسن كل شيء خلقه . وتمم مشيئته وأوضح حكمته فدل على ألوهيته ، فسبحانه لا معقب لحكمه ولا دافع لقضائه . تواضع كل شيء لعظمته ، وذل كل شيء لسلطانه ، ووسع كل شيء فضله ، لا يعزب عنه مثقال حبة وهو السميع العليم .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده . إلها تقدست أسماؤه وعظمت آلاؤه . علا عن صفات كل مخلوق وتنزه عن شبيه كل مصنوع . فلا تبلغه الاوهام ولا تحيط به العقول ولا الافهام ، يُعصَى فيحلم ويدعى فيسمع ، ويقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما يفعلون .

وأشهد شهادة حق وقول صدق ، باخلاص نية وصحة طوية . أن « محمد ابن عبد الله » عبده ونبيه وخالصته وصفيه ، ابتعثه الى الخلق بالبينة والهدى ودين الحق ، فبلغ مألكته ونصح لأمته وجاهد فى سبيل الله لاتأخذه فى الله لومة لائم ولا يصده عنه زعم زاعم . ماضيا على سننه موفيا على قصده حتى أتاه اليقين . فصلى الله على محمد وآل محمد أفضل وأزكى وأتم وأنمى وأجل وأعلى صلاة صلاها على صفوة أنبيائه وخالصة ملائكته – وأضعاف ذلك – انه حميد مجيد .

أوصيكم عباد الله – مع نفسى بتقوى الله والعمل بطاعته والمجانبة لمعصيته . وأحضكم على ما يدنيكم منه ويزلفكم لديه فان تقوى الله أفضل زاد وأحسن عاقبة فى معاد . ولا تلهينكم الحياة الدنيا بزينتها

وخدعها وفواتن لذاتها وشهوات آمالها. فانها متاع قليل ومدة إلى حين وكل شيء منها يزول. فكم عاينتم من أعاجيبها وكم نصبت لكم من حبائلها وأهلكت ممن جنح إليها. اذاقتهم حلواً ومزجت لهم سما. أين الملوك؟ الذين بنوا المدائن وشيدوا المصانع وأوثقوا الابواب وكاثفوا الحجاب وأعدوا الجياد وملكوا البلاد واستخدموا التلاد!.. قبضتهم بمحملها وطحنتهم بكلكلها وعضتهم بأنيابها. وعاضتهم من السعة ضيقا ومن العزة ذلا ومن الحياة فناء فسكنوا اللحود وأكلهم الدود وأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم ولا تجد الا معالمهم. ولا تحس منهم من أحد ولا تسمع لهم نبسا!!

فتزودوا – عافاكم الله – فان أفضل الزاد التقوى. واتقوا الله يا أولى الالباب لعلكم تفلحون. جعلنا الله وإياكم ممن ينتفع بمواعظه ويعمل لحظه وسعادته. وممن يستمع القول فيتبع أحسنه. أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم ألو الالباب..

إن أحسن قصص المؤمنين وأبلغ مواعظ المتقين «كتاب الله» الزكية آياته الواضحة بيناته. فاذا تلى عليكم فانصتوا له واسمعوا — لعلكم تفلحون!

أعوذ بالله القوى من الشيطان الغوى، إن الله هو السميع العليم قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد ؟

فحباه وإلى العراق حباء مضاعفا ورفع منزلته ونادى به أميراً

على الخطباء ! .. وأخذ بشار يمدحه — ولا نعرف — أأعجابا به أم طمعا فى جزء من تلك الجائزة التى نالها واصل ! ؟ قال :

تكلفوا القول — والاقوام قد حفلوا — وحبروا خطبا . ناهيك من خطب !
فقام مرتجلا تغلى بداهته كمرجل القين لما حف باللهب
وجانب الراء لم يشعر به أحد قبل التصفح والاغراق فى الطلب

وقال :

أباحذيفة ، قد أوتيت معجزة من خطبة بدهت من غير تقدير
وان قولا يروق « الخالدين » معا لمسكت مخرس عن كل تحبير

وقال :

فهذا بديه لا كتحبير قائل إذا ما أراد القول زوّره شهرا

وأعجب الادباء والشعراء بمقدرة واصل . فقال أحدهم :

ويجعل « البر » .. « قمحا » فى تصرفه وجانب الراء حتى احتال للشعر
ولم يطق « مطراً » والقول يعجله فعاذ « بالغيث » إشفاقا من المطر

وقال آخر :

عليم بابدال الحروف — وقامع لـكل خطيب — يبلغ الحقّ باطله

وسأل قطرب عثمان البرّى : كيف كان واصل يفعل فى العدد : بالعشرة والعشرين والأربعين ؟؟ وكيف كان يصنع بالقمر والبدر ويوم الاربعاء وشهر رمضان ؟؟ وكيف كان يصنع بالمحرم وصفر وربيع الأول ورجب ؟؟ . فقال مالى فيه قول الاما قال صفوان الأنصارى :

ملقن ملهم فيما يحاوله　　جم خواطره جواب آفاق

ثم أن بشاراً اعتنق مذهبا عجيبا خليطا من الآراء . فدان بالرجعة — وهو مذهب بثه بين المسلمين عبد الله بن سبأ اليهودى يقول فيه برجعة النبى صلى الله عليه وسلم ورجعة على بن أبى طالب كما يرجع عيسى صلى الله عليه وسلم فى آخر الزمان — وفضل النار على الأرض وابليس على آدم . وكفر جميع المسلمين بعد النبي صلى الله عليه وسلم . فقال :

إبليس خير من أبيكم آدم　　فتنبهوا يامعشر الفجار

إبليس من نار ؛ وآدم طينة　　والارض لاتسمو سمو النار

وقال :

الارض مظلمة ؛ والنار مشرقة　　والنار معبودة مذ كانت النار ؛

على أنه لم يكن شديد التعصب لآرائه — فهو مجونى قبل كل شىء وبعد كل شىء — فقد حاجه أحدهم واظنه « خالد بن صفوان » فى القضاء والقدر . فقال له بشار « لا أعرف الا ماعاينته أو عاينت مثله » ثم هاجمه خالد وضيق عليه الخناق فقال « ما أظن الأمر إلا كما تقول ؛ وأن الذى نحن فيه خذلان ؛ ولذلك أقول » متابعا الجبرية :

طُبعت على ما فىّ غير مخيّر　　هواى ؛ ولو خُيرت كنت المهذبا

أريد فلا أعطى ؛ وأعطى ولم أرد　　وقصر علمى أن ينال المغيبا

فاصرف عن قصدى وعلمى مقصر　　وأمسى وما أعقبت الا التعجبا

ومذهب الجبرية أن الانسان مسير غير مخير مجبور على كل ما يفعله

بقوة خفية قاهرة . فلا يصح عقابه ولا حسابه لأن كل مافعله من خير وشر انما هو بقضاء من الله وقدر . ثم تغالوا فقالوا ان الله قدر على فلان فعل كذا وقدر له ان يثاب ! وقدر على الآخر المعصية . وقدر أو يعاقب عليها . وهذا التغالى هو الذى دفع المعتزلة إلى القول بنفى القضاء والقدر بتاتا مقابلين الغلو بالغلو . وقد تكلم فى هذا الموضوع « ابو حنفية النعمان » فروى عن نفسه ـ قال ـ : دخلت المدينة فاتيت « أباعبدالله » فسلمت عليه ! وقمت من عنده فرأيت ابنه «موسى» في دهليزه قاعداً فى مكتبه . فسألته سؤالا فاجاب . فنبل فى عينى وعظم في قلبى . فقلت له ـ جعلت فداك ـ ممن المعصية ؟؟ـ أى هل هى من فعل الانسان بارادته أم هى بقضاء وقدر عليه من الله ـ فنظر إلى ! ثم قال اجلس حتى أخبرك . فجلست ! فقال « ان المعصية لا بد أن تكون من العبد أو من ربه او منهما جميعا ! فان كانت من الله فهو أعدل وأنصف من أن يظلم عبده ويا خذه بما لم يفعله ! وإن كانت منهما جميعا فهو شريكه والقوى أولى بانصاف عبده الضعيف ! وان كانت من العبد وحده فعليه وقع الامر واليه توجه النهى وله حق الثواب والعقاب ووجبت الجنة والنار » فلما سمعت ذلك قلت . ذرية بعضها من بعض ! والله سميع عليم !..

وهذه الحكاية ـ ان صحت ـ تثبت تماما ان الامام أبا حنيفة كان يرى رأى المعتزلة فى القضاء والقدر ـ أو أنه رأى ذلك فى يوم من الايام

لأنه قد أعجب بهذا القول وهو لم يخرج بشيء عن رأى المعتزلة!
وليس هذا ببعيد على إمام أهل الرأى!..

ونظم بعضهم جواب «موسى» فقال:

لم تخل أفعالنا اللاتى نذم بها إحدى ثلاث خلال ثم نأتيها
إما تفرّد بارينا بصنعتها فيسقط اللوم حين ننشيها
أو كان يشركنا فيها! فيلحقه ماسوف يلحقنا. من لائم فيها
أو لم يكن لالهى في جنايتها ذنب! فما الذنب إلا ذنب جانيها

ولكنك ترى بشاراً قد نقض ما تقدم من قوله - فى الجبر - فقال:

كيف يبكى لمحبس فى طلول من سيفضى لحبس يوم طويل
ان فى البعث والحساب لشغلا عن وقوف برسم دار محيل!!

أو هو قد نقض هذين البيتين اللذين يثبت فيهما اعتقاده بالحساب والعقاب بما قاله آنفا..

ولما صوّب بشار رأى ابليس فى تقديم النار على الطين وزعم ان جميع المسلمين كفروا بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم. قيل له: وعلى أيضا؟؟ فأنشد:

وما شر الثلاثة أم عمرو بصاحبك الذى لا تصبحينا

فغضب واصل عند ذلك - هكذا قال الجاحظ - وقذف فى

بشار . وقال مجانبا الراء أيضا : «أما لهذا الملحد الاعمى المكتنى بأبى معاذ من يقتله ! ؟ أما والله ! لولا أن الغيلة سجية من سجايا الغالية . لبعثت اليه من يبعج بطنه على مضجعه ويقتله فى جوف منزله وفي يوم حَفْله . ثم لايتولى ذلك منه الا عقيلى أو سدوسى ! ! » ولكن واصل اكتفى فيما بعد بنفيه من البصرة بماله من السلطة التى تجعل فى إمكانه أن يرسل الى بشار رجلا من اتباعه ومعتنق مذهبه فيقتله فى يوم حفله ولا يردعه من ذلك أمير ولا والى — مطمئنا الى موافقتهم بله الخوف من عقابهم — ولكن ردعه الاستنكاف ! لأن الغيلة سجية من سجايا الغالية اى الخوارج !!

وكان واصل طويل العنق ! وكان يكفر الخوارج لتكفيرهم على ابن أبى طالب — كما يظهر من قول بشار وكما يلوح من كلام الجاحظ فهجاه بشار فقال :

مالى منيت بغزال له عنق ... كنقنق الدو إن ولى وإن مثلا ! ؟
عنق الزرافة ! ما بالى وبالكم ! ... تكفرون رجالا كفّروا رجلا ! ؟

ولكن واصلا لا يمكنه أن يجابه الخوارج بذلك ! فأولئك قوم يعرفون كيف يبرون الرؤوس بالسيوف

فمن ألطف ما يروى فى هذا الصدد ، أن واصلا أقبل فى رفقة معه فأحسوا الخوارج ، فقال واصل لأهل الرفقة ، ان هذا ليس من شأنكم «فاعتزلوا ! ؟» ودعونى واياهم ، فقالوا شأنك ! فخرج اليهم .

فقالوا من أنت وأصحابك ؟ فقال مشركون مستجيرون ليسمعوا كلام الله ويعرفوا حدوده !! فقالوا

— قد أجرناكم

— علمونا ! .

فجعلوا يعلمونه أحكام مذهبهم ، وجعل يقول

— قد قبلت أنا ومن معى ! ..

— فامضوا مصاحبين فانكم اخواننا

وخاف واصل انه ان سار بغير حرس منهم أن تقابله طائفة أخرى فيضطر الى تمثيل ذلك الدور ثانية .. فقال

— ليس ذلك لكم ! قال الله تبارك وتعالى « وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ، ثم أبلغه مأمنه » فابلغونا مأمننا ! .

فنظر بعضهم الى بعض ! ثم قالوا

— ذاك لكم . !!

وساروا بأجمعهم فابلغوهم المأمن .

وقال بشار أيضا — ناقضا مدحه : —

ومن عجب الايام أن قمت ناطقا وأنت ضئيل الصوت منتفخ السَحْر

ولقد كان بشار صديقا لواصل بن عطاء وعمرو بن عبيد . وكانوا كثيراً ما يجتمعون للمباحثة . فلما انقلب بشار هذا الانقلاب كانت

مقاتله لهما بادية — كما يقول الجاحظ — فأخذا فى التشنيع به وسعيا حتى نفياه عن البصرة حوالى سنة ١٢٧ فما زال غائبا حتى مات عمرو بن عبيد سنة ١٤٥ ولا نعرف أين كان غائبا — وهذه حلقة مفقودة من حياة الشاعر كما يلوح لنا — ولكن المعروف تماما حتى سنة ١٣١ أن بشاراً عند مانفى من البصرة سنة ١٢٧ توجه إلى الشام إلى مدينة حرّان حيث كان مقيما سليمان بن هشام بن عبد الملك بعد مبايعته مروان بن محمد فيها . وانصرف من عنده مغاضبا كما مرّ بك . فارسل إليه أمير العراق يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى سنة ١٢٨ فأقام معه يمدحه ويشيد بمفاخر قيس عيلان حتى هوجمت الدولة الأموية سنة ١٣١ وربما مكث مع يزيد إلى أن قتل بواسط سنة ١٣٢ ثم رجع إلى البصرة لاجئا إليها . وقد مات واصل بن عطاء عدوه اللدود . ويؤيد هذا قول « صفوان الانصارى » يخاطب بشاراً :

رجعت إلى الامصار من بعد واصل　　وكنت شريداً فى التهائم والنجد

وهذا البيت من قصيدة طويلة استقبل بها صفوان بشاراً عند مارجع إلى البصرة . يرد بها على بشار مذهبه ويمدح واصلا ابن عطاء . وكان صفوان صديقا لواصل معجبا به ! وهذه القصيدة العجيبة تدلنا على مقدار تخليط بشار وتحيره بين تلك المذاهب الملعونة التى غمرت المجتمع الأموى من جراء اختلاط الأمم بعد الفتوحات قال :

زعمت بأن النار أكرم عنصراً
وفى الأرض تحيا الحجارة والزند

ويخلق فى أرحامها وأرومها   أعاجيب لا تحصى بخط ولا عقد
وفى القعر من لج البحار منافع   من اللؤلؤ المكنون والعنبر الورد
كذلك سر الأرض فى البحر كله   وفي الغيضة الغناء والجبل الصلد
ولابد من أرض لكل مطهر   وكل سبوح في الغمائر من جُدّ
كذاك وماينساح فى الارض ماشيا   على بطنه مشى المجانب للقصد
ويسرى على جلد يقيم حزوزه   تعمج ماء السيل فى صبب حرد

***

وفى الحرة الرجلاء تلقى معادنا   لهن مغارات تبجّس بالنقد
من الذهب الابريز والفضة التى   تروق وتصبى ذا القناعة والزهد
وكل فلزّ من نحاس وآنك   ومن زئبق حىّ ونوشادر يسدى
وفيها زرانيخ ومكر ومرتك   ومن مرقشيشا غير كابٍ ولا مكدى
وفيها ضروب القار والشب والنهي   وأصناف كبريت مطاولة الوقد
ترى العرق منها فى المقاطع لائحا   كما قدمت الحسناء حاشية البرد
ومن اثمدجون وكلس وفضة   ومن توتياء فى معادنه هندى
وفى كل أغوار البلاد معادن   وفى ظاهر البيداء من مستوى نجد
وكل يواقيت الأنام وحليها   من الارض!! والاحجار فاخرة المجد

***

وفيها مقام الخل والركن والصفا ومستلم الحجاج من جنة الخلد
—وفى—صخرة الخضر التى عندحوتها وفى الحجر المهمى لموسى على عمد
وفى الصخرة الصماء تصدع آية لأم فصيل ذى رغاء وذى جد
—مفاخر—للطين الذى كان أصلنا ونحن بنوه غير شك ولا جحد
وذلك تدبير ونفع وحكمة وأوضح برهان على الواحد الفرد

***

أتجعل «عمراً» و«النظامى» واصلا كأتباع «ديصان» وهم قمش المدّ
وتفخر «بالميلاد» و«العلج» «عاصم» وتضحك من جيد الرئيس «أبي جعد»
وتحكى لدى الأقوام شنعة رأيه لتصرف أهواء النفوس إلى الرد
وسميته «الغزال» فى الشعر مطنبا ومولاك عند الظلم قصته مُرْدى
فيا ابن حليف الطين واللؤم والعمى! وأبعد خلق الله من طرق الرشد
أتهجو «أبا بكر» وتخلع بعده «عليا» وتعزو كل ذاك إلى «برد»
كأنك غضبان على الدين كله وطالب ذحل لا يبيت على حقد
رجعت إلى الأمصار من بعد واصل وكنت شريداً فى التهائم والنجد
توائب اشماراً !! وأنت مشوه وأقرب خلق الله من شبه القرد
أتجعل «ليلى الناعطية» نحلة وكل عريق فى التناسخ والرد
عليك بدعد والصدوف وفرتنى وحاضنتى كسف او زاملتى هند[1]

---

(١) ديصان أو ابن ديصان : من أدباء السريان وفلاسفتهم . واسمه «بارديصان» وكان اسقفا بالرها . ونسب إلى نهر على باب الرها لانه بنى على جانبه كنيسة .

« ومنها »

لقد ولدت أم الأ كيمه أعرجا وآخر مقطوع القفا ناقص العَضُد

وكانوا — بشار وأخواه — ثلاثة مختلفى الآباء والأم واحدة .

وكلهم ولد زَمِنا . لذلك يقول صفوان فى كلمة أخرى يخاطب أمهم :

ولدتِ خُلْداً وذِيخا فى تشتمه وبعده خُزَزاً يشتد فى العضُد

ثلاثة ! من ثلاث ! فرقوا فرقا فاعرف بذلك عرق الخال من ولد(١)

وكان ذلك فى أوائل النصرانية بنحو ثمانين سنة من ظهورها . واشتهر بمذهبه الذى خلط فيه النصرانية بالثنوية . فكان منكراً لبعث الاجسام . وكان يقول ان جسم المسيح غير حقيقى بل هو صورة شبهت للناس بعثها الله تعالى لهدايتهم

المد السيل وقشه الاوساخ التى يحملها معه !

الشطرة : «ومولاك عند الظلم قصته مردى » يريد أن يقول أن مولى بشار نوتى إذا أصابته ظلامة وجاء يشكو للحاكم رفع المردى بيديه — وهو ما تسميه العوام المدرى !

(١) الخلد ضرب من الجرذان يولد أعمى ! يريد به بشاراً. والذيخ ذكر الضباع وهو فى مشيه كالاعرج ! ويعنى به أخاه الاوسط . والخزز ذكر الارانب وهو قصير اليدين ; ويريد الاخ الاصغر وكان أكتما

وهولاء الثلاثة هم «بشار» و« بشر » و « بشير » !!!وكان بشر وبشير قصابين. وكان بشار بارا بهما مع أنه كان ضيق الصدر متبرما بالناس ! .فكانا يستعيران ثيابه فيوسخانها وينتنان ريحها . فاتخذ بشار قيصا لهجيان وحلف أن لا يعيرهما ثوبا من ثيابه فصارا يأخذانها بغير اذنه فاذا دعا بثوبه فلبسه فانكر رائحته قال «أينما أتوجه ألق سعدا » فاذا أعياه الامر خرج إلى الناس فى تلك الثياب على نتنها ووسخها فيقال له ما هذا يا أبا معاذ ؟ ؟ فيقول هذه ثمرة صلة الرحم.!

وقال صفوان أيضا من كلمة له :

وفى جوفها للعبد أستر منزل ... وفي ظهرها يقضى فرائضه العبد
تمج لفاظ الملح مجا ! وتصطفى ... سبائك لاتصدى وان قدم العهد
وليس بمحص كنه ما فى بطونها ... حساب ولا خط وان بلغ الجهد

***

فسائل «بعبد الله» فى يوم حفلة ... وذاك مقام لا يشاهده وغد
أقام «شبيبا» و«ابن صفوان» قبله ... بقول خطيب لا يجانبه القصد
وقام «ابن عيسى» ثم قفاه «واصل» ... فابدع قولا ماله فى الورى ند
فما نقصته الراء إذ كان قادراً ... على تركها . واللفظ مطرد سرد
ففضل عبد الله خطبة واصل ... وضوعف فى قسم الصلات له الشكد
فاقنع كل القوم شكر حبائهم ... وقلل ذاك الضعف فى عينه الزهد

ويظهر من كلام صفوان أن بشاراً كان لم يزل مقيما على عدائه لواصل والمجاهرة بالزندقة والالحاد. لذلك لم يمهله عمرو بن عبيد صاحب واصل فسعى حتى نفاه ثانيا من البصرة كما نفى عبد الكريم بن أبى العوجاء ودل عليه من قتله !وسيرد خبره !.. فلم يزل بشار طريداً متنقلا من ولاية إلى ولاية يمدح أمراءها . إلى إذ مات عمرو بن عبيد

وتزوج الاخوان وأتيا بنسل ـ قال ابن سلام ـ مر ابن أخ لبشار بمعة قوم . فسمع بشار كلامه . فقال لرجل معه . من هذا ؟؟ قال ابن أخيك ! قال أشهد أن أصحابه سفلة . قال وكيف علمت ؟؟ قال لانهم ليست لهم نعال !!

سنة ١٤٥ ـ على قول الجاحظ ـ فرجع إلى البصرة وأقام مدة يمدح ولاتها إلى أن ارتحل إلى بغداد.

وعلى ذلك نرى أن بشاراً من سنة ١٣٢ إلى سنة ١٤٥ كان بعيداً عن البصرة. وهذا يفسر لنا عدم وجود شعر لبشار يمدح به ولاة البصرة الذين تعاقبوا عليها من سنة ١٣٢ إلى ١٤٥ بينما الامر بالعكس فيما بعد ذلك !!.. وهذا ـ أيضا ـ يفسر لنا موقف بشار مع ابراهيم ابن عبد الله بن حسن العلوى الذى ثار على المنصور سنة ١٤٥ — قبل وفاة عمرو بن عبيد الذى توفى فى ذى الحجة من تلك السنة — فان بشاراً لم يتمكن من مقابلته! ! فبعث اليه بقصيدته الميمية الشهيرة كما سيرد عليك !!!!

بشار ومالك بن دينار :

مالك بن دينار هو العالم الناسك الزاهد الشهير. من موالى بنى أسامة بن ثور القرشى. توفى بالبصرة سنة ١٣١

كان لايخشى فى الحق لومة لائم. فدفعه ذلك إلى التعرض لبشار. وهذا لما كثر استهتار نساء البصرة وشبابها بشعره. فقال مالك «ماشيء أدعى لأهل هذه المدينة الى الفسق من أشعار هذا الأعمى» وقال سوار بن عبد الله مثل قوله !.. وقال واصل بن عطاء «أن لمن أخدع حبائل الشيطان وأغواها لكلمات هذا الاعمى الملحد !!»

فاصبح مالك يوما وقرع على بشار بابه ! فقال بشار

— ياجارية أنظرى من هذا

فرجعت وقالت

— مالك بن دينار

— ماهو من أضرابى ! ولا أشكالى ! . . . أدخليه

فدخل مالك وقال

— يا أبا معاذ ! أتشتم أعراض الناس . وتشبب بنسائهم ؟؟

فدافع بشار عن نفسه ما استطاع وقال

— لا أعود ! !

وما هو إلا أن خرج مالك من عنده حتى أنشد فى أثره :

غدا « مالك » بملاماته ‏ ‏ على — وما كان من باليه !

تناول خوداً هضيم الحشا ‏ ‏ من الحور ! محطوطة عاليه

فقلت

دع اللوم فى حبلها ‏ ‏ فقبلك أعيت عذاليه

وانى لأكتمهم سرها ‏ ‏ غداة تقول لها الجاليه

عبيدة ! مالك مسلوبة ‏ ‏ وكنت معطرة حاليه !؟

فقالت — على رقبه

انى ‏ ‏ رهنت « المرعث » خلخاليه

بمجلس يوم سأوفي به ‏ ‏ ولو أجلب الناس أحواليه

وهذه الحادثة كانت حوالى سنة ١٢٧ وهي تدلنا على أن علماء

البصرة وزهادها كانوا فى طليعة الساعين فى نفيه . فقد أوغر صدورهم عليه بهذا الشعر الغزلى المنافى لمذهب بني عذرة والخارج — على طول الخط — عن حدود الحشمة العذرية !

لذلك كان واصل بن عطاء فى مناهضته لبشار معبراً عن شعور هذه الطائفة جميعها . فبينما تراه يسفه آراءه المذهبية . إذا به إلى جانب مالك بن دينار يظهر استياءه من هذه الاشعار الغزلية . وبذلك أمكنه التغلب على الشاعر واكتساب قلوب زعماء البصرة وأشرافها الذين يخافون لسان الشاعر خوفا يجعلهم يتمنون قتله لا نفيه . فاقنعهم واصل بأن بشاراً يفسد العقول بآرائه والنفوس بمثل هذا الشعر !!

بشارا ويزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى :

وممن اتصل بهم بشار من الامراء ولاة الاقاليم ، والقواد المشاهير « يزيد بن عمر بن هبيرة » . وكان أبوه « عمر » من كبار القواد . كان صغير الرأس ليسمونه « رأس العصا » !! ولاه يزيد بن عبد الملك العراقين بدلا من أخيه مسلمة بن عبد الملك . لسبب سيرد ذكره !!

وأم يزيد من سبى خوارج عمان سباها مُجاعة بن سعر السعدى أحد قواد الحجاج ورؤساء الجيوش — وكانوا يسلبون ذرارى الخوارج ونساءهم — فصارت لعمر بن هبيرة فأولدها يزيد !!

ولما ولى عمر بن هبيرة العراقين هجاه الفرزدق — وكان له هجاء — فقال:

راحت « بمسلمة » البغال عشية فارعى « فزارة » لاهناك المر[...]

ولقد علمت اذا فزارة أمرت　　أن سوف تطمع فى الامارة أشجع

فارى الأمور تنكرت أعلامها　　حتى أمية عن فزارة تنزع

عزل «ابن بشر» و «ابن عمرو» قبله　　و « أخو هراة » لمثلها يتوقع

يريد بابن بشر « عبد الملك بن بشر بن مروان بن الحكم بن أبي العاص » وكان على البصرة ! وابن عمرو « محمد بن عمرو بن الوليد ابن عقبة بن أبي معيط » واخو هراة « سعيد بن عبد العزيز بن الحرث ابن الحكم بن أبي العاص » وهو سعيد خذينة — والخذينة هي الدهقانة ربة البيت . سمى بذلك لترفه وتنعمه فى ما كله وملبسه — وكان عاملا لمسلمة على خراسان . وفعلا عزله ابن هبيرة وولى مكانه « سعيداً الجرشى » وأخذ فى غزو الصغد والخزر والترك !!

ويقول فيه — محرضا الخليفة يزيد بن عبد الملك — :

أمير المؤمنين وأنت برّ　　أمين ! لست بالطبع الحريص

أأطعمت العراق ورافديه　　فزاريا أخذّ يد القميص ! ؟

ولم يك قبلها راعى مخاض　　ليأمنه على « وركى قلوص » !!

تفهق بالعراق أبو المثنى　　وعلّم قومه أكل الخبيص

ولانرى سبباً لهذا الهجاء المقذع الا بخل ابن هبيرة وامساكه . لا عن الفرزدق فقط بل عن جميع الشعراء . فقد أتاه « الحكم بن عبدل الأسدى » وأقبل حتى وقف بين يديه وقال :

[أتيـ]تك فى أمر من أمر عشيرتى　　وأعمى الأمور المقطعات جسيمها

فاز قلت لى فى حاجتى « انا فاعل »   فقد ثلجت نفسى وولّت همومها

قال أنا فاعل ان اقتصدت !فما حاجتك ؟ ؟ قال غرم لزمنى فى حمالة !
قال وكم هى ؟؟ قال أربعة آلاف . قال فنحن مناصفوكها. قال — أصلح الله الأمير — أتخاف علىّ التخمة أن أتممتها !؟ قال أكره أن أعود الناس هذه العادة . قال فاعطنى جميعها سراً وامنعنى جميعها ظاهراً . حتى تعود الناس المنع . والا فالضرر واقع عليك ان عوضتهم نصف مايطلبون !! فضحك وقال ماعندنا غير ما بذلناه لك فجثا بين يديه وقال . امرأتى طالق لا أخذت أقل من أربعة آلاف أو أنصرف وأنا غضبان . فقال أعطوه إياها — قبحه الله — فانه ما علمت مهين ! ! !

وكان زيادة على هذا البخل الطبيعى . ساعيا — قبل توليته العراق — فى هذه الولاية . بتقديم الهدايا الثمينة ليزيد بن عبد الملك !! وهذا لا يترك له شيئا يقطع به ألسنة الشعراء فضلا عن اطلاقها بالثناء عليه! ..

أما كيف ولى عمر العراق . فاليك ما يقوله الاصفهانى — مع بيان عزل مسلمة — قال « ان حبابة - المغنية - غلبت على يزيد بن عبد الملك . وتبنى بها عمر بن هبيرة فعلت منزلته حتى كان يدخل على يزيد فى أى وقت شاء !!

وحسد ناس من بنى أمية مسلمة بن عبد الملك على ولايته العراق وقدحوا فيه عند يزيد . وقالوا إن مسلمة ان اقتطع الخراج لم يحسن

يأمير المؤمنين ان يعيشه وان يستكشف عن شيء لسنه وخفته !..
فوقر ذلك فى قلب يزيد وعزم على عزله

وعمل ابن هبيرة فى ولاية العراق من قبل حبابة – وكان بينه وبين القعقاع بن خليد العبسى عداوة . وكان يتنازعان ويتحاسدان . فقيل للقعقاع لقد نزل ابن هبيرة من أمير المؤمنين منزلة انه لصاحب العراق غداً . فقال ومن يطيق ابن هبيرة ؟؟ حبابة بالليل وهداياه بالنهار !! – فلم تزل حبابة تعمل له فى العراق حتى وليها »

وقد انتقم عمر أثناء توليه العراق . فحبس الفرزدق . ولم يطلقه [illegible]اه « أبو نخيلة الراجز » يوم الفطر – وكان مادحا له – فس[illegible]ه بأبيات قالها – لأنه تميمى مثله – فأطلقه ابن هبيرة إكراما له !.. فكانت هذه المعاملة السبب الجوهرى فى مدح الفرزدق له فيما بعد عند ما حبسه خالد بن عبد الله القسرى . وذلك أنه لما توفى « يزيد بن عبد الملك » عزل هشام بن عبد الملك « بن هبيرة » وولى مكانه خالداً القسرى – وكان هشام يحسن ظنه باليمانية (١) – فحبس خالد « ابن هبيرة » وانبرى الفرزدق لهجائه ومدح ابن هبيرة . فقال :

لعمرى لئن نابت « فزارة » نوبة لمن حدث الأيام تحبسها « قسر »
لقد حبس القسرى فى سجن واسط فتى شيظميا ما ينهنه الزجر

(١) فقد كانت أمه يمانية ! وهذا أيضا من أسباب تقريبه الابرش الكلبي

فتى لم تربيه النصارى ! ولم يكن   غذاء له لحم الخنازير والخمر

وفى تولية « خالد » يقول اسماعيل بن عمار الأسدى ناقضا أبيات الفرزدق « العينية » وكان قد سمع إنسانا ينشدها فى أول ولاية خالد !! فقال « أعجَبُ والله مما عَجِب منه الفرزدق من ولاية ابن هبيرة — مما لست أراه يعجب منه — ولاية خالد القسرى وهو مخنث دعى بن دعى »

عجب الفرزدق من فزارة أن رأى   عنها أمية بالمشارق تنزع
فلقد رأى عجبا ! وأحدث بعده   أمر تضج له القلوب وتفزع
بكت المنابر من فزارة شجوها   فالآن من قسر تذوب و يجزع
وملوك خندف أسلمونا للعدا   لله در ملوكنا ما تصنع !!
كانوا كتاركة بنيها جانبا   سفها ! وغيرهم تصون وترضع !!

ولم ينج ابن هبيرة من سجنه حتى نقب له غلمانه . فسار هو وابنه تحت الأرض حتى نفذا . وفى ذلك يقول الفرزدق :

لما رأيت الارض قد سد ظهرها   ولم تر إلا بطنها لك مخرجا
دعوت الذى ناداه يونس بعدما   ثوى فى ثلاث مظلمات !! ففرجا
فاصبحت تحت الارض قد سرت ليلة   وما سار سارٍ مثلها حين ادلجا
ظلماء تحت الأرض قد خضت هولها   وليل كلون الطيلسانى أدعجا

***

هما ظلمتا أرض وليل تلاقتا   على جامع من همه ما تعرجا

فما احتال محتال بحيلته التى بها ! نفسه ! تحت الصديمة أولجا

❁❁❁

خرجت ولم تمنن عليك شفاعة سوى ربذ التقريب من آل أعوجا
أغر من اللاحق اللهاميم إن جرى جرى بك محبوك القرى غير أفحجا
جرى بك عريان الحماتين ليله به !عنك ! أرخى الله ما كان أشرجا

فقال ابن هبيرة . مارأيت أشرف من الفرزدق هجانى أميراً ومدحنى أسيراً ! !

ومما يؤثر عن ابن هبيرة أثناء ولايته العراق . أن يزيد بن عبد الملك كتب إليه يأمره بمسح السواد . فمسحه سنة ١٠٥ ولم يمسح السواد منذ مسحه عثمان بن حنيف فى زمن عمر بن الخطاب حتى مسحه ابن هبيرة ! !

وتوفى فى خلافة هشام ! بعد ما استجار بمسلمة فسعى فى العفو عنه ! فعفى عنه هشام ! . . فشخص ابنه « يزيد بن عمر بن هبيرة » — صاحب بشار — الى هشام . . فتكلم . . فقال هشام مامات من خلف مثل هذا !! فقال الابرش الكلبى — وهو سعيد بن الوليد الكلبى وكان ثلابة نسابة ملازما لهشام — ليس هناك !! أما تراه برشح جبينه لضيق صدره ؟؟ . . فقال يزيد « مالذلك رشح !! ولكن لجلوسك فى هذا الموضع »

ومالبث يزيد أن صار من كبار القواد . وأظهر مهارة فائقة

فى قيادة الجيوش فولاه « مروان بن محمد » العراقين ومحاربة الخوارج به سنة ١٢٨ فكان مثال الشجاعة والكرم والمروءة والشهامة . وكان يقسم على زواره — طلاب رفده — فى كل شهر خمسمائة ألف درهم . ويفطرون عنده طوال شهر رمضان . فهو كما ترى على عكس أبيه في البذل والعطاء . لذلك كان ممدحا من الشعراء محبوبا فى جنده . فكان قوة هائلة مخيفة فيما بعد . ارتاعت لها الدولة العباسية وبذلت المسودة جهدها فى تحطيمها ! !

وكان ممن شملهم بعطفه « بشار بن برد » فانه لما رجع إلى العراق بعد زورته « سليمان بن هشام بن عبد الملك » استدعاه يزيد إليه فبره ووصله . وكان يعظمه ويقدمه لمدحه قيسا وافتخاره بهم . فامتدحه بشار بقصائد عدة . لم نعرف منها الا قصيدته التى أنشدها إياه عند خروجه لقتال الخوارج سنة ١٢٨ — وهى السنة التى اتصل فيها بابن هبيرة — فأثارت فى الجند النخوة وتركتهم يلتهبون حماسة . وذلك أن « الضحاك بن قيس الشيبانى » فقيه الخوارج ورئيسهم لما رأى اضطراب الدولة أيام مروان بن محمد هاجم الكوفة واستولى عليها من يد أميرها عبد الله بن « عمر بن عبد العزيز » وهرب عبد الله الى واسط فتبعوه اليها ، واشتدت عليه الحرب فسلم نفسه وبايع الضحاك . وكذلك دخل فى البيعة سليمان بن هشام بن عبد الملك —

كما مر بك - فقال شاعر الخوارج :

ألم تر أن الله أظهر دينه وصلت قريش خلف بكر بن وائل

ولما تم ذلك للضحاك عاد الى الموصل فافتتحها ، وكان مروان إذ ذاك محاصراً لحمص - وقد عصى عليه أهلها عصيانهم الثانى - فلما بلغه الخبر كتب الى ابنه « عبد الله » وهو عامل بالجزيرة يامره أن يسير فيمن معه الى نصيبين ليمنع الضحاك من توسط الجزيرة . فسار اليها فى نحو سبعة آلاف . وسار اليه الضحاك في نحو مائة ألف وحصره بنصيبين . فاسرع مروان لنجدة ابنه ومعه قائده العظيم « يزيد بن عمر بن هبيرة » وذلك فى أول سنة ١٢٨ فوقف بشار على ابن هبيرة وأنشده هذه القصيدة يبعث بها روح الامل فى الجند الاموى الضعيف الذى يخرج من فتنة ليقاتل فى أخرى :

جفا ودّه ! فازورّ ! أومل ّ صاحبه وأزرى به ألا يزال - يعاتبه !

خليلى لا تستكثرا لوعة الهوى ولا سلوة المحزون شطت حبائبه

فقد رابنى قلبى ! يكلفنى الصبا وما كل حين يتبع القلب صاحبه

***

اذا كنت فى كل الامور معاتبا صديقك ! لم تلق الذى لا تعاتبه

فعش واحداً ! أو صل أخاك فانه مقارف ذنب مرة ومجانبه

اذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه

ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلا أن تعد معايبه ؟!!

***

يخاف المنايا-ان ترحلت صاحبي   كأن المنايا فى المقام تناسبه!!
فقلت له ان العراق مقامه   وخيم! اذا هبت عليك جنائبه
سألقى «بنى عيلان» ان فعالهم   تزيد على كل الفعال - مراتبه!
أولاك الألى شقوا العمى بسيوفهم   عن العين حتى أبصر الحق طالبه

***

رويداً. تصاهل بالعراق جيادنا   كأنك «بالضحاك» قد قام نادبه
سام له مروان مادونه الشجا   وهولاً كلج البحر جاشت غواربه

***

وجيش كجنح الليل يزحف بالحصى   وبالشوك. والخطى- حمر ثعالبه
ركبنا له جهراً! بكل مثقف   وأبيض تستسق الدماء مضاربه
فلما تولى القر واعتصر الثرى   لظى من نجم توقد لاهبه
فطارت عصافير الشقائق واكتسى   من الآل- أمثال المجرة - ناضبه
وغدت عانة تشكو بابصارها الصدى   الى الجأب! إلا انها لا تخاطبه
غدونا له والشمس فى خدر أمها   تطالعنا! والطل لم يجر ذائبه
بضرب يذوق الموت من ذاق طعمه   ويدرك من نجى الفرار مثالبه
كأن مثار النقع فوق رؤوسنا   وأسيافنا! ليل تهاوى كواكبه
بعثنا لهم موت الفجاءة «إننا   بنو الموت! خفاق علينا سبائبه
اذا الملك الجبار صعر خده   مشينا اليه بالسيوف نعاتبه
أحلت به أم المنايا بناتها   باسيافنا! إنا ردى من نحاربه

وكنا اذا دب العدو لسخطنا وراقبنا - فى ظاهر - لانراقبه »
فراحوا فريق فى الاسار ! ومثله قتيل ومثل لاذ بالبحر هاربه!!

فاعطاه يزيد اربعين ألف درهم . فكانت كما يقول الاصفهانى - أول عطية سنية أعطيها بشار ورفعت من ذكره ! ولعمرى لو لم يقل بشار إلا هذه القصيدة وقصيدته الميمية فى ابراهيم بن عبد الله بن حسن لخلد بهما واستحق ما يقال فيه من ضروب المديح وأصناف الثناء ! (١) . .

---

(١) قال محمد بن حجاج : قلت لبشار إنى انشدت فلانا قولك « إذا أنت لم تشرب .. » فقال لى ما كنت أظن هذا الا لرجل كبير . فقال بشار أفلا قلت له - ويحك - انه لاكبر الجن والانس !!

وحدث « على بن ابراهيم المروزى » وكان ابوه من قواد طاهر بن الحسين - قال - حدثنى أبى قال : « لما خلع الامين المأمون وندب له على بن عيسى . ندب المأمون للقاء على بن عيسى طاهر بن الحسين ذا اليمينين . وجلس له لعرضه وعرض اصحابه . فمر به ذو اليمينين معترضاً وهو ينشد :

رويداً تصاهل بالعراق جيادنا كأنك بالضحاك قد قام نادبه

فتفاءل المأمون بذلك ! فاستدناه واستعاده البيت . فأعاده . فقال ذو الرياستين يا أمير المؤمنين هو حجر العراق ! قال اجل ! . فلما صار ذو اليمينين الى العراق سأل هل بقى من ولد بشار أحد !؟ فقالوا لا - فتوهمت أنه قد كان هم لهم بخير !! »

أما قوله « كأن مثار النقع فوق رؤوسنا . . » فقد أكثر من تكريره حتى غلب عليه . فمن ذلك قوله :

وأرى من المستحسن أن نتم الحديث ونأتى بخاتمة يزيد ! فاليك : التقى الجيش الأموى بالضحاك فى جهة كفر توثا . فحصلت بين الفريقين موقعة عظيمة قتل فيها الضحاك . فولى الخوارج عليهم « سعيد بن بهدل الخيبرى » فقتل أيضا . وولت الخوارج بعده « شيبان بن عبد العزيز اليشكرى » فاقام يقاتل مروان . ولكنه لما رأى الناس

كأنما النقع يوما فوق رؤوسهم سقف كواكبه البيض المباتير

ومثله وان كان فى معنى آخر :

من كل مشتهر فى كف مشتهر كأن غرته والسيف نجمان

قال الجاحظ فى حياة الحيوان — ان هذا المعنى قد غلب عليه بشار كما غلب عنترة العبسى على قوله « وخلا الذباب بها فليس ببارح . »

وقال بشار : لم أزل منذ سمعت قول امرئ القيس فى تشبيه شيئين بشيئين فى بيت واحد حيث يقول :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها ! العناب والحشف البالى

أعمل فى نفسى فى تشبيه شيئين بشيئين فى بيت واحد حتى قلت

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ! ليل تهاوى كواكبه

ومن أحسن التضمينات التى قرأتها تضمين شاعر النيل حافظ بك ابراهيم لبيت بشار « اذا الملك الجبار صعر خده . . » فقال من قصيدته فى عيد الدستور العثمانى :

اذا شوكت الفاروق قام مناديا الى الحق ! لباه نيازى وصاحبه

ثلاثة آساد يجانبها الردى وان هى لاقاها الردى لا تجانبه

روت قول بشار فثارت وأقسمت وقامت الى عبد الحميد تحاسبه

« اذا الملك الجبار صعر خده مشينا اليه بالسيوف نعاتبه »

يتفرقون عنه انصرف بمن معه الى الموصل . فتبعهم مروان وأقام يقاتلهم ستة أشهر !!

وكان يزيد قد صار واليا على العراق بعد مقتل الضحاك . سيره مروان بفرقة من الجيش فى تلك السنة نفسها سنة ١٢٨ فاجلى الخوارج عن أمصاره واستتب له الامر . فسير جنداً لمساعدة مروان . وعند ماعلم شيبان بذلك كره أن يكون بين عدوين فرحل عن الموصل . فسير مروان فى أثره جنداً وأمر قائدهم ان يقيم حيث يقيم شيبان وأن لا يبدأه بقتال . فلم يزل يتبعه حتى تلاقيا بجيرفت فهزمه هزيمة منكرة . ومضى شيبان منهزما إلى سجستان فهلك بها سنة ١٣٠

ولم يلبث أبى هبيرة إلا قليلا فى العراق حتى ظهرت الدعوة العباسية فصمد لها وحاول صدها . فهاجمه «قحطبة بن شبيب الطائى» وألجأه إلى التحصن بواسط !

ولما تمت البيعة لابى العباس السفاح ولى أخاه أباجعفر على حصار واسط . فمكث أبو جعفر محاصرا له تسعة أشهر . وجرت السفراء بينهم . فاتفقا على أن يدخل ابن هبيرة فى أمان بنى العباس . فكتب له المنصور أمانا ظل ابن هبيرة أربعين ليلة يشاور فيه العلماء حتى تحقق صحته ورضى به فبعثه الى أبى جعفر . وأنفذه أبو جعفر الى أبى العباس . فأمره بامضائه . وهكذا فتحت واسط صلحا وخرج الليث من عرينه فى ركب من آل بيته معززاً مكرما

ويمكننا أن نتصور المتاعب التى لقيها أثناء الحصار . والآلام التى عاناها لتسليم جماعة من قواده قبل الصلح !! من قوله « ما رأيت رجلا قط فى حرب ولا سمعت به فى سلم ! أمكر ولا أبدع ولا أشد تيقظا من المنصور ! لقد حصرنى في مدينتى تسعة أشهر ومعى فرسان العرب فجهدنا كل الجهد أن ننال من عسكره شيئا نكسره به فما تهيأ . ولقد حصرنى وما فى رأسى بيضاء فخرجت اليه وما فيها سوداء ! »

وكان أبو جعفر من رأيه أن يفى بما أعطى من الامان . ولكن أبا مسلم أشار على السفاح أن يقتله . وكان السفاح قد نقلت اليه الجواسيس أن ابن هبيرة هواه مع « محمد بن عبدالله بن حسن العلوى ولا يبعد أن يبايع له وينتقض على الدولة العباسية الناشئة . فاصغى الى قول ابى مسلم « ان الطريق السهل اذا القيت فيه الحجارة فسد . لا والله ! لايصلح طريق فيه ابن هبيرة » فاضطر المنصور أن يصادق على ذلك بقوله « لا يعز ملك هذا فيه » فأمره السفاح بقتله . فغدر به المنصور وقتله هو وولده داؤد سنة ١٣٢ بمدينة واسط — وكانت ولادته سنة ٨٧ فيكون عمره يوم قتل ٤٥ سنة – ولما حمل رأسه الى المنصور قال للحرسى - الذى اتاه به « أترى الى طينة رأسه ما أعظمها !! » فقال الحرسى « طينة ايمانه أعظم من طينة رأسه » وقال أبو العطاء السندى يرثيه :

ألا إن عينا لم تجد يوم واسط عليك بجارى دمعها لجمود
عشية قام النائحات وشققت جيوب - بايدى مأتم - وخدود
فان تمس مهجور الفناء فربما أقام به - بعد الوفود - وفود
وانك لم تبعد على متعهد بلى كل من تحت التراب بعيد

ولكن بشاراً اعتصم بالتقية فلم يقم بواجب الرثاء للرجل الذى رفع من ذكره

الفصل الثالث

العصر العباسى

فى خلافة المنصور

بشار وابراهيم بن عبد الله بن حسن العلوى :

لما توفى الحسن وقتل الحسين اتجهت انظار البعض من الشيعة إلى محمد بن الحنفية فجعلته أمامها — وهم الشيعة الكيسانية — ثم توفى ابن الحنفية ! فجعلوا دعوتهم إلى ابنه « أبى هاشم المعتزلى » عبد الله بن محمد بن على بن أبى طالب !! وهو أستاذ واصل بن عطاء الذى أخذ عنه فكرة الاعتزال . وكان عالما جليلا وسيداً شريفا ! .. سئل بعضهم عنه . فقال للسائل . انظر إلى أثره على واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد بن باب ! ماذا أقوال فى جمر هذا شرره وفى سيف هذا أثره وفى كريم هذه نتائج سؤدده وآثار يده ! ؟

وكان أبو هاشم يفد على خلفاء بنى أمية من المدينة إلى الشام . فيمر فى أثناء الطريق ببلدة « الحميمة » ففى بعض وفداته على سليمان بن عبد الملك سنة ٩٩ آنس سليمان منه فصاحة وقوة وعلما وافراً وعقلا

حصيفا فخافه — لعلمه بطمعه في الخلافة — فدس إليه فى أثناء رجوعه إلى المدينة رجلا سقاه سما فى لبن . فشعر أبو هاشم بالسم وهو فى بعض الطريق فعرج إلى الحميمة وبها صاحب الدعوة العباسية يومئذ « محمد بن على بن عبد الله بن عباس » فنزل عنده وأوصى اليه بالخلافة من بعده . خوفا من ضياع البيعة وهو بعيد عن أهله . ولعلمه أن الخلافة صائرة إلى العباسيين . أخبره بذلك أبوه الذى عرف ذلك من أبيه على بن أبى طالب — قاله ابن أبى الحديد — ثم انه اوصاه بمن كان معه من دعاته الملازمين له !

فلما مات نشط محمد في بث الدعوة سنة ١٠٠ وأيقن بالنجاح لاكتسابه حزب الكيسانية . ولكن المنية عاجلته ! فاوصى إلى ابنه إبراهيم الامام . وأخذ ابراهيم فى بث دعاته وبدأ بخراسان لوثوقه باهلها اكثر من سائر الامصار ولان الشيعة الكيسانية أكثرهم فى خراسان والعراق . فبعث اليهم دعاة الكيسانية الذين كانوا مع أبى هاشم وأوصاهم أن يطلبوا بيعة الناس باسم « آل محمد » أى أهل النبي صلى الله عليه وسلم . ولم يعين العلويين ام العباسيين لتكون الدعوة مشتركة ... ومبهمة أيضا !!!

وكان هناك حزب الشيعة الاكبر الملتف حول « عبد الله بن حسن بن الحسن بن على بن أبى طالب » فخاف العباسيون من مضايقته وحسبوا له حسابا عظيما . لان هذا الحزب لا يرضى بما دون

الخلافة التى هي بقية العباسين أيضا . ففكروا فى عقد مؤتمر عام يجمع بن هاشم علويهم وعباسيهم ليقرروا قرارهم الأخير فيمن يخلف الأمويين من أهل البيت . فعقدوا مؤتمرهم بمكة وحضره من العباسيين أخوا ابراهيم الامام أبو العباس السفاح وأبو جعفر المنصور وغيرهما . ومن العلويين عبد الله بن حسن وولداه محمد وابراهيم وغيرهم . وبعد المداولة لم يجد العباسيون بدءاً من أرخاء الحبل ولو إلى حين ريثما يقوى ساعدهم ثم يستبدون بالأمر . فبايعوا « محمداً بن عبد الله بن حسن » واستغلوا قوة هذا الحزب الذى نشط على أثر البيعة لرئيسه . بينما كانت هذه المبايعة سببا فى اسكان آل الحسن وتغافلهم — ارتكانا على أنهم هم الخلفاء — أثناء عملية الهدم فى بناء الدولة الأموية حتى صدمتهم الحقيقة القاسية باستبداد العباسيين — القائمين بأعمال الهدم — ومبايعة أبى العباس السفاح .. ومن ثم جعلت الخلافة فى بيت العباس فقط !!! ويظهر انهم جعلوا هذه المبايعة سرية لا تظهر ولا تعلن الا بعد التغلب على الأمويين — وهذا هو الواجب فى تلك الحالة فى مثل هذه المؤامرة السرية — وهذا ما نفسر به تلك الظاهرة الغامضة حين يعلن محمد بن عبد الله ابن حسن أن له فى عنق العباسيين بيعة ولا يصدقه أحد إلا العالمين بخفايا الأمور كالأمام مالك وغيره !!

ولا جدال في أن عبدالله بن حسن كان يعد ولديه — محمد وابراهيم

— للثورة على الدولة الأموية فى أخريات أيامها . ولكنه شعر بأزله منافسين اقوياء يصارحونه بعزمهم ولا يخفون عليك انهم لا يرونه ولا ولديه اكفاء لهذا الأمر .. أولئك هم بنو العباس !! فمما يروى من ذلك . أن عبد الله بن حسن ساير « عبد الله بن على بن عبد الله ابن عباس » وأخاه « داؤد على » وهما عما الأخوين السفاح والمنصور ! فقال داؤد لعبد الله بن حسن . لم لا تأمر ابنيك بالظهور ؟؟ قال لم يأن لهما بعد !! فالتفت اليه عبد الله بن على وقال . اظنك ترى أن ابنيك قاتلا مروان !؟ فقال انه ذلك ! قال هيهات ! وتمثل :

سيكفيك الجعالةمستميت حفيف الحاذ من فتيان جرم

أنا والله أقتل مروان وأسلبه ملكه ! لا أنت ولا ولدك !!

ويعجب القارىء لهذا التأكيد من جانب عبد الله بن على . ولكنه لو علم أن هذا هو الاعتقاد الراسخ فى قلوب العباسيين منذ أن ولد عبد الله بن عباس ولده « عليا » وسماه على بن أبى طالب « ابا الأملاك » أى أبا الملوك ... لزال عجبه !!

وقد امتزجت هذه الكلمة « أبو الأملاك » بدماء العباسيين وسرت فى أعصابهم سريان الكهرباء فى اسلاك النحاس . واعتقدوا اعتقاداً جازما أن الخلافة لابد وأن تصير اليهم وتأتيهم منقادة تجرر اذ يالها .

وقال على بن أبى طالب هذه الكلمة — كما هو ثابت بالتواتر —

كما قال غيرها عن الحوادث الغيبية ! موضحا ذلك بأنها أشياء سمعها من النبي صلى الله عليه وسلم أخبره بها قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى .. ويقول والله ما كذبت ولا كذبت ! ..

ولكن كانت لهذه الكلمة وأمثالها مفعولها الشديد فى نفوس العباسيين . فقدروى أن « على بن عبد الله بن عباس » المذكور دخل على هشام بن عبد الملك ومعه ابنا ابنه « محمد » أبو العباس وأبو جعفر . فكلمه فيما أراد ثم ولى خارجا . فقال هشام لمن حوله أن هذا الشيخ قد خرف واهتز ! يقول أن هذا الأمر سينتقل إلى ولده !! فالتفت إليه وقال : أى والله ليكونن ذلك وليملكن هذان .

وقبل ذلك ضربه الوليد بن عبد الملك بالسياط — لهذا القول — وشهره بين الناس يدار به على بعير ووجهه مما يلى ذنبه . وصائح يصيح أمامه « هذا على بن عبد الله الكذاب » فقال له قائل . ما الذى نسبوك اليه من الكذب يا أبا محمد ؟؟ قال بلغهم قولى أن هذا الأمر سيكون في ولدى ! . . والله ليكونن فيهم حتى يملكه عبيدهم الصغار العيون العراض الوجوه الذين كأن وجوههم المجان المطرقة ! . . يريد الترك كما هو واضح .

وأخيراً !! صارت الخلافة إلى العباسيين وبويع السفاح . فأحسن معاملة آل الحسن بن على وجاملهم أشد المجاملة حتى ثبطهم عن القيام في وجهه . فاعطاهم الأموال وقطع لهم القطائع ...

... قدم عليه عبد الله بن حسن . فقال له السفاح احتكم على . قال « يا أمير المؤمنين الف الف درهم فانى لم أرها قط » فاستقرضها أبو العباس من ابن أبى مقرن الصيرفى ودفعها اليه !! ثم ان أبا العباس أتى بجواهر مروان بن محمد الاموى فجعل يقلبها وعبد الله بن حسن إلى جانبه يبكى (كذا) فقال له ما يبكيك يا أبا محمد ؟؟ قال هذا عند بنات مروان ! وما رأت بنات عمك مثله قط !! فحباه به السفاح . ثم أمر ابن أبى مقرن أن يبتاعه منه . فاشتراه بثمانين الف دينار

تقول معى أن مثل هذه المعاملة كفيلة باجتثاث الاطماع والاحقاد من قلوب آل الحسن بن على وعبد الله خاصة . ولكننا نقص عليك مايلى فترى أن تحت الرماد وميض نار ...

ساير عبد الله بن حسن أبا العباس السفاح بظهر مدينة الانبار وهو ينظر الى بناء بناه ويدور به . فانشد عبد الله :

ألم تر حوشبا لما تبني   بناء ! نفعه لبنى بقيله
يؤمل أن يعمر عمر نوح   وأمر الله يحدث كل ليله

وكان أبو العباس كما ذكرنا مكرما له ! فتبسم مغضبا وقال : لو علمنا لاشترطنا حق المسايرة . فقال عبد الله . بوادر الخواطر واغفال المسانح . والله ! ماقلتها عن روية ولا عارضنى فيها ذكر . وانت أجل من أقال وأولى من صفح ! !

قال صدقت . خذ فى غير هذا

وقد يجوز ان يكون ماقاله سانحة أغفلها ولم يقلها عن روية . ولكن مالانريد أن نهمله هو أنه لو عاش السفاح وطالت مدته ما ثار أحد على الدولة العباسية من العلويين وغيرهم . لكسرة حدة العلويين بمواصلتهم والتجاوز عن سيئاتهم وبذل الاموال لهم ومخاطبتهم بالالفاظ المحبة واظهار عواطف المحبة لدواعى القرابة والرحم . واستطاع أيضا ببذل المال أن يشترى ألسنة الشعراء ويأمن تعضيدهم لسواه

ولكن ما مات السفاح وتولى المنصور الخلافة حتى اشتعلت نيران الثورة العلوية وشب أوارها . وذلك لبخله الشديد على آل الحسن بن على وعلى الشعراء أيضا الذين نقموا عليه فأثار واضده الشعور العام مما جعل الثورة تتفاقم . ولمعاملته السيئة لآل الحسن ومطاردته العنيفة لهم حتى صار يقتلهم بالظنة ! فانه لعلمه أن لهم فى عنقه بيعة فى « مؤتمر مكة » أراد أن يتعرف ما فى نفوسهم من جهته . فبعث بعطاء أهل المدينة وكتب الى عامله فيها « أعط الناس فى أيديهم ولا تبعث الى أحد بعطائه ! وتفقد بنى هاشم ومن تخلف منهم عن الحضور ! وتحفظ بمحمد وابراهيم ابنى عبد الله بن حسن » ففعل العامل ذلك . فلم يتخلف إلا محمد وابراهيم . فكتب إليه بذلك . فتأكد المنصور انهما ينويان القيام عليه . وقد سكتا فى أثناء خلافة أخيه لأنه كان يكرمهما ويغدق عليهما الأموال .

فضيق عليهما المنصور الخناق وتكالب فى القبض عليهما . فرأى

الاخوان أن يثورا فى وجهه مهما كان الامر . فثار محمد بالمدينة وبايعه أهلها بعد ان استفتوا إمامهم « مالك ابن أنس » فافتاهم بالخروج معه فقالوا « ان فى أعناقنا بيعة لابى جعفر » فقال « أنكم بايعتموه مكرهين ولا بيعة على مكره — وان بيعة محمد بن عبد الله أصح منها لأنها انعقدت قبلها » . . وكان أبو حنيفة أيضا على هذا الرأى !

وثار ابراهيم بالبصرة بلدة « بشار بن برد » الذى كان غائبا عنها منفيا . فأرسل اليه قصيدته الميمية . ووقف الى جانبه تلك الوقفة الشهيرة التى كادت تودى بحياته وتغادره شلواً ممزقا وضحية جسمية من ضحايا تلك الثورة . ولكى نعطى منها للقارىء صورة مختصرة كاملة . نلخص له أولا حياة « عبد الله بن حسن » الذى نشأ فى كنفه هذان الشبلان واغترفا من معين أدبه واقتبسا ما شاء من آرائه الناضجة . . .

كان عبد الله بن « حسن بن الحسين بن على بن أبى طالب » شيخ أهله وسيداً من ساداتهم انتهى اليه كل حسن وأجمعت القلوب على اجلاله وا كباره !

أبوه « حسن بن الحسن بن على بن أبى طالب » وأمه فاطمة بنت الحسين بن على بن أبى طالب » . ولدت عبد الله هذا وحسن وابراهيم ! ولما تزوجها « حسن بن الحسن » جاءه منظور بن زبان الفزارى وهو جده لأمه . فقال له لعلك أحدثت بعدى أهلا ؟ ؟

قال نعم تزوجت بنت عمى الحسين بن على بن أبى طالب ! قال بئسما صنعت . أما علمت ان الارحام اذا التقت أضوت ؟ كان ينبغى أن تتزوج فى الغرّب ! .. قال ان الله عز وجل رزقنى منها ولداً . قال أرنيه . فاخرج اليه « عبد الله » فسر به وقال . أنجبت ! هذا والله ليث عاد ومعدو عليه !!!!

وشب عبد الله وانظار الشيعة نطاق من حوله تحفه أنى سار فنشأ عارفا بمكانته جاهداً فى إلباسها الثوب اللائق ، فكان أديبا وفقيها وكان رئيسا لشيعته ملما بالمخاطبات السياسية ومقتضيات السياسة

وتزوج عبد الله خير امرأة قامت على ادارة بيتها وتربية أولادها خير قيام ! تلك « هند بنت أبى عبيدة بن عبد الله بن زمعة ابن الاسود القرشية » - وكانت قبل ذلك زوجا لعبد الله بن عبد الملك ابن مروان الاموى ، هى و « ريطة بنت عبد الله بن عبد المدان الحارثية » فمات عنهما عبد الله بن عبد الملك الاموى - فتزوج هنداً عبد الله بن حسن ، وتزوج ريطة « محمد بن على بن عبد الله بن عباس » فجاءت بابى العباس السفاح ! !

ونروى لك الآن كيف تم زواج عبد الله بن حسن بهند وقد كانت متزوجة قبله ابن خليفة عظيم . وعبد الله — كما قالت أمه — ترب

لامال له ! لتعرف مكانة عبد الله الادبية من جهة وتقدير الناس إذ ذاك للأنساب من جهة أخرى :

مات عبد الله بن عبد الملك بن مروان ورجعت هند بميراثها منه . فقال عبد الله لأمه فاطمة ، أخطبي علىّ هنداً ! ! قالت إذن تردك ! أتطمع أن تتزوج هنداً وقد ورثت ما ورثته وأنت ترب لامال لك ! ؟

فتركها ومضى الى أبي عبيدة والد هند ، فخطبها منه ، فقال فى الرحب والسعة . أما منى فقد زوجتك ، مكانك لاتبرح ! ! ودخل على هند فقال : يابنية هذا عبد الله بن حسن اتاك خاطبا ! قالت فما قلت له ؟ قال زوجته ! قالت قد أحسنت وقد أجزت ما صنعت ! .

وأرسلت الى عبد الله ، لا تبرح حتى تدخل على أهلك ! وتزينت له فبات بها معرسا من ليلته — وأمه لم تشعر بذلك — فأقام سبعا ثم أصبح فى يوم سابعه غاديا على أمه وعليه ردع الطيب . وفى غير ثيابه التى تعرف ، فقالت له يابنى من أين لك هذا ؟ قال من عند التى زعمت أنها لاتريدنى ! ! !

وعاش معها عبد الله أهنأ عيشة زوجية ، وأحبها حبا مفرطا ، وفيها يقول :

إن عينى تعودت كحل هند ❊ جمعت كفها مع الرفق لينا

ويقول :

ياهند ! إنك لو علم ت بعاذلين تتابعا
قالا ! فلم أسمع لما قالا !!وقلت بل اسمعا
هند أحب الى من مالى وروحى فارجعا !
إنى عصيت عواذلى وأطعت قلبا موجعا

وللدلالة أيضا على مكانة عبد الله بن حسن ومنزلته عند رجال عصره نحيل القارىء على ماروواه صاحب الاغانى ! قال « حج سليمان ابن عبد الملك فمر بالمدينة منصرفا ، فأتى باسرى من الروم نحو من أربع . فقعد سليمان — وعنده عبد الله بن حسن وعليه ثوبان ممصران وهو أقربهم منه مجلسا — فأدنوا إليه بطريقهم وهو فى جامعة . فقال لعبد الله بن حسن قم فاضرب عنقه . فقام فما أعطاه أحد سيفا حتى دفع اليه حرسى سيفا كليلا . فضربه فأبان عنقه وذراعه وأطن ساعده وبعض الغل !! فقال له سليمان . اجلس ! فوالله ما ضربته بسيفك ولكن بحسبك » .. ولو شئنا التوسع فى سرد الادلة على مكانة عبدالله ومميزات شخصيته لخرجنا عن موضع الكتاب . واضطررنا إلى تأليف كتاب آخر !!!!

قلنا أن معاملة المنصور السيئة لآل الحسن بن على عجلت فى ظهور ثورتهم قبل أوانها . فتيسر له أن يقضى عليها . لأنها ولدت مخدجة ! ولم يترك لها المنصور وقتا تستفحل فيه !!

والمنصور لا يعرف قرابة ولا رحما . ويضحى بكل شىء .. بالشرف ! بالدين ! بالانسانية ! .. فى سبيل الدولة والمملكة . فسياسته « عَمْرِية »(١) محضة تبرر فيها الغاية الواسطة . ولكن هؤلاء العلويين يتمسكون بحقهم أشد التمسك ويسببون للعباسيين المشاكل المعقدة فلا يراهم العباسيون إلا حيث يكرهون . فلم تمح من الاذهان ثورة الأخوين « محمد وابراهيم » حتى وثب أخوهما « يحيى » بالديلم وثبته الخطرة واصطلح مع الرشيد صلحه الخطير الذى انتهى بنكبة البرامكة الشهيرة !! وقبل ذلك كانت مذبحة « وج » — فى عهد الهادى — فذبح فيها أخوهم « سليمان » ونجا « ادريس » فذهب إلى المغرب وأسس دولة الادراسة ! . .

ولم يقتصر المنصور فى أعماله على مقاطعة آل الحسن هذه المقاطعة السلبية السابحة فى الدماء . فانكر بيعتهم وقتلهم أفواجا ونفاهم فى الأرض . بل قتل قبل ذلك عماد الدولة « أبا مسلم » سنة ١٣٧ فى أول ولايته . وقتل من هو أقرب إليه من كل ذلك .. قتل عمه القائد المحنك الذى سلب مروان ملكه .. قتل عبد الله بن على بن عبد الله ابن عباس !!

فساءت هذه الافعال كثيراً من أمراء بنى العباس . وانطلقت

---

(١) استعملت هذه الكلمة بدلا من « ميكيافيلليه » نسبة الى ميكيا فللى صاحب كتاب « الامير » فجعلت النسبة الى الأسبق « عمرو بن العاص » الذى مارسها وطبقها فعلا ! !

الالسنة بمدح بن أمية والترحم عليهم والتحسر على أيامهم !! فقد وفد عبد الله بن عمر العَبْلى الشاعر المخضرم على « محمد بن عبد الله ابن حسن » فاستنشده قصيدته التى يرثى بها بنى أمية ويقول فى مطلعها :

تقول أمامة — لما رأت نشوزى عن المضجع الانفس
وقلة نومى على مضجعى لدى هجمة الأعين النعس — :
أبى إماعراك ؟ فقلت الهمو م منعن أباك . فلا تبلسى

فبكى واستعبر . فقال له عمه « الحسن بن الحسن » أتبكى على بنى أمية وأنت تريد ببنى العباس ما تريد !؟؟ فقال « والله ياعم لقد كنا نقمنا على بنى أمية ما نقمناها بنو العباس إلا أقل خوفا لله منهم . وان الحجة على بنى العباس لأوجب منها عليهم . ولقد كان للقوم أخلاق ومكارم ليست لأبى جعفر !! » ثم ان محمداً وصل العبلى بمال . ولما خرج على المنصور ولاّه الطائف !!

وكان محمد وابراهيم كما أسلفنا مختفيين عن انظار المنصور . وهو يسأل عنهما كل من يلقاه ! ويمكننا أن نحمل حجه سنة ١٤٠ على خوفه منهما . وليتمكن من مقابلة أبيهما عبد الله بن حسن ومفاوضته فى شأنهما . وقد سأله فأجابه بقوله « مالى بهما ولا بموضعهما من الأرض علم . ولقد خرجا من يدى » فأخذ المنصور يداوره ليستخلص شيئا منه فلم يفلح . فلما يئس منه حبسه بالهاشمية إلى

أن مات بها سنة ١٤٥ وعمره خمس وسبعون سنة — بعد أن علم بفشل ولديه وقتلهما — وسنذكر حادثة القبض عليه بتطويل عند الكلام على عقبه بن سلم !!

وألح أبو جعفر فى المسألة عن محمد وعمن يؤديه . فدعا ببنى هاشم رجلا رجلا وسألهم عنه . فكلهم يقول يا أمير المؤمنين قد علم انك عرفته يطلب هذا الشأن « الخلافة » قبل اليوم « أى فى عهد الخلافة الأموية » فهو يخافك على نفسه ولا يريد لك خلافا ولا يحب لك معصية — وما أشبه هذه المقالة — إلا « حسن بن زيد » فانه أخبره خبره وقال . والله ما آمن وثوبه عليك ! فانه للذى لا ينام عنك . فرَ رأيك ! ..

وحدث ما توقعه الحسن بن زيد . فثار محمد بالمدينة سنة ١٤٥ عقب حجة المنصور سنة ١٤٤ التى عذب فيها آل الحسن وقتل منهم البعض !.. وثار ابراهيم بالبصرة فى رمضان من تلك السنة بعد ثورة أخيه وهى فى الحقيقة جزء من ثورة محمد بن عبد الله بن حسن . ووجد كلاهما شاعراً يناصره ويحرضه على القتال . وكلا الشاعرين أنكر بعد ذلك ماقاله أو حوره وصرفه لمعنى آخر !

أما محمد فاتاه « عبد الله بن مصعب الزبيرى » وأنشده قصيدة يبدؤها بقوله :

أن الحمامة يوم الشعب من وثن   هاجت فؤاد محب دائم الحزن

ثم يحرضه :

لا عزّ ركنا نزار عند سطوتها ... ان أسلمتك ! ولا ركنا ذوى يمن
الست أكرمهم عوداً اذا انتسبوا ... يوما ! واطهرهم ثوبا من الدرن
وأعظم الناس عند الناس منزلة ... وأبعد الناس من عيب ومن وهن

***

قوموا ببيعتكم ننهض بطاعتنا ... ان الخلافة فيكم يا « بنى حسن »
انا لنأمل أن ترتد الفتنا ... بعد التدابر والبغضاء والأحن
حتى يثاب على الاحسان محسننا ... ويأمن الخائف المأخوذ بالدمن
وتنقضى دولة أحكام قادتها ... فينا كأحكام قوم عابدى وثن
فطالما قد برت بالجور أعظمنا ... برى الصناع قداح النبع بالسفن

فقام محمد على منبر المدينة يخطب خطبة نارية . ثم تبودلت الرسائل بينه وبين المنصور . فعقد للمنصور لواء النصر واستطال على محمد بقلمه . ولكن كان خير ماقاله محمد فى رسالته — وقد عرض عليه المنصور الامان — قوله « فأما أمانك الذى عرضت علىّ فأى الامانات هو !؟ أمان ابن هبيرة ؟ أم أمان عمك عبد الله بن على ؟ أم أمان أبى مسلم ؟؟ »

فاحضر المنصور ابن أخيه « عيسى بن موسى بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس » وأمره بالمسير إلى المدينة لقتال محمد بن عبد الله

ابن حسن . فقال له عيس شاور عمومتك . قال فاين قول ابن هرمة :

اذا ما أتى شيئا مضى كالذى أتى   وان قال - انى فاعل - فهو فاعل

وجعل المنصور يوصيه ويكثر من ذلك . فقال له عيس . إلى كم توصينى يا أمير المؤمنين ...

إنى أنا السيف الحسام الهندى

أ كلت جفنى وفريت غمدى   فكل ما تطلب منى عندى

وسارت عساكر المنصور بقيادة عيسى بن موسى فاحاطت بمحمد — وهو بالمدينة — فقيل له انج بنفسك فان لك خيلا مضمرة ونجائب سابقة . فاقعد عليها والتحق بمكة أو باليمن قال إنى إذن عبدا! .. وخرج الى الحرب يباشرها بنفسه ومواليه ، فلما أمسى ليلته وأيقن بالقتل اشير عليه بالاستتار . فقال اذن يستعرض عيش اهل المدينة بالسيف فيكون لهم يوم كيوم الحرة . لا والله لا احفظ نفسى بهلاك اهل المدينة ، بل اجعل دمى دون دمائهم

فبذل له عيسى الامان على نفسه وأهله وأمواله ، فابى ونهد الى الناس بسيفه لايقاربه أحد إلا قتله ، فرمى بالسهام ودهمته الخيل ، فوقف الى ناحية جدار وتحاماه الناس ، فلما وجد الموت لاشك فيه تحامل على سيفه فكسره ! فقتل وحملت رأسه الى أبي جعفر . فبعثها مع حاجبه الربيع الى أبيه « عبد الله بن حسن » وهو سجين كما قدمنا

فوضعت بين يديه ، فقال « رحمك الله أبا القاسم ! فقد كنت من الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، ويخشون ربهم ويخافون سوء العذاب ! .. وتمثل

فتى كان يحميه من الذل سيفه ويكفيه سوءات الامور اجتنابها

ثم التفت الى الربيع وقال « قل لصاحبك قد مضى من بؤسنا مدة ومن نعيمك مثلها والموعد الله تعالى » قال الربيع . فما رأيت المنصور قط اكثر انكساراً منه حين ابلغته الرسالة !!

أما ابراهيم فقد كانت ثورته بالبصرة وهو لا يعلم بقتل أخيه ، فبعد أن استولى على دار الامارة وبيت المال أرسل اليه بشار بن برد بقصيدته الميمية - من مدينة الكوفة على الأرجح - فغمس لسانه فى مغامرة سياسية لاناقة له فيها ولاجمل . كادت تودى بحياته - لولا مساعدة الاقدار أولا حيث أن القصيدة لم تصل إلى ابراهيم ! وثانيا دهاؤه وسعة حيلته فى تحوير القصيدة واظهارها على صورة أخرى — كما أودت بعبد الله بن مصعب فى خلافة الرشيد

وانى لا أشك قط فى أن أبياته فى المشورة التى يقولها فى هذه القصيدة مأخوذة من نصيحة القاها عبد الله بن حسن على ولده ابراهيم هذا .. وهى « أى بنى ! إنى مؤد حق الله فى تأديبك فأد الى حق الله فى الاستماع منى ، أى بنى ! كف الأذى وارفض البذى واستعن على الكلام بطول الفكر فى المواطن التي تدعوك فيها نفسك

للكلام فان للقول ساعات يضر فيها الخطأ ولا ينفع الصواب — واحذر مشورة الجاهل وان كان ناصحا كما تحذر مصورة العاقل اذا كان غاشا لأنه يرديك بمشورته ، واعلم يا بنى أن رأيك اذا احتجت اليه وجدته نائما ووجدت هواك يقظان فاياك أن تستبد برأيك فانه حينئذ هواك — ولا تفعل فعلا إلا وأنت على يقين ان عاقبته لاترديك وان نتيجته لا تجنى عليك »

وكان الناس اذ ذاك يتدارسون هذه الوصية البليغة فى مجالس الادب واذا قلنا أن أبياته مأخوذة عن هذه النصيحة فهو بتصرف وليس هذا بغريب على شاعر كبشار يسعى جهده للتأثير على سامعه بشعره ، وهل هنا وسيلة — خصوصا فى مثل هذا الموقف — أقوى وأفعل من أن يعيد على مسامع ممدوحه كلمة حكيمة سمعها قبل ذلك فيتضاعف أثرها فى نفسه بما أدخل عليها الشاعر من بسط وتوسع واحكام وجمال ! ؟ ؟

نعم ! وليس هذا بغريب على شاعر يضمن شعره كل معنى غريب يسمعه فيستحسنه ، فهو الذى سئل عند ما أنشد هذه الأبيات :

كأن فؤاده كرة تنزى ... حذار البين ! إن نفع الحذار
يروعه السرار بكل أمر ... مخافة أن يكون به السرار
كأن جفونه سملت بشوك ... فليس لنومه فيها قرار
جفت عينى عن التغميض حتى ... كأن جفونها عنها قصار

أقول-وليلتى تزداد طولا-   أما لليل بعدهم نهار ! ؟

من أين أخذت قولك « يروعه السرار . . » ؟ فقال من قول أشعب الطماع حينما سئل ، ما الذى بلغ من طمعك ؟ قال ما رأيت اثنين يتساران إلا ظننتهما يأمران لى بشىء ! ! (١)

وأعجب بشار بقول عبد الله بن حسن في نصيحته « واحذر مشورة الجاهل وان كان ناصحا كما تحذر مشورة العاقل اذا كان غاشا لانه يرديك بمشورته » فضمنه بيتين آخرين له - قال :

وما كل ذى لب بمؤتيك نصحه   ولا كل مؤت نصحه بلبيب

---

(١) السرار المسارة - ضد الجهر - قال شداد العبسى :

ألا أبلغ بنى العشراء عنى   علانية ! وما يغنى السرار

ولما نزلت الآية « يا أيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى » قال أبو بكر . والله يارسول الله لا أكلمك بعدها إلا - كأخى السرار !

وقد أوضح أبو نواس هذا المعنى فى قوله :

تركتنى الوشاة نصب المرء   يين وأحدوثة بكل مكان
ما أرى خاليين فى الناس الا   قلت ما يخلوان إلا بشانى

ورواها صاحب الاغانى - قال - أنشد بشار قوله :

يروعه السرار بكل أمر   مخافة أن يكون به السرار

فقال له رجل أظنك أخذت هذا من قول أشعب « مارأيت اثنين يتساران إلا ظننت أنهما يأمران لى بشىء » فقال إن كنت أخذت هذا من قول أشعب فانك أخذت ثقل الروح والمقت من الناس جميعا فانفردت به دونهم ! ثم قام فدخل منزله .

ولكن - استجمعا - فى يدامرىء ... لحق له من طاعة بنصيب

وها هى القصيدة التى أرسلها الى ابراهيم :

أبا جعفر ! ما طول عيش بدائم ... ولا سالم - عما قليل - بسالم
على الملك الجبار ! يقتحم الردى ... ويصرعه فى المأذق المتلاحم
كأنك لم تسمع بقتل متوج ... عظيم ! ولم تسمع بفتك الاعاجم
تقسم كسرى رهطه بسيوفهم ... وأمسى « أبو العباس » أحلام نائم
وقد كان لايخشى انقلاب مكيدة ... ولا جرى أيام النحوس الاشائم
مقيما على اللذات حتى بدت له ... وجوه المنايا حاسرات العمائم
ومروان قد دارت على رأسه الرحى ... وكان - لما أجرمت - نزر الجرائم
وأصبحت تجرى سادراً فى طريقهم ... ولا تتقى أشباه تلك النقائم
وقد ترد الايام غرا ! وربما ... وردن كلوحا باديات الشكائم
تجردت للاسلام تعفو طريقه ... وتعرى مطاه لليوث الضراغم
فمازلت حتى استنصر الدين أهله ... عليك ! فعاذوا بالسيوف الصوارم
فرم وزراً ينجيك يا ابن سلامة ... فلست بناج من مضيم وضائم
لحى الله قوما رأسوك عليهم ... ومازلت مرؤوسا خبيث المطاعم

☆☆☆

أقول — لبسام عليه جلالة ... غدا أريحيا عاشقا للمكارم
من الفاطميين الدعاة إلى الهدى ... جهاراً ! ومن يهديك مثل ابن فاطم ؟
سراج لعين المستضىء ! وتارة ... يكون ظلاما للعدو المزاحم — :

إذا بلغ الرأى المشورة فاستعن ... بحزب نصيح . أو نصية حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فريش الخوافى قوة للقوادم
وما خير كف أمسك الغل أختها ... وما خير سيف لم يؤيد بقائم !؟
وخلّ الهوينا للضعيف ولا تكن ... نؤوما ! فان الحزم ليس بنائم
وانك لا تستطرد الهم بالمنى ... ولا تبلغ العليا بغير المكارم
وما قرع الاقوام مثل مشيع ... أريب ! ولا جلى العمى مثل عالم
إذا كنت فرداً هرك القوم مقبلا ... وان كنت أوفى لم تفز بالعزائم
فأدن على القربى المقرب نفسه ... ولا تشهد الشورى امرأ غير كاتم
وحارب إذا لم تعط الا ظلامة ... شبا الحرب خير من قبول المظالم(١)

وهنا بأس إذا ذكرنا قتل ابراهيم تفصيلا . وهو التطويل

---

(١) ترى انه قسم القصيدة قسمين ! الاول فى تهديد أبي جعفر وذمه . والثانى فى نصح ابراهيم ومدحه . وفى القسم الاول يحذر المنصور مصرع كسرى ومقتل أبى العباس وهو الوليد بن يزيد الفاسق ، قال العجاج يمدحه

قد علم القدوس مولى القدس

أن « أبا العباس » أولى نفس ... بمعدن الملك العظيم الكرس

وكفى بشار فخرا أن النقاد فضلوا ميميته هذه على ميميتى جرير والفرزدق زد على ذلك اعجاب الناس الى اليوم بأبياته فى المشورة مما يدل على خلودها ضمن التراث الادبى . وقديما أبدى له الاصمعى اعجابه الشديد وقال . يا أبامعاذ ان الناس يعجبون بابياتك فى المشورة ! فقال يا أبا سعيد إن المشاور بين صواب يفوز بثمرته أو خطأ يشارك فى مكروهه ! . فقال الاصمعى والله لأنت فى قولك هذا أشعر منك فى شعرك .

والخروج عن الموضوع مما يعتبر اعتداء على حقوق « بشار » فى هذا الكتاب . ومن أراد ذلك فليطلبه فى مظانه وليقرأ تلك القطعة الادبية الحية التى رواها المفضل الضبى !.. وكل ما نقوله الآن أن ابراهيم بعد ان استولى على البصرة نائبا عن أخيه محمد فى مبايعة الناس سار قاصداً الكوفة . فلما كان بمكان يقال له باخَمْرَى أتاه نعىُ أخيه . وقصده عيسي بن موسى بعساكر المنصور . فأتى ابراهيم سهم عائر فى صدغه فقتله . وذلك فى ذى القعدة من تلك السنة ! سنة ١٤٥ !!

عندئذ خاف بشار وملأه الرعب من المنصور لظنه أن القصيدة قد قرئت على ابراهيم وروتها الرواة . ولكن قصيدته التى بعث بها لم تصل إلى ابراهيم حتى قتل — كما يقول صاحب الاغانى — والذى يجعلنا نرجح أن القصيدة بعث بها اليه من الكوفة أنه لم يرسلها إلا فى المدة الأخيرة عند ماقصد ابراهيم الكوفة فادركه الرسول وقد قتل . وأراد بشار أن يستقبله بها قبل دخوله الكوفة فجاء الأمر على غير ما يريد . ويؤيد مقام بشار بالكوفة أثناء نفيه ما رويناه من تنادر الكوفيين على عشقه عند الكلام على « غزله » !..

قلنا أن بشاراً امتلأ رعبا عند ما قتل ابراهيم . والقصيدة ان لم تروها الرواة فلا يبعد أن يكون بعض أصدقائه قد اطلع عليها . لذلك حوّر القصيدة وأظهر انه قالها فى أبى مسلم الخراسانى سنة ١٣٧ قبل هذا الكلام بنحو ثمانية سنوات . فقلب البيت الأول وجعل عوض

« أبا جعفر » .. « ابا مسلم » وغير « يا ابن سلامة » وهى أم المنصور بقوله « يا ابن وشيكة » وهى أم أبى مسلم ! وحذف البيت الذى أوله « من الفاطميين .... » وان قلنا ان بشاراً لم يطلع أحداً على القصيدة الا راويته أو رسوله الى ابراهيم . وأنه علم أن قصيدته لم تصل فكان مطمئن الفؤاد غير خائف ولا فزع . فما معنى تحويره للقصيدة !؟؟ معناها ذلك الحب الشديد والعشق والكلف الذى يشعر به الفنان نحو أثره الفنى فلا يرتاح إلا أن يظهره وينسب اليه !!

وفى ذى الحجة من تلك السنة ! سنة ١٤٥ توفى عمرو بن عبيد ابن باب المعتزلى — القائل فيه المنصور :

كلكم خاتل صيدْ كلكم يمشى رويدْ

غير عمرو بن عبيد

الذى نفى بشاراً من البصرة . فرجع بشار إلى موطنه الذى حرم منه تلك السنين الطوال . وأقام مدة يمدح ولاة المنصور على البصرة حتى سنة ١٥٥ ثم لا نسمع له بموقف مع وال من ولاة البصرة ! فيفهم من ذلك أنه فى تلك السنة أو فى التى تليها ارتحل إلى « بغداد » حاضرة الدولة إذ ذاك . فحضر أواخر أيام المنصور !!

ونرجح أن المنصور إلى أن مات لم يعرف أن بشاراً هجاه ومدح خصمه ابراهيم . ولو علم لأهدر دمه فالمنصور هو من نعرفه !! ونحن الآن أمام أمرين . إما أن المنصور لم يسمع هذه القصيدة

لا محورة ولا غير محورة كما أنه لم يسمع قصيدة عبدالله بن مصعب التى لم تعرف إلا أيام الرشيد . وأما انه سمعها محورة فجعل بشاراً من المقربين . لأن القصيدة بعد تحويرها تنطبق تمام الانطباق على حالة المنصور وقتها ازاء أبى مسلم . خصوصا أبياته فى المشورة . فان المنصور لما هم بقتله سقط بين الاستبداد برأيه والمشاورة فيه حتى أرق ليله كله . ثم دعا باسحق بن مسلم العقيلى فأشار عليه بما أشار — وهذا ما نرجحه — فهناك نص أدبى وثيق على ذلك الاتصال

نفهم أن بشاراً بحسن دهائه صار من حاشية المنصور المقربين واستخلص العطايا من تلك اليد المتشنجة وهز أريحية ذلك « الدوانيق » الشحيح !..

وقبل إيراد ذلك النص تقدم إلى القارىء بمقدمة لا بد منها ، ذلك أنه بعد سقوط الدولة الأموية حج المنصور أربع حجات مشهورات — وان ذكر بعض المؤرخين أكثر من ذلك — الأولى سنة ١٣٦ وفيها مات السفاح وبويع له بالخلافة . الثانية سنة ١٤٠ وهى التى حبس فيها عبدالله بن حسن . الثالثة سنة ١٤٤ وفيها عذب آل الحسن ابن على . الرابعة سنة ١٥٨ وفيها مات محرما !.. ولما كنا نعرف أن بشاراً لم يتوطن بغداد إلا فى أواخر أيام المنصور وأنه حتى سنة ١٥٥ أى بعد حجة المنصور الثالثة كان مقيما بالبصرة . لذلك نؤكد أن هذه الحادثة التى يرويها صاحب الأغانى انما وقعت فى حجة المنصور

الرابعة سنة ١٥٨ — قال — : «حج المنصور فاستُقبِل بالرضم الذى بين زبالة والشقوق . فلما رحل من الشقوق رحل فى وقت الهاجرة فلم يركب القبة وركب نجيبا وسار بين القوم . فجعلت الشمس تضحك بين عينيه . فقال انى قائل بيتا من أجازه وهبت له جبتى هذه — قال

وهاجرة نصبت لها جبينى   يقطع حرها ظهر المعطايه

فبدر بشار قائلا

وقفت بها القلوص ففاض دمعى   على خدى ! وأقصر واعظايه

فنزع الجبة وهو راكب ودفعها اليه» . . قال أحدهم فسألت بشاراً بعد ذلك عما فعل بالجبة . فقال بعتها والله ! ! باربعمائة دينار ! ! ! !

ولا يبعد أن يكون بشار زيادة على تحويره لهذه القصيدة التى صادفت هوى في نفس المنصور قد مدحه أيضا بمدائح كثيرة — لم تصلنا — حتى أنه نال هذه المكانة عنده !

بشار وعقبة بن سَلْم بن نافع الأزدى :

عقبة بن سلم أمير من أمراء الدولة العباسية وقائد من مشاهير قوادها . وهو من بنى هُناءة من الازد . وصاحب «دار عقبة» بالبصرة — سابقا طبعا — وكان السبب فى رفعته وعلو شأنه ما قام به من أعمال التجسس فى ثورة ابنى عبد الله بن حسن . فكان هو السيف

المصلت الذى شهره المنصور على رأس عبد الله بن حسن ! . . واليك مارواه عقبة عن نفسه — قال : دعانى أبو جعفر فسألنى عن اسمى ونسبى فاخبرته . فقال انى أرى لك هيئة وموضعا وإنى أريدك لأمر أنا به معنىّ لم أزل أرتاد له رجلا عسى أن تكونه — ان كفيتنيه رفعتك — فقلت أرجو أن أصدق ظن أمير المؤمنين فىّ ! قال فاخف شخصك واستر أمرك وأتنى فى يوم كذا — فأتيته — فقال ان بنى عمنا هؤلاء قد أبوا الا كيداً لملكنا . ولهم شيعة بخراسان بقرية كذا يكاتبونهم ويرسلون اليهم بصدقات أموالهم ! وألطاف من ألطاف بلادهم ! فاخرج بكسى والطاف وعين حتى تأتيهم متنكراً بكتاب تكتبه عن أهل هذه القرية . ثم تسير ناحيتهم . فان كانوا قد نزعوا عن رأيهم فاحبب بهم والله وأقرب . وان كانوا على رأيهم علمت ذلك وكنت على حذر واحتراس ! !فاشخص حتى تلقى عبد الله بن حسن متقشفامتخشعا . فان جبهك — وهو فاعل — فاصبر وعاود . فان عاد فاصبر حتى يأنس بك وتلين لك ناحيته . فان ظهر لك مافى قلبه فاعجل إلىّ ...

فشخص عقبة حتى قدم على عبدالله بن حسن بالكتاب . فانكره ونهره وقال ما أعرف هؤلاء القوم . فلم يزل ينصرف ويعود إليه حتى قبل كتابه والطافه وأنس به . فسأله عقبة الجواب . فقال أما الكتاب فانى لا أكتب إلى أحد ولكن أنت كتابى اليهم . فأقر

أهم السلام وأخبرهم أن ابنى خارجان لوقت كذا وكذا — فرجع عقبة إلى أبى جعفر وأخبره الخبر !!!!

فأسرع المنصور بالحج سنة ١٤٠ وأقبل حتى نزل المدينة . ثم أخذ معه عبد الله بن حسن متوجها إلى مكة . فلما كان باوطاس نزل يتغدى ومعه على مائدته عبد الله بن حسن وأبو الكرام الجعفرى وجماعة من بنى العباس . فاقبل على عبد الله بن حسن وقال يا أبا محمد!! محمد وابراهيم أراهما قد استوحشا من ناحيتى وإنى لأحب ان يأنسا بى وأن يأتيانى فاصلهما واخلطهما بنفسى . فاطرق عبد الله طويلا ثم رفع رأسه وقال « وحقك يا أمير المؤمنين مالى بهما ولا بموضعهما من البلاد علم ! ولقد خرجا من يدى فقال أبو جعفر لا تفعل يا أبا محمد ! أكتب اليهما أو إلى من يوصل كتابك اليهما !. وامتنع أبو جعفر ذلك اليوم من عامة غدائه إقبالا على عبد الله . وعبد الله يحلف أنه لا يعرف موضعهما . وأبو جعفر يكرر عليه « لا تفعل يا أبا محمد».. وكان قد قال لعقبة بن سلم ! إذا صرت بمكان كذا فانى داع بالغداء . فاذا فرغنا من طعامنا لحظتك ! فامثل بين يديه قائما فانه سيصرف بصره عنك . فدر حتى تغمز ظهره بابهام رجلك حتى يملأ عينيه منك . ثم حسبك !! واياك أن يراك مادام يأكل ...

ففعل عقبة ما أمر به . فلما رآه عبد الله وثب حتى جثا بين يدى أبى جعفر وقال اقلنى يا أمير المؤمنين أقالك الله . قال لا اقالنى الله

ان اقلتك . ثم أمر بحبسه فى الهاشمية كما تقدم .

فكانت مكافأة عقبة على خدماته ولاية البصرة موطن «بشار ابن برد» وليها سنة ١٥٠ وقد كان أول من ولى البصرة «سليمان بن على» سنة ١٣٣ ثم عزل عنها سنة ١٣٩ فوليها سفيان بن معاوية — الذى سقطت البصرة فى عهده فى يد ابراهيم العلوى — ثم سلم بن قتيبة ثم محمد بن سليمان بن على . ثم ولى المنصور محمد بن أبى العباس السفاح سنة ١٤٧ إلى ان استعفى منها فاعفاه — أو عزله المنصور على أحد القولين فانصرف الى بغداد واستخلف بالبصرة نخبة بن سالم فأقره المنصور عليها إلى أن كانت سنة ١٥٠ فولى عقبة بن سلم . وكان بشار قد رجع إلى البصرة فى أول سنة ١٤٦ فاتصل به ومدحه بقوله :

لا ابالى صفح اللئيم ! ولا تجـ ــرى دموعى على حرون الصفاء
يسقط الطير حيث ينتثر الحـ ـبّ ! وتغشى منازل الكرماء

***

حرم الله أن ترى كابن سلم عقبة الخير مطعم الفقراء
مالكىّ تنشق عن وجهه الحر ب كما انشقت الدجى عن ضياء
كغمام السماء فيض يديه لغريب ونازح الدار نائى
إنما لذة الجواد ابن سلم فى عطاء ! ومركب للقاء
ليس يعطيك للرجاء ولا الـ ـخوف ! ولكن يلذ طعم العطاء

لا ! ولا أن يقال شيمته الجو　　د ! ولكن طبائع الآباء
فعلى عقبة السلام مقيما　　وإذا سار تحت ظل اللواء

فوصله عقبة بعشرة آلاف درهم !!

وكانت لعقبة مجالسه الأدبية فمن ذلك أنه دعا بشاراً وحماداً — وذلك قبل مهاجاتهما فانها بدأت سنة ١٥١ — وأعشى باهلة . فلما اجتمعوا عنده ؛ قال لهم . انه خطر ببالى البارحة مثل يتمثل الناس « ذهب الهِقْل يطلب قرنين فرجع بلاأذنين » فأخرجوه شعراً . ومن أخرجه فله خمسة آلاف درهم !! فقال حماد أجلنا — أعز الله الأمير — شهراً . وقال الاعشى أجلنا اسبوعين ... أما بشار فظل سا كتا لا يتكلم . فقال له عقبة مالك لا تتكلم أعمى الله قلبك !؟ قال — اصلح الله الأمير — حضرنى شىء فان أمرت قلته . قال قل . فقال :

شط بسلمى عاجل البين　　وجاورت « أسد بنى القين »
فرنت النفس لها رنة　　كادت — لها — تنشق نصفين
يا ابنة من لا اشتهى ذكره　　أخشى عليك علق . الشين
والله ! لو ألقاك — لا أتقى　　عينا — لقبلتك ألفين !!
طالبتها دينى فراغت به　　وعلقت قلبى مع الدين
فصرت كالهقل غدا طالبا　　قرنا ! فلم يرجع بأذنين

فانظر الى حضور بديهة هذا الرجل ! .. وقد انصرف دونهما

بالجائزة . وهذا المثل يروى على صورة أخرى فيقولون « ذهب العير يطلب قرنين . . . الخ » ولكن هذا ليس له معنى وماذكرناه أصح . فالهقل هو الظليم ذكر النعام وتسميه عامة السودان « الهِضليم » والاساطير العربية تعالل صلم النعام بحكاية تقول فيها أنه ذهب يطلب قرنين ففقد أذنيه . وجعلوه مثلا للانسان يطلب شيئا فلا يدركه ويفقد زيادة على ذلك شيئا يملكه !!

وجاء « أبو الشمقمق » الشاعر إلى بشار يشكو اليه ضيقه ويحلف له أنه ماعنده شيء . فقال له بشار . والله ما عندى شيء يغنيك . ولكن قم معى إلى « عقبة بن سلم » فقام معه . فذكر له أبا الشمقمق وقال هو شاعر وله شكر وثناء — كذا يقول صاحب الأغانى — فأمر له عقبة بخمسمائة درهم فقال بشار

يا واحد العرب الذى أمسي وليس له نظير
لو كان مثلك ثانيا ما كان في الدنيا فقير (١)

---

(١) وهذان البيتان تمثل بهما بشار ليس إلا . أما قائلهما فابن المولى يمدح بهما يزيد بن حاتم المهلبي من قصيدة له . وقد أكثر ابن المولى فى أشعاره من ترديد قوله « ياواحد العرب » فيقول أيضا فى يزيد لما كان واليا على مصر :

يا « واحد العرب » الذى دانت له قحطان قاطبة ! وساد نزارا
انى لأرجو ان لقيتك سالماً الا أعالج بعدك الاسفارا

ويقول :

وإذا تباع كريمة أو تشترى فسواك بائعها وأنت المشترى
يا « واحدالعرب » الذى مالن لهم من مذهب عنه ولا من مقصر

فأمر لبشار بألفى درهم . فقال أبو الشمقمق نفعتنا ونفعناك يا أبا معاذ فجعل بشار يضحك

ومما يؤثر من أخلاق عقبة غيرته الشديدة . فقد رووا أن « خليلان الأموى » كان يتغنى ويرى ذلك زائداً فى الفتوة . وكان

وكان أبو الشمقمق من بؤساء الشعراء ومن المتشائمين كابن الرومى . فكان بشار يعطيه فى كل سنة مائتى درهم . فأتى بشاراً فى بعض السنين وقال له . هلم الجزية يا أبا معاذ !! قال ويحك أجزية هى ؟؟ قال هو ماتسمع . فقال بشار يمازحه . أنت أفصح منى ؟ قال لا ! قال فأعلم منى بمثالب الناس ؟ قال لا ! فأشعر منى ؟ قال لا ! قال فلم أعطيك ؟ ؟ قال لئلا اهجوك ! فقال ان هجوتنى هجوتك . فقال أبو الشمقمق هكذا هو !؟ قال نعم فقل ما بدالك !! فقال أبو الشمقمق :

إنى إذا ما شاعر هجانيه   ولج فى القول له لسانيه
ادخلته فى است أمه علانيه   بشار يا بشار !!.......

وأراد أن يقول « يا ابن الزانية » فوثب بشار فأمسك فاه وقال أراد والله أن يشتمنى !! ثم دفع اليه مائتى درهم وقال له . لا يسمعن هذا منك الصبيان يا أبا الشمقمق .

وبلغ أبا الشمقمق مرة ان عقبة بن سلم الازدى أمر لبشار بعشرة آلاف درهم . فوافى بشاراً وقال له يا أبامعاذانى مررت بصبيان فسمعتهم ينشدون :

هللينه هللينه   طعن فتاة لتينه
ان بشار بن برد   تيس أعمى فى سفينه

فأخرج اليه بشار مائتى درهم وقال : خذ هذه ولا تكن رواية الصبيان يا أبا الشمقمق !!!!

شريفا ذا نعمة واسعة. فحضر يوما منزل عقبة وهو إذ ذاك أمير البصرة. فلما طعما وخلوا نظر خليلان إلى عود موضوع فى جانب البيت فعلم أنه عرّض له به. فأخذه وتغنى بقول عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق:

بابنة «الازدى» قلبى كئيب ... مستهام عندها ما يؤوب
ولقد لاموا فقلت دعونى ... ان من تلحون فيه حبيب
انما أبلى عظامى وجسمى ... حبها ! والحب شىء عجيب !!
أيها العائب عندى هواها ... أنت تغدى من أراك تعيب

فجعل وجه عقبة يتغير وخليلان فى سهو عما فيه عقبة. ثم فطن لتغير وجهه وعلم أنه لما تغنى به. فقطع الصوت وجعل مكانه قول قيس الرقيات:

الا هزئت بنا قرشـ ... ـية يهتز موكبها

فسرى عن عقبة !! ولما انقضى الصوت وضع خليلان العود وحلفَ ألا يغنى عند من يجوز أمره عليه أبدا !.. أما تغير وجه عقبة فلقوله «بابنة الازدى» وهو أزدى كما هو معروف.

وفى سنة ١٥١ سار عقبة من البصرة إلى البحرين فقتل الثائر «سليمان بن حكيم العبدى» الذى يشير اليه بشار فى ارجوزته بقوله:

«وابن حكيم» إذ أتاك يردى ... أصم لا يسمع صوت الرعد

وسبى عقبة أهل البحرين فانفذ السبي والاسارى إلى لمنصور . فقتل بعضهم ووهب الباقين للمهدى فاطلقهم وكساهم . ثم عزل المنصور عقبة عن البصرة لأنه كما يقول « لم يستقص على أهل البحرين » وولى جابر بن توبة الكلابى وذلك في آخر تلك السنة !!

ولما سار عقبة للبحرين استخلف على البصرة ولده « نافع بن عقبة بن سلم بن نافع الازدى » فمكث واليا أشهراً كما يقول بشار — وكما يقول التاريخ — فقال بشار يمدحه :

يانافع السبرات (١) حين تناوحت ... هوج الرياح وأعقبت بوبول
اشبهت عقبة ! غير ما متشبه ! ... ونشأت فى حلم وحسن قبول
تدعى هلالا فى الزمان ، ونافعا ... في السلم ! نعم أبوة المأمول
وليت فينا « أشهراً » . فكفيتنا ... عنت المريب وسلة التضليل
ولنافع فضل على اكفائه ... أن الكريم أحق بالتفضيل

---

(١) السبرات جمع سبرة وهي الغداة الباردة . ويريد بالسبرات أيام الشتاء حين يعم الجدب والقحط عندهم . ومعنى قوله « يانافع السبرات » ياصاحب النفع أيام الشتاء المجدبة ! .. قال العمانى الراجز يمدح أبا الحر التميمى

أن أبا الحر لعين الحر ... يدفع عنا « سبرات القر »

والذى يؤسفنا عندما نقرأ شعر بشار مانشعر به من النقص الماثل فى مجموع القصيدة كما تراه ماثلا أمامك فى هذه الأبيات وغيرها مما تقدم ومما سيأتى !

« ومنها يصف فرسا »

وإذا المعطى سبحن فى اعطافه ... فات المعطىّ بكاهل وتليل
فكأنه والناعجات يردنه ... قدح يطلّع من قداح مجيل

فأعطاه مثلما كان أبوه يعطيه إذا وفد عليه !!

ومن جراء المنافسات فى صلات نافع بن عقبة كانت المهاجاة بين بشار وحماد عجرد وسنوردها فيما بعد !!!

ولما رجع عقبة من غزوته لأهل البحرين وقتل الثائر ابن حكيم العبدى دخلت عليه الناس تهنئه . فدخل لبشار وأنشده شعراً يمدحه به . وكان بالمجلس « عقبة بن رؤبة بن العجاج » فقام وامتدح الامير بارجوزة . ثم أقبل على بشار وقال . هذا طراز لا تحسنه يا أبا معاذ !!

فقال بشار والله لأنا أرجز منك ومن أبيك ! .. ثم غدا على « عقبة بن سلم الازدى » من الغد وأنشده هذه الأرجوزة :

ياطلل الحىّ ! بذات الصمد ... بالله ! خبر كيف كنت بعدى

أوحشت من دعد وترب دعد

سقيا لأسماء ابنة الأشد ... قامت تراءى إذ رأتنى وحدى
كالشمس تحت الزبرج المنقد ... صدّت بخد وجلت عن خد
ثم انثنت كالنفس المرتد ... عهدى بها — سيقاله من عهد !
تخلف وعداً وتفى بوعد ... فنحن من جهد الهوى فى جهد

***

وافق حظا من سعى بجد ... ما ضرّ أهل النوك ضعف الجد
الحر يلحى والعصا للعبد ... وليس للملحف مثل الرد
والنصف يكفيك من التعدى

وصاحب كالدمل الممد ... حملته فى رقعة من جلدى
أرقب منه مثل يوم الورد ... حتى مضى ! غير فقيد الفقد
وما درى ما رغبتى من زهدى

وزاهر من سبط وجعد ... أهدى له الدهر ولم يستهد
أفواف نور الحبر المجد ... يلقى الضحى ريحانه بسجد
بدلت من ذاك بكا لا يجدى

***

أسلم وحييت « أبا الملد » ... مفتاح باب الحدث المنسد
مشترك النيل ورىّ الزند ... أغر ! لباس ثياب الحمد
لم يكن لى منك غير الود ... ثم ثناء مثل ريح الورد
نسجته من محكمات الند ... فالبس طرازى غير مسترد
لله ! أيامك فى معد ... وفى بنى قحطان ! غير عدّ !!
يوماه بذى طِخْفة » عند الحد ... ومثله أودعت أرض الهند
بالمرهفات والحديد السرد ... والمقربات المسعدات الجرد
إذا الحيا أكدى ـ بها لا تكدى ... تلحم أمراً وأموراً تسدى
«وابن حكيم» إذا أتاك بردى ... أصم لا يسمع صوت الرعد

حبيته بتحفة المعد فانهد مثل الجبل المنهد

كل امرىء رهن بما يؤدى

ورب ذى تاج كريم الجد كآل كسرى وكآل «برد»

انكب جاف عن سبيل القصد فصلته عن ماله والولد !!

ولما سمع ابن رؤبة ما فى الارجوزة من الغريب . قال : أنا وأبى وجدي فتحنا الغريب للناس، و إنى جدير أن أسده عليهم . فقال بشار أرحمهم يرحمك الله ! قال . أتستخف بى وأنا شاعر بن شاعر بن شاعر فقال بشار : إذن أنت من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً !؟ فضحك كل من حضر . وقام ابن رؤبة فخرج من المجلس بخزى وهرب من تحت ليلته ولم يعد !..

وقد صدق ابن رؤبة فى أن أباه وجده — وربما كان ثالثهما — فتحا باب الغريب للناس . وخلقا الفاظا لم يسبقا اليها . قال ابن جنى فى الخصائص «إن العربى إذا قويت فصاحته وسمت طبيعته . تصرف وارتجل مالم يسبق اليه . فقد حكى رؤبة وأبيه أنهما كانا يرتجلان الفاظا لم يسمعاها ولا سبقا اليها» . . .

وقال الجاحظ — تعليقا على المصادمة بين بشار وابن رؤبة — . فانظر الى سوء أدب عقبة بن رؤبة وقد أجمل بشار محضره وعشرته فقابله بهذه المقابلة القبيحة . وكان أبوه أعلم خلق الله به لأنه قال له وقد فاخره بشعره «أنت يابنى ذهبان الشعر . إذا مت مات معك شعرك فلا يوجد

من يرويه بعدك » فكان ماقاله له .. لا يعرف له بيت واحد ولا خبر غير هذا الخبر القبيح الاخبار عنه الدال على سخفه وسقوط أدبه .

وصار مركز عقبة بن سلم فى اليمن كمركز معن بن زائدة فى ربيعة وتساوت مكانتهما بين قوميهما . فلما أراد المنصور أن يقطع الحلف الذى بين ربيعة واليمن لم يجدسواهما . فقلد عقبة اليمامة والبحرين والبصرة — كما تقدم — وقلد معناً اليمن وبسط أيديهما فى القتل وأخذ الاموال فاسرع كل واحد منهما فى قوم صاحبه وصارت بينهما الطوائل وانقطع الحلف . وفى تلك الأثناء أرسل معن الى عقبة « كف حتى اكف » فكتب اليه عقبة « لا والله ! أو نعلم أبنا نسبق زوامله الى النار » وكان عقبة ظالماهيبا . وقد أسرف فى قتل أهل البحرين وقتل رئيسهم « سليمان ابن حكيم العبدى » كما تقدم . حتى صمموا على اغتياله فاغتاله عبدى منهم فى المسجد الجامع بأن وجاه بسكين معه . فيقال ان الوجاة وقعت فى شرجة منطقة عقبة . فجعل المهدى يسأل العبدى ويحقق معه والعبد يبكى الى أن دخل داخل فقال يا أمير المؤمنين مات عقبة » فضحك العبدى . فقال له المهدى مم كنت تبكى ؟ قال من خوف ان يعيش . فلما مات أيقنت أنى أدركت ثارى . فضرب به المثل وقيل « أجرأ من قاتل عقبة » وقال المهدى : لولا أن تجترىء الناس على القواد لأطلقته . . . ثم أمر بقتله فقتل !!

بشار وعمر بن حفص بن عثمان بن قبيصة بن أبى صفرة :

عمر بن حفص كما ترى من ولد قبيصة بن ابى صفرة وليس من ولد المهلب !! وكان قائداً شجاعا أيداً : ويلقب « هزارمرد » أى الف رجل . وهذا اللقب لصق به عند ما ولى السند عام ١٤٢ أطلقه عليه أهلها لقوته وصلابة عضلاته !

ثم عزله المنصور من السند . وسبب ذلك أنه كان يتشيع للعلويين فبايع محمداً بن عبد الله بن حسن . ووجه اليه محمد ابنه « عبد الله بن محمد » المعروف بالاشتر — ومعه جماعة من الشيعة — فمر الاشتر على البصرة واشترى منها خيلا عتاقا لتكون سبب وصولهم الى عمر بصفتهم تجار خيول . ثم ساروا فى البحر الى السند . فامرهم عمر أن يحضروا خيلهم ليشترى منها . فقال له بعضهم إنا جئناك بما هو خير من الخيل وبمالك فيه خير الدنيا والآخرة . فاعطنا الأمان ! إما قبلت منا واما سترت وأمسكت عن أذانا حتى نخرج عن بلادك . فأمنه . فذكر له حالهم وحال عبد الله الاشتر وان أباه أرسله اليه لينهض ويبايع له في السند . فرحب بهم وبايعهم وأنزل الاشتر عنده مختفيا . ودعا كبراء أهل البلد وقواده وأهل بيته الى البيعة . فأجابوه . فقطع الويتهم البيض وهيأ لبسه من البياض ليخطب فيه — وهو شعار العلوية — وتهيأ لذلك يوم الخميس . وقبل الميعاد وصله رسول من امراته تخبره بقتل

محمد بن عبدالله بن الحسن بالمدينة . فدخل على الاشتر فأخبره وعزاه
فقال له الاشتر ان امرى قد ظهر ودمى فى عنقك . قال عمر « قدرأيت
رأيا . . . ههنا ملك من ملوك السند عظيم الشان . أشد الناس تعظيما
لرسول الله . وهو وفى . أرسل اليه فاعقد بينك وبينه عقد . وتتوجه
اليه فلا ترام معه » ففعل ذلك وسار اليه الاشتر ، فأكرمه وأظهر
بره . وتسللت الى الاشتر الشيعة حتى اجتمع معه أربعمائة انسان من
أهل البصائر . فكان يركب فيهم ويتصيد فى هيئة الملوك . فلما انتهى
ذلك الى المنصور بلغ منه مابلغ . وكتب الى عمر بن حفص يخبره مابلغه
فقراه على أهله وقال لهم . إن أقررت بالقصة عزلنى فان صرت اليه
قتلنى . وان امتنعت حاربنى . فقال له رجل منهم « الق الذنب على
وخذنى وقيدنى . فانه سيكتب فى حملى اليه فاحملنى . فانه لايقدم على
لمكانك فى السند وحال أهل بيتك بالبصرة » فقال عمر أخاف عليك
خلاف ماتظن . فقال إن قتلت فنفسى فداء لنفسك (تأمل !) فقيده
وحبسه . وكتب الى المنصور بأمره . فكتب اليه المنصور يأمره بحمله
فلما صار اليه ضرب عنقه . ثم فكر فى عزل عمر وتولية أمير خلافه
ففى يوم بعد أن استعرض احدى فرق الجيش استأذن عليه « هشام
ابن عمر التغلبى » . فأدخله . فقال انى لما انصرفت من الموكب لقيتنى
اختى فلانة فرأيت من جمالها وعقلها ودينها ما رضيتها لأمير المؤمنين
فأطرق ثم قال . اخرج يأتك أمرى . فلما خرج قال المنصور لحاجبه

الربيع بن الفضل . لولا قول جرير :

لا تطلبن خؤولة في تغلب   فالزنج أكرم منهم أخوالا

لتزوجت اليه . قل له لو كان حاجة في النكاح لقبلت . فجزاك الله خيرا . وقد وليتك السند فتجهز اليها . وأمره أن يكاتب ذلك الملك بتسليم عبد الله الاشتر . فان سلمه وإلا حاربه . وكتب الى عمر بن حفص بولاية افريقية . وذلك سنة ١٥١ هجرية !

فلما صار هشام التغلبي بالسند احتال حتى قتل عبد الله الاشتر ، وقتل الملك السندى . وكان عبدالله قداتخذ سرارى فاولد واحدة منهم ولداً هو محمد بن عبد الله الذى يقال له « ابن الاشتر » فأخذ هشام السرارى والولد معهن فسيرهن الى المنصور . فسير المنصور الولد الى عامله بالمدينة وكتب معه بصحة نسبه وتسليمه الى أهله .

ورجع عمر بن حفص الى أهله بالبصرة سنة ١٥١ ليتجهز الى افريقية فتوجه اليها وقد قتل الخوارج فيها واليها « الاغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمى » فهدأت الحال بوصوله . ومكث كذلك ثلاث سنوات حتى أمره المنصور ببناء مدينة طبنة . فسافر الى تلك الجهة فثارت الخوارج وحصلت بينهم وبينه عدة مواقع الى أن حصروه بالقيروان وجاءه الخبر بورود المدد مع يزيد بن حاتم المهلبى . فلم ينتظر وخرج الى الخوارج يقاتلهم فقتل سنة ١٥٤ فرثاه بشار — وكان عمر محسنا اليه — فقال :

دمعة على عمر العتكى

ما بال عينك دمعها مسكوب ؟ سهرت ! فأنت بنومها محروب
وكذاك من صحب الحوادث لم يزل تأتي عليه سلامة ونكوب

☆☆☆

إن الرزية لا رزية مثلها يوم «ابن حفص» فى الدماء خضيب
لا يستجيب ! ولا يحير لسانه ولقد يحير لسانه ويجيب
يا أرض ويحك ! أكرميه ! فانه لم يبق «للعتكى» فيك ضريب
أبهى على خشب المنابر قائما يوما ! واحزم إذ تشب حروب

☆☆☆

غلب الغراء على ابن حفص والأسى ان العزاء بمثله مغلوب
إذ قيل أصبح فى المقابر ثاويا «عمر» وشق لواؤه المنصوب
فظللت أندب «سيف آل محمد» عمراً ! وعز هنالك المندوب
فعليك يا عمر السلام ! فاننا باكوك ما هبت صبا وجنوب

بشار وسلم بن قتيبة بن مسلم الباهلى :

أبوه «قتيبة بن مسلم» أشهر من نار على علم . وهو سيد قيس بالبصرة . ولاه حجاج خراسان فى عهد عبد الملك بن مروان بعد أن عزل يزيد بن المهلب واخاه المفضل . ففتح بخارى عنوة والصين صلحا

فى عهد الوليد بن عبد الملك . واشتهر فى تلك الانحاء حتى سمته أهلها « ملك العرب » ثم انتهى أمره بتلك المذبحة الشنيعة التى قتل فيها هو ومعظم أهله . وهى شهيرة فى التاريخ العربى

فكان ممن سلم من أولاد قتيبة من تلك المذبحة « سلم بن قتيبة » فأقام بالرى واشتهر هناك . الى أن انتدبه المنصور لقتال ابراهيم بن عبدالله بن حسن العلوى ضمن من انتدبهم من القواد . ثم ولاه البصرة بعد قتل ابراهيم سنة ١٤٥ فلم يلبث بها إلا قليلا حتى عزل سنة ١٤٦ وسبب ذلك حكاية طريفة رواه الجاحظ . قال : كتب أبو جعفر الى « سلم بن قتيبة » يأمره بهدم دور من خرج مع ابراهيم بن عبد الله ابن حسن من أهل البصرة وعقر نخلهم . فكتب اليه سلم . بأى نبدأ بالدور أم بالنخل ؟؟ فكتب اليه المنصور . أما بعد فانى لو كتبت اليك بافساد ثمرهم لكتبت الى تستأذننى . بأية نبدأ ؟ بالبرنى أم بالشهريز ؟؟ ثم عزله وولى ابن عمه « محمد بن سليمان بن على بن عبدالله بن عباس » سنة ١٤٦ هجرية . ورجع سلم الى الرى وأقام بها الى أن توفى وهناك اتصل به بشار !!

واننا نستغرب هذه الغفلة من رجل مثله اشتهر بالفضل والعلم . وبلغ بذلك مكانة عظيمة عند المنصور حتى استشاره فى مقتل ابى مسلم الخراسانى . فأجابه بهذا الجواب الحصيف « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » فقال له حسبك الله يا أبا أمية !!

وقد امتدحه بشار بقصيدة رائية أكثر فيها من الغريب — كما قال — ولكنا نأسف حيث لم يبق إلا مطلعها:

بكرا صاحبي قبل الهجير إن ذاك النجاح فى التبكير

قال الاصمعى —: كنت أشهد «خلف بن أبى عمرو بن العلاء» وخلفا الاحمر يأتيان بشاراً ويسلمان عليه بغاية التعظيم. ثم يقولان. يا أبا معاذ ما أحدثت؟؟ فيخبرهما وينشدهما ويسألانه ويكتبان عنه متواضعين له حتى يأتى الظهر ثم ينصرفان عنه. فأتياه يوما فقالا له ماهذه القصيدة التى أحدثتها فى «سلم بن قتيبة» قال هى التي بلغتكما! قالا بلغنا انك أكثرت فيها من الغريب. فقال نعم بلغنى أن سلما يتباصر بالغريب فأحببت أن أورد عليه مالا يعرفه — ثم أنشدهما القصيدة حتى فرغ منها — فقال له خلف الأحمر لو قلت يا أبا معاذ مكان «ان ذاك النجاح». «بكرا فالنجاح» كان أحسن! فقال بشار إنى بنيتها أعرابية وحشية فقلت «ان ذاك النجاح» كما يقول الاعراب ولو قلت «بكرا فالنجاح» كان هذا من كلام المولدين ولا يشبه ذلك الكلام ولا يدخل فى معنى القصيدة. فقام خلف وقبله بين عينيه. فقال خلف بن أبي عمرو يمازح بشاراً. لو كان علاثة والدك — أى لو كان عربيا! — يا أبا معاذ لفعلت كما فعل أخى. ولكنك مولى!! فمد بشار يده فضرب بها فخذ خلف وقال:

ارفق بعمرو إذا حركت نسبته فانه عربي من قوارير

ما زال فى كير حداد يردده   حتى بدا عربيا مظلم النور
إن جاز آباؤه الانذال فى مضر   جازت فلوس بخارى فى الدنانير

وكان أبو عمرو بن العلاء يغمز فى نسبه . فقال له خلف بن أبى عمرو أفعلتها يا أبا معاذ ؟؟

وبشار من أبرع الناس فى هجاء الادعياء . بل من أشد الناس عليهم لأن ذلك يخالف مبدأه وهو الافتخار بفارسيته والتعصب لها . فمن ذلك قوله فى بعضهم :

هم قعدوا فانتقوا لهم حسبا   يدخل — بعد العشاء — فى العرب
حتى اذا ما الصباح لاح لهم   بين سوقهم من الذهب
والناس قد أصبحوا صيارفة   أعلم شىء بزائف الذهب

ولما خرج خلف بن أبى عمرو شيعه بشار ببيتين فقال :

إن عمراً فاعرفوه   عربى من زجاج
مظلم النسبة لا يعـ   ـرف الا بالسراج

وأمر « سلم بن قتيبة » لبشار بخمسين ألف درهم على هذه القصيدة الضائعة . فأخرها وكيله عنه ثلاثة أيام . فأمر بشار غلامه أن يكتب على باب سلم :

ما زال ما منيتنى من همى   والوغد غم ! فازح من غمى
إن لم تردحمدى فراقب ذمى

فلما خرج سلم قرأها وقال : هذه من فعلات بشار ! ثم دعى

هذه من فعلات بشار ! ثم دعى قهرمانه وقال له . هل حملت الى بشار ما أمرت به ؟ فقال غدا أحملها اليه . قال لا ! بل زد فيها عشرة الاف وأحملها اليه الساعة . فحملها من وقته !!

فحكى ابنه « سعيد بن قتيبة الباهلي » قال — : لما كتب بشار لابى « ان لم ترد مدحى فراقب ذمى » قال له أبى . يا أبا معاذ هلا استنجحت الحاجة بدون الوعيد . فاذا لم تفعل فتربص ثلاثا وثلاثا . فانى والله ! مارضيت بالوعد حتى سمعت الابرش الكلبي يقول لهشام « يا أمير المؤمنين لا تصنع معروفا حتى تعدنى . فانه لم يأتي منك سبب على غير وعد الاهان قدره وقل مني شكره » فقال له هشام « لئن قلت ذلك لقد قاله سيد أهلك أبو مسلم الخولانى : إن أوقع المعروف فى القلوب وأبرده على الاكباد معروف منتظر بوعد . لايكدره المطل » ..

وسعيد هذا كان عالما بالحديث والعربية . إلا انه كان لا يبذل نفسه للناس . سمع عبد الله بن عوف وطبقته . وسكن خراسان ثم قدم بغداد زمن المأمون فحدث بها وروى عنه ابن الاعرابى . . . هكذا ترجمه السيوطى . وأقوم أنه قدم بغداد قبل المأمون . فله حوادث معروفة مع الهادى والرشيد رحمهم الله أجمعين . ولما توفى سعيد رثاه عبد الصمد بن المعذل بقوله :

كم يتيم جبرته بعد يتم وعديم نعشته بعد عدم
كلما عضت الحوادث نادى رضى الله عن « سعيد بن سلم »

ومع هذا فان باهلة لم تفلت من لسانه · فهجاها عند مهاجاته الشاعر البصرى أبى هشام الباهلى · فقال من قصيدة له :

سبقت بالحب سلمى غيرها ورفيع القوم عندى من سبق

***

وهجان معشر كلهم حمق ! دام لهم ذاك الحمق
ليس من جرم ! ولكن غاظهم شرف العارض قد سد الافق
أنا من خراسان وبيتى فى الذرى ولدى المسعاة فرعى قد سمق
إنى لمن قوم خراسان دارهم كرام ! وغصنى فيهم ناضر بسق

فلما سمع الاصمعى قوله « ولكن غاظهم — شرف العارض قد سد » إغتاظ وقال . ويلى على هذا العبد القن بن القن !

ودخل رجل من ولد « قتيبة بن مسلم الباهلى » الحمام · وكان بشار فيه · فقال له يا أبا معاذ وددت أنك مفتوح البصر لترى استى فتعلم انك كذبت فى قولك ·

إذا أعيتك نسبة باهلى فرفع عنه حاشية الازار
على استاه سادتهم كتاب « موالى عامر » كتبت بنار

فقال بشار : يا ابن أخى ذهب عنك الصواب · انما قلت « على استاه سادتهم » · · · ولست منهم !

وهذان البيتان أيضا مما قاله فى مهاجاته لأبى هشام الباهلى ! وكان أبو هشام قد آذاه كثيراً فما قاله فيه هذان البيتان :

وعبدى فقاعينيك فى الرحم أيره　　فجئت ولم تعلم لعينيك فاقيا
أأمك يا بشار كانت عفيفة ؟　　علىّ إذن أمشى الى البيت حافيا

قيل فلم يزل بشار منذ قال فيه هذين البيتين منكسراً وكان يقول أشد ما هجيت به قول الباهلى !

بشار وخالد البرمكى:

البرامكة اسرة فارسية كان منها ثانى وزير فارس للدولة العباسية وهو « خالد بن برمك » وزير للسفاح بعد « أبى سلمة الخلال » وقد صحب المنصور بعده . وولى له فارس الى سنة ١٥٨ ثم حمل الى بغداد لانه قد انكسرت عليه جملة من المال . فطولب به فاعانه اصدقاؤه . ثم ولى الموصل الى أن مات المنصور . وكان فى الاصل قائداً من قواد أبى مسلم وكان على رأى أبى سلمة فى أن الخلافة يجب أن تكون فى الاسرة العلوية . وبالاختصار كان شيعيا ولكنه اعتصم بالتقية وأحسن سياسته فسلك . . . حتى نال هذه المرتبة . ولم تزل هذه الروح الشيعية فى ابنائه حتي كانت السبب الجوهرى في نكبتهم المعروفة !

ولفظة « برمك » رتبة وراثية خاصة برئيس الكهان بمعبد « نوبهار » ببلخ ، وكانت البرامكة تملك الاراضى التابعة للمعبد . وجدهم برمك هو الذى تولى بناء مدينة بلخ فى عهد أسد بن عبدالله القسرى وكان واليا على خراسان من قبل هشام بن عبدالملك !

وروى الطبرى فى حوادث سنة ٨٦ أن قتيبة بن مسلم الباهلى أقام على بلخ لانتقاضها عليه . فحارب أهلها وسبي فى ضمن ما سباه امرأة برمك نفسه ، فصارت لعبد الله بن مسلم أخى قتيبة . فوقع عليها . ثم أن أهل بلخ صالحوا من الغد . فأمر قتيبة برد السبى . فقالت امرأة برمك لعبد الله بن مسلم « ياتازى انى علقت منك » فلما حضرت عبد الله بن مسلم الوفاة أوصي أن تلحق به ما فى بطنها . . . فذكر أن ولد عبد الله بن مسلم جاءوا أيام المهدى حين قدم الرى الى خالد فادعوه . فقال لهم سلم بن قتيبة بن مسلم « انه لابد لكم ان استلحقتموه من أن تزجوه » فتركوه وأعرضوا عن دعواهم !

ونال خالد مكانة سامية فى صدر الدولة العباسية . فكثر الوافدون على بابه . وانتجعه الناس من كل صوب . فكان هو الطرف الموجب بازاء الطرف السالب « المنصور » فاستمال الشعراء الذين نفرهم وطمأن الفازعين الذين روعهم . وزاد على ذلك أن ابدل من تسمية الشعراء وطلاب الرفد فبعد أن كانوا يسمون « السؤال » سماهم « الزوار » وقال انى استقبح ذلك الاسم لهم وفيهم الاشراف والاكابر . فقال له بعضهم والله ما ندرى أى اياديك عندنا أجل . أصلتنا أم تسميتنا ؟ وامتدحه بشار عندئذ بقوله :

حذا خالد فى فعله حذو برمك   فمجد له ! مستطرف وأصيل
وكان ذوو الآمال يدعون قبله   - بلفظ - على الاعدام فيه دليل

يسمون «بالسؤال» في كل موطن　　وان كان فيهم نابه وجليل
فسماهم «الزوار» ستراً عليهم　　فأستاره فى المهتدين سدول

وقال بشار هذا الشعر فى مجلس خالد فى السماعة التى تكلم فيها فأعطاه لكل بيت ألف درهم !

وانتجعه بشار لما كان بفارس واليا عليها فانشده :

حاجتي بين الأجر والحمد

أخالد ! لم اخبط اليك بذمة　　سوى انني عاف وأنت جواد
أخالد ! بين الاجر والحمد حاجتى　　فأيهما تأتى استقل عماد
فان تعطني ! افرغ عليك مدائحى　　وان تأب ! لم يضرب على سداد
ركابى على حرف وقلبى مشيع　　فمالى بارض الباخلين بلاد
اذا انكرتنى بلدة أو نكرتها　　خرجت مع البازى على سواد

فدعا خالد باربعة آلاف درهم فى أربعة أكياس ووضع فى كل جهة من جهاته كيسا . ثم قال . يا أبا معاذ هل استقل العماد ؟ فلمس الاكياس وقال . استقل والله ايها الامير ! !

وامتدحه مرة أخرى وهو بفارس فوعده وماطله . فوقف على طريقه وهو يريد المسجد وأخذ بلجام بغلته . وأنشد

أظلت علينا — منك يوما — سحابة　　أضاءت لنا برقا وأبطا رشاشها
فلا غيمها يجلى فييأس طامع　　ولا غيثها يأتى فيروى عطاشها

فحبس خالد بغلته وأمر له بعشرة آلاف درهم . وقال له : لن تنصرف السحابة حتى تبلك ان شاء الله !

ووفد عليه مرة وأنشده :

لعمرى! لقد أجدى على ابن برمك ... وما كل من كان الغنى عنده يجدى
حلبت بشعرى راحتيه فدرتا ... سماحا ! كما در السحاب مع الرعد
إذا جئته للحمد أشرق وجهه ... الى ! وأعطانى الكرامة بالحمد
له نعم فى القوم لا يستثيبها ... جزاء ! وكيل التاجر المد بالمد
مفيد ومتلاف — سبيل تراثه ... إذا ماغدا أو راح — كالجزر والمد
لمست بكفى كفه ابتغى الغنى ... ولم أدر أن الجود من كفه يعدى
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى ... أفدت! وأعدانى فاتلف ماعندى

☆☆☆

أخالد ! أن المال يبقى لأهله ... جمالا ! ولا تبقى الكنوز مع الكد
فاطعم وكل من عارة مستردة ... ولا تبقها ! إن العوارى للرد

فاعطاه خالد ثلاثين الف درهم وكان يعطيه قبل ذلك فى كل وفادة خمسة آلاف . وأمر أن يكتب البيتان الاخيران فى صدر مجلسه . فقال ابنه يحى « آخر ما أوصانى به أبى العمل بهذين البيتين » وكفى هذا فخراً لبشار حيث لخص فى هذين البيتين فلسفة الكرم فكانا نبراساً اهتدى بنوره جود البرامكة !

والبيتان « لمست بكفى كفه . . . » . نسبا أيضا فى الاغانى لابن

الخياط الشاعر — رواية عن ابنه — وقال الزبير بن بكار انه سرق المعنى من ابن هرمة . . وأقول أن البيتين لاشك فى نسبتهما الى بشار وقد تمثل بهما ابن الخياط عندما أجازه المهدى — انظر الحكاية بالاغانى

بشار وآل سليمان بن على بن عبد الله بن عباس :

إذا أمعنا النظر فى ذلك الانقلاب الذى تم به انتقال الخلافة من بني أمية الى ابن العباس عثرنا الى جنب مسلم على ساسة دهاة وقواد محنكين من نفس بيت العباس قاموا بجلائل الاعمال وثبتوا فى أحرج المواقف . أمثال عبد الله بن على وصالح بن على وداؤد بن على وعبد الصمد بن على واسحق بن على وسليمان بن على . وكلهم أعمام السفاح والمنصور وبهم توطدت اركان العرش العباسى !

أما سليمان بن على فهو الذى طهر البصرة من الأمويين . وعندما افتتحها اعتلى المنبر وخطب فقال . ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادى الصالحون . قضاء فصل وقول مبرم . فالحمد لله الذى صدق عبده وانجز وعده . وبعداً للقوم للظالمين الذين اتخذوا القرآن عضين . لقد حاق بهم ما كانوا به يستهزئون وكأين ترى لهم من بئر معطلة وقصر مشيد . ذلك بما قدمت أيديهم وما ربك بظلام للعبيد . امهلهم حتى اضطهدوا الأمة ونبذوا السنة . واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد . ثم أخذهم . فهل تحسن منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا ؟؟

ولكنه كان احنهم على بني أمية بعكس أخيه عبدالله بن على . فكان أبو مسلم يسميه « كنف الامان » لأنه كان يجير كل من استجار به . وكتب الى أبى العباس يقول : « يا أمير المؤمنين انا لم نحارب بنى أمية على أرحامهم . وانما حاربناهم على عقوقهم . وقد دافت الى دافة منهم لم يشهروا سلاحا ولم يكثروا جمعا فأحب ان تكتب لهم منشور أمان » فكتب لهم السفاح منشور أمان وبعثه اليهم . فمات سليمان بن على وعنده بضع وثمانون حرمة لبنى أمية !

وهو كما قرأت أحد أبناء « على بن عبدالله بن عباس » أما أمه — وهى أيضا أم صالح بن على — فمن سبي الصغد واسمها سعدى . وذلك أن عليا بن عبد الله بن عباس حضر مجلس عبد الملك بن مروان — وكان مكرما له — وقد اهديت له من خراسان جارية وفص خاتم وسيف فقال يا أبا محمد إن حاضر الهدية شريك فيها فاختر من الثلاثة واحداً . فاختار الجارية المتقدمة الذكر . . . فقيل انه كان فى سليمان رتة — عجمة فى الكلام — وفى صالح مثلها وانها موجودة فى آل سليمان وصالح !

وولى سليمان البصرة من سنة ١٣٣ الى أن عزله المنصور عنها سنة ١٣٩ ولا نعرف هل اتصل به بشار فى تلك الاثناء أو اتصل به عند ماولى الكوفة بعد ذلك . ولكنه على كل حال اتصل به ولم يحسن سليمان صلته واعرض عنه اعراضا تاما . فلما سنحت لبشار الفرصة لهجائه طوقه بيتين من الشعر الخالد ! . . قال ابن عبدربه : ومن تقبيح الحسن

قول بشار في «سليمان بن على» وكان قد وصل رجلا . . .

ياسوأة يكثر الشيطان - اذ ذكرت - منها التعجب ! جاءت من سليمانا
لا تعجبن لخير زال من يده فكوكب النحس يسقى الارض أحيانا

وقد نسب ابن نباتة فى «سرح العيون» هذين البيتين الى الخليل ابن أحمد الفرهودى يقولهما فى «سليمان بن المهلب» وقد قطع عنه براً — كما يقول ابن نباته — ولكنى لا أجد بداً من تصديق رواية العقد الفريد فالكلام هناك منطق على الشعر ومعناه هو معنى البيتين ! وزد على ذلك أنه لم يؤثر عن الخليل هجاء فى أحد . وقد منعه من ذلك عزة نفسه وزهده عما فى أيدى الناس . . . قال ابن عائشة : كان الخليل بن أحمد يغزو سنة ويحج سنة الى أن مات رضى الله عنه . ولقد بعث اليه سليمان بن على الهاشمى (هو سليمان الذى نحن بصدده) بطرف وكساء وفاكهة . فقبل الفاكهة ورد ماسوى ذلك — وكان سليمان قد استدعاه — فكتب اليه :

أبلغ سليمان أنى عنه فى دعة وفى غنى ! غير انى لست ذا مال
سخى بنفسى أنى لا أرى أحدا يموت هزلا ولا يبقى على حال
والرزق عن قدر ! لا العجز ينقصه ولا يزيدك فيه حول محتال
والفقر في النفس لا فى المال نعرفه ومثل ذاك الغنى ! فى النفس لا المال

ولما أتاه الرسول أخرج له خبزاً يابسا ، وقال ماعندى غير هذا وما دمت أجده فلا أحتاج الى سليمان ولا غيره !

وولى البصرة بعده سفيان بن معاوية المهلبي — الذى قامت فى عهده ثورة ابن عبد الله بن حسن — ثم جاء بعده « سلم بن قتيبة الباهلى » كما تقدم . ثم ولد سليمان « محمد بن سليمان بن على » سنة ١٤٦ فاتصل به بشار وامتدحه وامتدح أخاه « جعفر بن سليمان بن على » . . .

والظاهر أنهما لم يرضياه كأبيهما فهجا آل سليمان بن على فى آخر أيامه . وليس فى أيدينا شيء من النصوص الادبية تحمل الينا مدحه لهم . ولكن هناك نوادر تثبت اتصاله بهم ... فمن ذلك ماروره من أن بشاراً أراد الدخول على الأمير محمد بن سليمان . فقال له الحاجب . أصبر ! فقال بشار . الصبر لا يكون إلا على بلية !؟ فقال الحاجب إنى لأظن أن وراء قولك هذا شراً — ولن اتعرض له — فقم وادخل !

وكان لبشار اعداؤه الذين يحسدونه على مكانته عند الامير محمد ابن سليمان فيغتابونه عنده . . . روى خلف الاحمر - قال - كنت اسمع ببشار قبل أن أراه ، فذكروه لى يوما وذكروا بيانه وسرعة جوابه وجودة شعره . فاستنشدتهم شيئا من شعره . فانشدونى شيئا لم يكن بالمحمود عندى . فقلت والله لآتينه ولأطاطئن منه . فأتيته وهو جالس على بابه . فرأيته أعمى قبيح المنظر عظيم الجثة . فقلت لعن الله من يبالى بهذا . فوقفت أتأمله طويلا . فبينما أنا كذلك إذ جاءه رجل فقال « ان فلانا سبك عند الامير محمد بن سليمان ووضع منك » قال أو قدفعل !؟ قال نعم . فاطرق . وجلس الرجل عنده

وجلست . وجاء قوم فسلموا عليه فلم يردد عليهم . فجعلوا ينظرون اليه وقد درّت اوداجه . فلم يلبث إلا ساعة حتى أنشدنا باعلى صوته وافخمه :

نبئت : نائك أمه يغتابنى — عندالامير ! وهل علىّ أمير؟
نارى محرقة وبيتى واسع — للمعتفين ! ومجلسى معمور
ولى المهابة فى الاحبة والعدا — فكأننى اسد له تامور
غرثت حليلته واخطا صيده — فله على لقم الطريق زئير

فارتعدت والله مفاصلى واقشعر جلدى وعظم فى عينى جداً . فقلت فى نفسى الحمد لله الذى ابعدنى من شرك

ودخل بشار على « جعفر بن سليمان بن على » فانشده هذين البيتين يمدح بهما نفسه :

أقلى فانا لاحقون ! وانما — يؤخرنا أنا يعد لنا عدا
وما كنت إلا كالأغر ابن جعفر — راى المال لايبقى! فابقى به حمدا

فقال له الامير . من ابن جعفر ؟ قال الطيار فى الجنة ! قال لقد ساميت غير مسامى . فقال والله ما يقعدنى عن شأوه بعد النسب ولكن قلة النشب . وانى لأجود بالقليل وان لم يكن عندى الكثير . وما على من جاد بما يملك ألا يهب البدور ! ؟ فقال له جعفر . لقد هززت يا أبا معاذ ! ثم دعا بكيس فدفعه اليه .

وكانت هذه العائلة مشهورة باقتناء الجوارى . فلا يسمع أحدهم

بجارية أديبة أو مغنية إلا سعى فى شرائها ... فكان لجعفر قينة بارعة الظرف . وأظنها «سلامة الزرقاء» التى يقول فيها محمد بن الاشعث

أمسى لسلامة الزرقاء فى كبدى   صدع مقيم طوال الدهر والابد
لا يستطيع صناع القوم يشعبه   وكيف يشعب صدع الحب فى كبدى

اشتراها جعفر بثمانين الف درهم وكانت تامة الحسن بارعة فى الغناء وتقطيع الالحان وكان عليها غيوراً !!

فحضر بشار يوما مجلسه والجارية تغنى فسر الامير بوجود الشاعر فشرب حتى سكر ونام . فقالت الجارية يا ابامعاذ أحب أن تذكر يومنا هذا فى قصيدة ولا تذكر فيها اسمى ولا اسم سيدى وتكتب بها اليه فانصرف بشار وبعث اليه بهذه الابيات مضمنا ما تغنت به الجارية:

واقعة حال

وذات دل كأن البدر صورتها   باتت تغنى عميد القلب سكرانا
«ان العيون التى فى طرفها حور   قتلننا ثم لم يُحيين قتلانا»
فقلت : احسنت ياسؤلى ويا املى   فاسمعينا جزاك الله إحسانا
«يا حبذا جبل الريان من جبل   وحبذا ساكن الريان من كانا»
قالت فهلا فدتك النفس احسن من   هذا لمن كان صب القلب حيرانا
«يا قوم اذنى لبعض الحى عاشقة   والاذن تعشق قبل العين احيانا»
فقلت احسنت انت الشمس طالعة   أضرمت فى القلب والاحشاء نيرانا

فاسمعينى صوتا مطربا هزجا | يزيد صبا محبا فيك أشجانا
« ياليتنى كنت تفاحا مفلجة | أو كنت من قضب الريحان ريحانا
« حتى إذا وجدت ريحى فأعجبها | ورحت فى خلوة ! مثلت انسانا »
فحركت عودها ثم انثنت طربا | تشدو به ثم لا تخفيه كتمانا
« أصبحت أطوع خلق الله كلهم | لأكثر الخلق لى فى الحب عصيانا »
فقلت : أطربتنا يازين مجلسنا | فهات انك بالاحسان أولانا
« لو كنت أعلم أن الحب يقتلنى | أعددت لى قبل أن القاك أكفانا »
فغنت الشرب صوتا مونقا حسنا | يذكى السرور ويبكى العين ألوانا
« لا يقتل الله من دامت مودته | والله يقتل أهل الغدر أحيانا »

فلما قرأها جعفر بن سليمان بن على سر سرورا شديدا وبعث اليه بألفى دينار !!

ولما مات بشار فتشوا أوراقه لعلهم يعثرون على شىء يثبتون به عليه تهمة الزندقة . فوجدوا طومارا مكتوبا فيه « إنى أردت هجاء آل سليمان بن على لبخلهم فذكرت قرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم فامسكت عنهم . غير أنى قلت :

« دينار آل سليمان ودرهم | كبابلين حفا بالعفاريت »
« لايبصران ولايرجى لقاؤهما | كما سمعت بهاروت وماروت »

قالوا : فلما قرأه المهدى ندم على قسوته معه . . .

بشار وعبد الكريم بن أبى العوجاء :

كان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام «عمرو بن عبيد» و «واصل ابن عطاء» و «بشار الاعمى» و «صالح بن عبدالقدوس» و «عبد الكريم بن أبى العوجاء» «وجرير بن حازم الازدى» فكانوا يجتمعون فى منزل الازدى ويختصون عنده. فأما عمرو وواصل فصارا الى الاعتزال. وأما عبد الكريم وصالح فصححا الثنوية. وأما بشار فبقى مخلطا متحيرا. وأما الازدى فمال الى قول السمينة . . . وهو مذهب طبيعى من مذاهب الهند !!

فكان عبد الكريم يفسد الاحداث بدعوتهم الى مذهبه وتزيينه لهم. فقال له عمرو بن عبيد قد بلغنى أنك تخلو بالحدث من احداثنا فتفسده وتدخله فى دينك. فان خرجت من مصرنا والا قمت فيك مقاما آتى فيه على نفسك! فهرب منها عبد الكريم — كما هربت بشار — ولحق بالكوفة. ولعبد الكريم يقول بشار. والظاهر انه كانت بينهما خصومة :

قلت : عبد الكريم يا ابن أبى العو ... جاء ! بعت الاسلام بالكفر موقا
لا تصلى ولا تصوم ! وإن صم ... ت ! فبعض النهار ! صوما رقيقا
لا تبالى إذا أصبت من الخم ... ر عتيقا ! ألا تكون عتيقا
ليت شعرى غداة حليت فى الجيـ ... ـد ! حنيفا حليت أم زنديقا
أنت ممن يدور في لعنة اللـ ... ـه ! صديق لمن يخون صديقا

فقتله بالكوفة محمد بن سليمان بن على سنة ١٥٥ أو ١٥٣ — الشك من المؤرخين — وكان إذ ذاك واليا عليها . وبسببه عزل عنها . لأنه لما حبس عبد الكريم على الزندقة — وعبد الكريم هو خال معن بن زائدة الشيبانى — كثر شفعاؤه عند المنصور . ولم يتكلم فيه إلا ظنين فكتب الى محمد بن سليمان بالكف عنه الى أن يأتيه رأيه . وكان ابن أبى العوجاء قد أرسل الى محمد بن سليمان يسأله أن يؤخره ثلاثة أيام ويعطيه مائة ألف درهم . فلما بلغه ذلك أمر بقتله . فلما أيقن أنه مقتول قال والله لقد وضعت أربعة آلاف حديث حللت فيها الحرام وحرمت فيها الحلال والله لقد فطرتم يوم صومكم وصومتكم يوم فطركم . . . فقتل ! وورد كتاب المنصور الى محمد يأمره بالكف عنه . فوصل وقد قتله وصلبه . فلما بلغ ذلك المنصور غضب وقال والله لقد هممت أن أقيده به . ثم أحضر عمه « عيسى بن عبدالله بن عباس » وقال له هذا عملك أنت الذى أشرت بتولية هذا الغلام الغر . قتل فلانا بغير امرى . وقد كتبت بعزله وتهديده . فقال له عيسى إن محمدا انما قتله على الزندقة فان كان أصاب فهو لك وان أخطأ فعليه . ولئن عزلته على اثر ذلك ليذهبن بالثناء والذكر ولترجعن بالمقالة من العامة عليك . . . فمزق الكتاب ! ثم عزله بعد قليل . . . ورثى عبدالكريم عبدالله بن المقفع فقال :

رزئنا أباعمرو — ولاحى مثله — فلله ريب الحادثات بمن وقع
فان تك قد فارقتنا وتركتنا ذوى خلة مافى انسدادها طمع

فقد جر نفعا فقدنا لك ! أننا   أمنا على كل الرزايا من الجزع

بشار والهيثم بن معاوية العتكى :

ولى الهيثم البصرة سنة ١٥٥ وذلك انه بعد ما عزل عقبة بن سلم الازدى سنة ١٥١ وليها جابر بن توبة الكلابى ثم يزيد بن منصور الحميرى سنة ١٥٢ ثم عبد الملك بن ظبيان النميرى سنة ١٥٤ ثم الهيثم ابن معاوية فى السنة المتقدمة الذكر

فدخل عليه بشار فى تلك السنة وأنشده :

إن السلام أيها الامير   عليك ! والرحمة والسرور

فقال الهيثم ان هذا الاعمى لايدعنا أو يأخذ من دراهمنا شيئا . فطمع فيه بشار فما برح حتى انصرف بجائزته !!

في خلافة المهدى

بشار والعباس بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس :

كان العباس بن محمد بخيلا شحيحا دنيئا مسيئا . ولكثرة إساءاته شكاه يزيد بن أسيد الى أخيه المنصور . فقال له المنصور « اجمع إحسان اليك واساءة أخى فانهما يعتدلان » فقال : اذا كان احسانكم الى جزاء لاساءتكم كانت الطاعة منا تفضلا !

ومن الادلة على بخله ودناءته أن الرشيد قال له يوما : ياعم — وانما هو فى الاصل عم أبيه المهدى — ان الشعراء قد أكثروا فى مدح محمد بسببى وبسبب ام جعفر ! ولم يقل أحد منهم فى المامون شيئا .

وأنا أحب أن أقع على شاعر فطن ذكى يقول فيه . . . فذكر العباس ذلك لأشجع السلمى وأمره أن يقول فيه . فقال :

بيعة المأمون آخذة ... بعنان الحق من أفقه
أحكمت مرآتها نفقا ... تمنع المحتال فى نفقه
لن يفك المرء ربقتها ... أو يفك الدين من عنقه
وله من وجه والده ... صورة تمت ! ومن خلقه

فأتى بها العباس الرشيد وأنشده اياها فاستحسنها . وسأله لمن هى ؟ فقال هى لى ! فقال لقد سررتنى مرتين باصابتك ما فى نفسى وبأنها لك . وما كان لك فهو لى . وأمر له بثلاثين الف « دينار » فدفع الى أشجع خمسة آلاف « درهم » وأخذ الباقى لنفسه !!

ويكفينا فى هذا الصدد حكاية مع ربيعة الرقى — وقد أهملناها لطولها — مما جعل الرشيد يغتر بعد ماهم بالزواج اليه · وأظهر له من بعدها جفاء وأطراحا له !!

وقد امتدحه بشار فلم يمنحه شيئا واعتذر إليه بقلة ما عنده من الاموال · فألقى عليه بشار هذا الدرس هاجيا ناصحا معلما · · · قال :

﴿ كيف يكون الكرم !؟ ﴾

ظل اليسار على العباس ممدود ... وقلبه أبداً فى البخل معقود

***

ان الكريم ليخفى عنك عسرته ... حتى تراه غنيا وهو مجهود

وللبخيل على أموالة علل زرق العيون عليها أوجه سود

☆☆☆

إذا تكرهت أن تعطى القليل ! ولم تقدر على سعة ! لم يظهر الجود
أورقْ بخير ترجَّى للنوال ! فما تُرْجَى الثمار إذا لم يورق العود
بثّ النوال ولا تمنعك قلته فكل ماسدّ فقراً فهو محمود

بشار وعمر بن العلاء :

هو عمر بن العلاء مولى « عمرو بن حريث » وكان من كبار رجال الدولة العباسية · ومن المقربين للمهدى الملازمين له · وكان ممدحا من الشعراء · مدحه أبو العتاهية فأمر له بسبعين ألف درهم · فأنكر ذلك بعض الشعراء وقال كيف فعل هذا بهذا الكوفى ؟ وأى شىء مقدار شعره ؟ فبلغه ذلك فأحضر الرجل وقال . ان الواحد منكم ليدور على المعنى فلا يصيبه ويتعاطاه فلا يحسنه . ويشبب بخمسين بيتا ثم يمدحنا ببعضها · وهذا كأن المعانى تجمع له . مدحنى فقصر التشبيب وقال :

اني أمنت من الزمان وريبه لماعلقت من الامير حبالا
لو يستطيع الناس من اجلاله لحذوا له حر الوجوه نعالا
إن المطايا تشتكيك لأنها قطعت إليك سباسباورمالا
فأذا وردن بنا وردن مخففة وإذا رجعن بنا رجعن ثقالا

وربما كان فى قوله « ويشبب بخمسين بيتا ثم يمدحنا ببعضها »

إشارة إلى قصيدة بشار التى مدحه بها فقد غلب الغزل على كل شيء فيها . ولـكنها والحق يقال رائعة الجمال . وانى لا أمدح ريحانه قبل شم . . . فاليك القصيدة :

لم يطل ليلى ! ولـكن لم أنم ونفى عنى الـكرى طيف ألم
نفّسى يا عبد عنى واعلمى أننى يا عبد من لحم ودم
إن فى بردى جسما ناحلا لو توكأت عليه لانهدم
ختم الحب لـكى فى عنقى موضع الخاتم من أهل الذمم
أصفراء ليس الفتى صخرة ولـكنه نصب هم وغم
صببت هواك على قلبه فضاق وأعلن ما قد كتم
فقالت «هويت ! فمت راشداً كما مات عروة ! غما بغم »
فلما رأيت الهوى قاتلى ولست بجار ولا بابن عم
دسست اليها « أبا مجلز » وأى فتى إن أصاب اعتزم
فما زال حتى أنابت له فراح وحل لنا ما حرم

***

ونبئت قوما بهم جنة يقولون «من ذا » وكنت العلم
ألا أيها السائل جاهداً ليعرفنى ! أنا أنف الـكرم
نمت فى الكرام «بنى عامر» فروعى ! وأصلى قريش العجم
وإنى لأغنى مقام الفتى وأصبى الفتاة فلا تعتصم
قل للخليفة — إن جئته نصيحاً ! ولا خير فى المتهم -!

إذا ايقظتك صروف العدى	فنبـه لها « عمراً » ثم نم
فتى لا يبيت على دمنه	ولا يشرب الماء إلا بدم
إذا ما غزا بشرت طيره	بفخ ! وبشرنا بالنعم
دعاني إلى عمر جـوده	وقول العشيرة «بحر خضم!»
ولولا الذى خبروا لم أكن	لأمدح ريحانة قبل شم
فمى الفعال كعى المقال	وفى الصمت عى كعى الكلم

وبعث بها بشار مع سلم الخاسر . فوافاه وأنشده إياها . فأمر لبشار بمائة ألف درهم . فقال له سلم . إن خادمك ـ يعنى نفسه ـ قال فى طريقه قصيدة فيك . قال فأنك لهناك ! ؟ قال تسمع ثم تحكم . فقال هات . فأنشده :

قد عزنى الداء فالى دواء	مما ألاقى من حسان النساء
قلب صحيح كنت أسطو به	أصبح من سلمى بداء عياء
أنفاسها مسك وفى طرفها	سحر ! ومالى غيرها من دواء

إلى أن قال :

كم كربة قد مسنى خدها	ناديت فيها عمر بن العلاء

فأمر له بعشرة آلاف درهم فكانت أول عطية سنية وصلت إلى سلم ! «تعليق» : وقد سئل بشار عن أبى مجلز الذى ذكره فى قصيدته . فقال لسائله وما حاجتك إليه ؟ ألك عليه دين ؟ أم تطالبه بطائلة ؟ .. هو رجل يتردد بينى وبين معارفى فى رسائلى !

وقيل ان البيت « ختم الحب لـكى فى عنق ٠٠٠ » ليس له بل زادته الرواة !!

وروى أن « أبا الوزير » مولى عبد القيس · من عمال الخراج · كان عفيفا بخيلا فسأل عمر بن العلاء فى رجل محتاج · فوهب له مائة ألف درهم · فدخل أبو الوزير على المهدى وقال له يا أمير المؤمنين ان عمر بن العلاء خائن · قال ومن أين علمت ذلك؟ قال كلمته فى رجل كان أقصى أمله ألف درهم · فوهب له مائة ألف درهم فضحك المهدى ثم قال « قل كل يعمل على شاكلته » أما سمعت قول بشار فى عمر؟ « إذا أيقظتك صروف العدى ٠٠٠ » أو ماسمعت قول أبى العتاهية فيه؟ « ان المطايا تشتكيك لأنها ٠٠٠ » أو ليس الذى يقول فيه أبو العتاهية :

يا ابن العلاء ويا ابن القرم مرداس   إنى لأطريك فى صحبى وجلاسى
حتى اذا قيل « ما أعطاك من نشب ؟ »
ألغيت ـ من عظم ما أسديت ـ كالناسى

ثم قال : من اجتمعت ألسن الناس على مدحه كان حقيقا أن يصدقها بفعله ! !

بشار ويزيد بن مزيد الشيبانى :

كان يزيد بن مزيد من أعظم قواد الدولة العباسية ومن أشهر أمرائها وولاتها وكان شجاعا كريما سريع الخاطر حاضر البديهة . فما

يروى عنه أن يزيد بن منصور الحميرى — خال المهدى — نظر اليه وعليه رداء يمان وهو يسحبه . فقال له « ليس عليك غزله فاسحب وجر » فقال « على آبائك غزله وعلى سحبه » فشكاه الى المهدى فقال لم تجد أحداً تتعرض له الا يزيد بن مزيد ! ؟

ولما كانت أكثرية الخوارج من ربيعة قال له الرشيد يوما « ما أكثر الخلفاء فى ربيعة ! ! » قال نعم ! ولكن منابرهم الجذوع...

ومات يزيد فى خلافة الرشيد والياً على ارمينية . وكان الرشيد يحفظ له أحسن ذكرى واثبتها كما كان يحفظها لعمه معن بن زائدة الشيبانى . فمما يدلنا على ذلك الحكاية الآتية التى تدلنا ايضا على الكثرة الضائعة من شعر بشار بن برد :

دخل سلم الخاسر على الرشد وعنده العباس بن محمد وجعفر بن يحيى البرمكى فأنشده قوله

« حضر الرحيل وشدت الاحداج »

فلما انتهى الى قوله

إن المنايا فى السيوف كوامن حتى يهيجها فتى هياج

فقال الرشيد كان ذلك معن بن زائدة ! فقال صدق أمير المؤمنين... ثم انشده حتى انتهى الى قوله

ومدجج يغشى المضيق بسيفه حتى يكون بسيفه الافراج

فقال الرشيد ذلك يزيد بن مزيد ! فقال صدق أمير المؤمنين .

فاغتاظ جعفر بن يحي — وكان يزيد بن مزيد عدواً للبرامكة مصافيا للفضل بن الربيع — فلما انتهى سلم الى قوله

نزلت نجوم الليل فوق رؤوسهم فلكل قرم كوكب وهاج

قال له جعفر بن يحي : من قلة الشعر حتى تمدح أمير المؤمنين بشعر قيل فى غيره . هذا « لبشار » فى فلان التميمى . فقال الرشيد ما تقول يا سلم ؟ . قال صدق ياسيدى ! وهل أنا الاجزء من محاسن بشار ؟ وهل أنطق الا بفضل منطقه ؟ وحياتك ياسيدى إنى لأروى به تسعة آلاف بيت ما تعرف أحد غيرى منها شيئا ! ؟ فضحك الرشيد وقال ما أحسن الصدق ! ! امض فى شعرك . . . ثم أمر له بمائة الف درهم !

ومع ما اشتهر به يزيد بن مزيد من الكرم والمروءة فانه قد أساء الى بشار بما جعله يهجوه هجاء مقذعا . فقد أتا فى أول ولاية المهدى وسأله أن يذكره له . فسوفه أشهراً . ثم ورد « روح بن حاتم المهلبى » فبلغه خبر بشار فذكره للمهدى — من غير أن يلقى بشاراً — وأمر باحضاره . فدخل على المهدى وانشده سعراً مدحه به . فوصله بعشرة آلاف درهم . ووهب له عبداً وقينه وكساه كسى كثيرة . . . فقال يمدحه ويهجو يزيد بن مزيد الشيبانى :

مدح وهجاء

خليلى إن العسر سوف يفيق وإن يساراً فى غد لخليق

خليلى ان المال ليس بنافع ... إذا لم ينل منه أخ وصديق
أأدماء ! لا اسطيع فى قلة الثرى ... خروزاً ووشيا ! والغليل محيق
خذى من يدى ما قل ! إن زماننا ... شموس ومعروف الرجال رفيق
وما كنت الا كالزمان ! إذا صحا ... صحوت ! وإن ماق الزمان أموق
وما ضاق ررق الله عن متعفف ... ولكن اخلاق الرجال تضيق
وقد كنت لا أرضى بأدنى معيشة ... ولا يشتكى بخلا على رفيق
وكنت اذا ضاقت على محلة ... تيممت اخرى ما على تضيق

☆☆☆

فلما التقينا « بالحبيبة » غرنى ... بمعروفه حتى أخرجت أفوق(١)
حبانى بعبد قعسرى وقينة ... ووشى ! وآلاف لهن بريق
فما خاب – بين الله والناس – عامل ... له فى التقى أو فى المحامد سوق
كأن لهم دينا عليه ! وما لهم ... سوى جود كفيه عليه حقوق
فقل «ليزيد» يلمص الشهد خاليا ... لنا دونه عند الخليفة سوق
ابى لك عرق من فلانة أن ترى ... جواداً ! ورأس حين شبت حليق
رقدت ! فنم يا ابن الخبيثة انها ... مكارم لا يسطيعهن لصيق

« تعليق » : قال سفيان بن عيينة — عهدى باهل الحديث وهم أحسن الناس أدبا ثم صاروا الآن أسوأ الناس أدبا فصبرنا عليهم حتى

---

(١) غره بمعروفه أى ملأ فمه به . من قولهم غره بالدواء إذا أوجره فمه . وأفوق من الفواق وهو المعروف بالشهقة !!

استهناهم . فصرنا كما قال الشاعر

« وما أنا الا كالزمان ! إذا صحا صحوت ! وان ماق الزمان أموق »

وهجا يزيد أيضا فقال :

« أبا خالد » مازلت سابح غمرة صغيراً ! فلما شبت خيمت بالشاطى

جريت زمانا سابقا ! ثم لم تزل تاخر ! حتى جئت تقطو مع القاطى

« كسنور عبد الله » بيع بدرهم صغيراً ! فلما شب بيع بقيراط

ودار حول هذا الشعر كلام كثير لأئمة الادب نورده مع التعليق عليه . أما الجاحظ فقد قال في حياة الحيوان : السنور يساوى في صغره درهما فاذا كبر لم يساوى شيئا . وقال العتبى

كسنور عبد الله بيع بدرهم صغيراً ! فلما شب بيع بقيراط

وصاحب هذا الشعر لو غبر مع امرئ القيس بن حجر والنابغة الذبيانى وزهير بن ابى سلمى . ثم مع جرير والاخطل والفرزدق . ثم مع بشار وابن هرمة وابى يعقوب الاعمى ألف سنة لما قال بيتا مرضيا أبداً . وقد يضاف هذه البيت الى بشار وهو باطل !

الى هنا ينتهى كلام الجاحظ ولا ندرى ماسبب هذه الغضبة المضرية على قائل هذا البيت . ولم نستفد من كلامه شيئا فهو لم يقل ما برهانه على ان هذا الشعر ليس لبشار ولم يسم قائله ولا عرفنا به !!

ثم يأتى الثعالبي فيقول فى المضاف والمنسوب : « سنور عبد الله »

يضرب مثلا لمن يكون مرجواً فى صغره فاذا كبر تراجع ولم يفلح.

وفيه يقول «بشار» بن مخلد

«أبا مخلد» ما زلت سابح غمرة .... الخ الخ

وقال قبله الفرزدق

رأيت الناس يزدادون يوما فيوما! فى الجميل! وانت تنقص
كمثل الهر فى صغر يغالى به! حتى إذا ما شب يرخص

فلا نرى فى قوله «بشار بن مخلد» وقوله فى أول الشعر «أبا مخلد» إلا خلطا منه أو من النساخ. وصحته «بشار فى ابى خالد» ثم يبتدى الشعر بقولنا «أبا خالد» وهي كنية يزيد بن مريد!!

أما الميدانى فيكتفى بقوله: «سنور عبد الله» يضرب لمن لا يزيد الا زاد جهلا ونقصا وفيه قال المحدث «كسنور عبد الله بيع بدرهم...»

وقال صاحب العقد الفريد: كان يزيد بن منصور يجرى لبشار وظيفة فى كل شهر ثم قطعها عنه، فقال ... وذكر الابيات والذى نراه أن الحكاية مع «يزيد بن مزيد» لا «يزيد بن منصور» لأسباب!! أولا إن «أبا خالد» ليست كنية يزيد بن منصور. ثانيا أن يزيد بن منصور لم يعرف بشار إلا فى آخر أيام المهدى في مجلسه فسال عن صناعته فتنادر عليه بشار وهزىء به فكان من ضمن المحرضين على قتله!! هذا ... وابن عبد ربه معذور إذا خلط بين الاسمين فقد كان غريباً عن الشرق ورجاله فهو يكتب عنه كما يكتب المستشرقون الآن...

استغفر الله ! بل احسن بكثير : فهناك فارق عظيم ! وفيه ايضا يقول بشار ! على إحدى الروايات :

يحب المديح « أبو خالد ‏ ويفرق من صلة المادح
كبكر تحب لذيذ النكاح ‏ وتفرق من صولة النا كح

بشار وروح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن ابي صفرة :

لما توطن بشار بغداد واجه حياة جديدة ووجد هناك المنافسين الاقوياء . فاتصل من مبدا امره بالمنصور كما مر بك . فلما ولى المهدى الخلافة في كيفية الدخول عليه وجعل يوسط لذلك يزيد بن مزيد الشيبانى فكان منه ما كان . ثم تطوع لذلك روح بن حاتم هدا فمدحه بشار بمدائح لم تصلنا ثم هجاه لاسباب لم نعرفها ! بل ولم يعرفها معاصروه. قال « ابو معاذ النميرى » سألت بشاراً لم مدحت روح بن حاتم ثم هجوته. قال سألنى ان اهينه فلم افعل ! فضحكت . ثم قلت . فهو كان ينبغى له ان يغضب ! فما موضع الهجاء ؟؟ فقال اظنك تحب ان تكون شريكه. فقلت اعوذ بالله — من ذلك — وبك ! ... وان كان هناك سبب فلا ظنه الا امتنان روح على بشار !!

فلما هجاه بشار تهدده بالقتل . فهزأ به بشار قائلا :

تهددنى « أبو خلف » ‏ وعن أوتاره ناما
بسيف « لأبى صف رة » ‏ لا يقطع ابهاما
كأن الورس يعلوه ‏ إذا ما صدره قاما

فغضب روح غضبا شديدا وقال « كل مالى صدقة ! إن وقعت عيني عليه لا ضربنه ضربة بالسيف ولو أنه بين يدى الخليفة » فبلغ ذلك بشارا فقام من فوره حتى دخل على المهدى . فقال ما جاء بك فى هذا الوقت ؟؟ فاخبره بقصة روح وعاذ به منه . فقال لبعض حاشيته وجه الى روح من يحضره الساعة — وكان ذلك وقت الهاجرة — وكان منزله بمكان يقال « المخرم » شرق بغداد . فظن هو واهله أنه دعى لولاية !! فلما حضر قال له المهدى . يا روح انى بعثت اليك فى حاجة . فقال روح أنا عبدك يا امير المؤمنين فقل ماشئت سوى بشار فانى حلفت فى امره يمين غموس . قال قد علمت ! واياه اردت ! قال فاحتل ليميني يا امير المؤمنين . فأحضر المهدى الفقهاء . فاتفقوا على ان يضربه ضربة على جسمه بعرض السيف — وكان بشار فى مكان ملاصق للمجلس — فاخرج واقعد . فاستل روح سيفه وضربه بعرضه ضربة فقال بشار « أوه ! بسم الله » فضحك المهدى وقال . ويلك وانما ضربك بعرضه ! فكيف لو ضربك بحده ! ؟

وكان روح من كبار القواد وولاة الاقاليم — قال ابن خلكان — انه ولى لخمسة خلفاء . السفاح والمنصور والمهدى والهادى والرشيد ! ... فانظر لمن يتعرض هذا الاعمى !!

بشار وحماد عجرد :

قلنا ان التنافس فى صلات « نافع بن عقبة بن سلم الازدى » كان

السبب فيما جرى بين بشار وحماد من الهجاء ... فاليك البيان :

سأل بشار حماداً تنجيز حاجة له من نافع لأنه كان نديما له . فأبطأ حماد وأهمل . فقال بشار :

مواعيد حماد سماء مخيلة تكشف عن رعد ولكن ستبرق

إذا جئته يوما أحال على غدٍ كما وُعد الكمون ماليس يصدق

وفى « نافع » عنى جفاء ! وإننى لأطرق أحيانا ! وذو اللب يطرق

وللنقرى قوم ! فلو كنت منهم دعيت ! ولكن دونى الباب مغلق

ومازلت استأنيك حتى حسرتنى بوعد كجارى الال يخفى ويخفق

فغضب حماد وأنشد نافعا الشعر فمنع صلاته عن بشار وقطعه . فصاح بشار بحماد قائلا :

« أبا عمر » ماقى طلابيك حاجة ولا فى الذى منيتنا ثم أضجرا

وعدت فلم تصدق ! وقلت غداً غداً كما وعد الكمون شربا مؤخرا

فترى أن مهاجاتهما بدأت من عهد المنصور حوالى سنة ١٥١ ولم تنته إلا بانتهاء حياة حماد عام ١٦٦ كما نص على ذلك البغدادى صاحب الخزانة وقال أنه قتل على الزندقة !! وسنحقق ذلك فيما بعد

تعليق : « قال الثعالبى فى المضاف والمنسوب . مواعيد الكمون تضرب مثلا للمواعيد الكاذبة . وذلك أن الكمون لا يسقى بل يوعد

بالسقى فيقال غداً نسقيك وبعد غد نكفيك . فهو ينمو بالتمنية على المواعيد الكاذبة . قال الشاعر

لا تجعلى كـكمون بمزرعة   ان فاته الماء أغنته المواعيد

وقد أحسن ابن الرومى فى الجمع بين الفلفل والكمون حيث يقول

كم شامخ باذخ بثروته   أضله قبلى المضلونا

جعلته بالهجاء فلفلة   إذ جعلتنى أمانيه كمونا

وقول الثعالبى « أن الكمون لا يسقى بل يوعد بالسقى فيقال ..... » قول شبيه بالتخريف . وقد جاراه الميدانى على ذلك فقال . « أخلف من شرب الكمون » لأن الكمون يمنى بالسقى . فيقال له أتشرب الماء ؟ .... نترك نقد هذا كله لصاحب « مجمع الأمثال » حيث يقول . يقال أخلف من شُرب الكمون لأن صاحبه يراه أخضر دائماً أبداً فيؤخر سقيه . قال الشاعر

« فأصبحت كالكمون ماتت عروقه   وأوراقه مما يمنونه خضر »

وهذا هو السر فان الكمون من النبات الدائم الخضرة لذلك لا يسقى فى مواعيده كباقى النبات !! ..

وأرى قبل الخوض فى هجائهما أن نقول كلمة عن حماد : فهو أبو عمر « حماد بن يحيى بن عمرو » مولى عامر بن صعصعة . أصله ومنشؤه بالكوفة . وكان يبرى النبل وعجرد لقب له ومعناه العريان . وهو من مخضرمى الدولتين إلا أنه لم يشتهر فى أيام بنى أمية شهرته أيام بنى

العباس . كان خليعا ماجنا متهما فى دينه . لا يعرف وفاء لصاحب ولا احتراما لأحد من معارفه . فكانوا يقولون « خير للانسان أن لا يعرف حماداً ولا يعرفه حماد » وكان هو وحماد الراوية وحماد الزبرقان يتنادمون على الشراب ويتناشدون الأشعار ويتعاشرون معاشرة جميلة وكأنهم نفس واحدة . يرمون جميعا بالزندقة وأشهرهم بها حماد عجرد . وكان جيد الشعر . شهد له بذلك بشار نفسه — وهما فى أشد المهاجاة — فقد أنشده بعضهم قول حماد فى غلام كان يهواه يقال له بشر

أخى ! كفّ عن لومى فانك لاتدرى بما فعل الحب المبرح في صدرى
أخى ! أنت تلحانى وقلبك فارغ وقلبي مشغول الجوانح بالفكر
دوائى ودائى ! عند من لو رأيته يقلب عينيه لأقصرت عن زجرى
فأقسم لو أصبحت فى لوعة الهوى
لأقصرت عن لومى واطنبت فى عذرى
ولكن بلائى منك ! أنك ناصح وانك لا تدرى بأنك لاتدرى

فطرب وقال ويلكم . أحسن والله ! من هذا ؟ قالوا حماد عجرد. قال « أوه ! وكلتمونى والله بقية يومى لبهم طويل . والله لا أطعم بقية يومى طعاماً . لأصومنّ عما بما يقول النبطى مثل هذا »

وقال « يحيى بن الجون العبدى » أحد رواة بشار : أنشدت بشار قول حماد

ألا قل لعبد الله ! إنك واجد فمثلك فى هذا الزمان كثير

قطعت اخائى ظالما وهجرتنى ... وليس اخى من فى الولاء يجور

أديم لأهل الود ودى ؛ واننى ... لمن رام هجرى ظالما لهجور

ولو أن بعضى رابنى لقطعته ... وانى بقطع الرائبين جدير

فلا تحسبن منحى لك الود خالصا ... لعز ؛ ولا انى اليك فقير

فدونك حظى منك لست أريده ... طوال الليالى ما أقام ثبير

فقال بشار : ما قال حماد شعراً قط هو أشد على من هذا ! قلت كيف ذاك ولم يهجك فيه ؟؟ وقد هجاك فى شعر كثير فلم تجزع !! قال لأن هذا شعر جيد ومثله يروى . وأنا أنفس عليه أن يقول شعراً جيداً !؟

وأنشد راوية بشار بشاراً قول حماد يجرد فيه :

دعيت الى برد ! وأنت لغيره ... فهبك لبرد ـ أنت وأمك ـ من برد؟

فقال بشار لراويته ههنا أحد ؟ قال لا ! قال أحسن والله ما شاء ابن الزانية . ثم قال مفسراً اعجابه : تهيأ لحماد على فى هذا البيت خمسة معان من الهجاء . قوله « دعيت الى برد » معنى ؛ وقوله «وانت لغيره» معنى آخر ؛ ثم قوله « فهبك لبرد » معنى ثالث ؛ وقوله « أنت وأمك » شتم مفرد واستخفاف مجرد . وهو معنى رابع ؛ ثم ختمها بمعنى خامس فقال « ومن برد » ولقد تطلب جرير فى هجائه للفرزدق لكثير المعانى ونحا هـذا النحو فما تهيأ له أكثر من ثلاثة معان فى بيت وهو قوله :

لما وضعت على الفرزدق ميسى وعلى البعيث! جدعت أنف الاخطل

فلم يدرك أ كثر من هذا ! ؟

وقد أخطأ السيد أحمد الشنقيطى واشكل عليه تركيب بيت حماد فقال ان المعنى لايستقيم . والاصح ان يروى

دعيت الى برد وانت لغيره وهب ان برداً ... امك! من برد؟

فأنه بذلك أنقص من البيت المعنى الرابع من تعداد بشار وهو الشتم والاستخفاف فى قوله « ... امك » بل أضعف الشنقيطى تركيب البيت بروايته هذه ؛ فبدلا من قول حماد « وهبك لبرد » أتانا بها الشنقيطى مطولة غثة فقال « وهب ان برداً ... امك » والفرق واضح لكل ذي عينين بين تركيب البيت الاول الذى اظهر محاسنه الغنية بشار بن برد وبين تركيب البيت الثانى الذى أراد الاستاذ الشنقيطى وضعه بدلا من الاول ! !

وكان بشار وحماد قبل هذا صديقين وضمن جماعة معروفة من الزنادقة تضمهما بجناحيها . وقد سرد الجاحظ أسماء افرادها . قال . كان والبة بن الحباب ومطيع بن إياس ومنقذ بن عبد الرحمن الهلالى وحفص بن أبى بردة . وابن المقفع ويونس بن أبى فروة وحماد عجرد وعلى بن خليل وحماد بن ابى ليلى وابن الزبرقان وعمارة بن حمزة ويزيد ابن الفيض وجميل بن محفوظ وبشار المرعث وابان اللاحق . ندماء يجتمعون على الشراب وقول الشعر لايكادون يفترقون . ويهجو

بعضهم بعضا هزلا وعمداً وكلهم متهم فى دينه ! . . .

وكانوا اذا تهاجوا لا يكون هم الواحد منهم الا أن يشهر خصمه بالزندقة . وعلى ذلك كان الهجاء بين بشار وحماد — كما سيمر بك — ولكن بشار فضحه بفصاحته وهمزاته ولمزاته الكثيرة مما جعل حماد يبرأ منها في هجائه « عمارة بن حمزة » ويرمى بها عمارة المذكور وهو من الزنادقة الذين سرد أسماءهم الجاحظ . وقد ذكره الجاحظ ضمن قائمة أخرى أخرج منها بشاراً . قال . وكان حماد عجرد وحماد الراوية وحماد الزبرقان ويونس بن هرون وابن ابى فروة وعلى بن الخليل ويزيد بن الفيض وعبادة وجميل بن محفوظ وقاسم ومطيع ووالبة وابان ابن عبد الحميد وعمارة بن حمزة يتواصلون وكأنهم نفس واحدة . . . وكان بشار ينكر عليهم ! !

وذكر الجاحظ ان حماداً بعد ما فضحه بشار أخذ ينكر الزندقة على أصحابه . فأنكرها على يونس بن ابى فروة وعمارة بن حمزة . ولعمارة يقول :

لوكنت زنديقا عمار ! حبوتني ... أو كنت أعبد غير رب محمد
أوكنت عندك ! أوتراك عرفتني ... كالنضر ! أو الفيت كابن المقعد
أو كابن حماد ربيئة دينكم ... جبل ! وما جبل الغوى بمرشد
لكننى وحدت ربى مخلصا ... فجفوتني بغضا لكل موحد
وحبوت من زعم السماء تكونت ... والارض خالقها لها لم يمهد

والنعم مثل الزرع ! إن حصاده   منه الحصيد ومنه ما لم يحصد

ومن تلك الجماعة المتزندقة أبو الزبير قيس بن زهير وكان صديقا حميما لابن ابى فروة كاتب عيسى بن موسى العباسى . ولأبى الزبير يقول حماد . وكان قد بلغه ان « المفضل بن بلال » أعان بشاراً عليه وقدمه وقرظه :

قل خليلى للمفضل بن بلال   ماله يا « أبا الزبير » وما لى
عربىّ ! لاشك فيه ولا مر   ية ! ما باله وبال « الموالى »

وقد يطلق احدهم لفظ «زنديق» على الآخر من غير هجاء كما فعل بشار مع مطيع بن اياس فانه اذا وصف إنسانا بالظرف قال « أظرف من الزنديق » يريد بذلك مطيعا . قال الميدانى : لأن من تزندق كان له ظرف يباين به الناس . ومن قال فلان أظرف من زنديق فقد غلط !

فانظر الى هذا الكلام تجده غير متماسك فهو يثبت ان للزنديق ظرفا يباين به الناس . ثم يقول ومن قال أظرف من زنديق فقد غلط . وكان الواجب ان يقول . ليس للزنديق ظرف يمتاز به على بقية الناس لذلك يغلط من يقول أظرف من زنديق بل هى « أظرف من الزنديق » وهو مطيع بن إياس . والامثال لاتتغير . وعلى ذلك قد عيب على ابى نواس قوله « تيه مغن وظرف زنديق » كما قال المعرى فى رسالة الغفران ! !

ولقد كان اختلاف بشار وحماد رحمة بالناس اذ شغلهما ذلك عنهم. فانهما ما كانا يجتمعان الا لشر . فمما يروى عنهما أيام صداقتهما . انهما اجتمعا على طعام ومعهما « يحيى بن زياد الحارثى » فوقف عليهم سائل بالباب وقال . يامسلمين . . .

فقال يحيى — فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون !

السائل — ارحمونى . . .

حماد — قد رحمناك !

السائل — اسمعوا كلامى . . .

بشار —

لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادى

فكانت كلمته فصل الخطاب ! ! أما يحيى بن زياد هذا فيكنى أبا الفضل . وهو خال السفاح والمنصور . شاعر مقل ماجن خليع متهم بالزندقة . ولاه أبو جعفر على الاهواز برجاء من ابنه المهدى . وقد تاب وأناب فى آخر عمره . ولكنه لما مات رثاه مطيع بن إياس فقال .

يا أهل ! بكوا لقلبي القرح وللدموع السواكب السفح
راحوا بيحيي، ولو تطاوعني الأ قدار لم تبتكر ولم ترح
ياخير من يحسن البكاء له اليـ ـوم ! ومن كان أمس للمدح
قد ظفر الحزن بالسرور قد أديل مكروهنا من الفرح

وما مات حماد وبشار حتى خاف منهما القريب والبعيد . وضرب بهما المثل فيمن يخاف شره . يدلنا على ذلك الحكاية الآتية : كان الأمير محمد بن زهير يشرب . فاذا سكر لا يفيق إلا بانشاد الشعر . فأمر يوما جبار بن محمد الكاتب أن ينشده . فأنشده أبياتا لأبى نواس ادعى أنه قائلها . وأولها

صاح ! مالى وللرسوم القفار ولنعت المطى والأكوار
شغلتنى المدام والقصف عنها وسماع الغناء والمزمار

ومضى فى الشعر . . . وأبو نواس قاعد . فوثب وتعلق به أمام محمد بن زهير وأنشد :

أعدنى يا محمد بن زهير ياعذاب اللصوص والدعار
يسرق السارقون ليلا ! وهذا يسرق الشعر جهرة بالنهار
صار شعرى قطيعة لجبار أفهذا لقلة الأشعار ؟؟
قل له فليغر على شعر « حما د » أخى الفتك ! أوعلى « بشار »

ولما فتح بشار باب الهجاء لام نفسه على ذلك واستنكف من مهاجاة حماد كما يقولون — وأقول بل خوفا منه . فقد علم بشار أن من ينك العير ينك نيا كا — وأقبل حماد يهجوه وهو يعرض عنه ويقول

قل مابدا لك من زور ومن كذب حلمى أصم ! وأذنى غير صماء [1]

---

(١) وقد روى هذا البيت أبو هلال العسكرى وقال هو مأخوذ من قول الأول :

إلى ان أقذع فيه حماد فقال :

صار بشار بصيراً بدبره　　وناظره بين الأنام ضرير
لهمقلة عميا ! واست بصيرة　　إلى الأير من تحت الثياب تشير
على وده أن الحمير تنيكه　　وان جميع العالمين حمير

عندئذ تبادلا الهجاء ولم تحفظ الرواة منه إلا القليل !!

فكان رجل من أهل البصرة يدخل بينهما على اتفاق منهما بأن ينقل إلى كل واحد منهما وعنه الشعر . فدخل يوما على بشار . فقال له إيه يا فلان ؟ ما قال ابن الفاعلة ؟ فأنشده :

إن تاه بشار عليكم فقد　　أمكنت بشاراً من التيه

فقال بشار بأى شيء ويحك ؟ فقال

وذاك إذ سميته باسمه　　ولم يكن حراً نسميه

قال سخنت عينه فبأى شيء كنت أعرف ؟ إيه ! فقال

فصار إنسانا بذكرى له　　ما يبتغى من بعد ذكريه ؟

فقال ما صنع شيئا ! إيه ويحك ! فقال

لم أهج بشاراً ولكننى　　هجوت نفسى بهجائيه !

فقال على هذا المعنى دار وحوله حام !

وتمام الأبيات :

وغلام سبنى قد وقرت　　اذنى عنه ! ومابى من صمم
وفى معناه المثل « أصم عما ساءه سميع » !!

لم آت شيئاً قط فيما مضى   ولست فيما عشت آتيه
أسوأ لى فى الناس أحدوثة   من خطأ اخطأته فيه
فأصبح اليوم لسبى له   أعظم شأناً من مواليه

وقال بشار لراوية حماد ماهجانى به اليوم حماد ؟ فأنشده

ألا من مبلغ الـ   ـندى والده برد

فقال صدق ابن الفاعلة ! فما يكون ؟ فقال

إذا نسب الناس   فلا قبل ولا بعد

فقال كذب ! أين هذه العرصات من عقيل ؟ فما يكون ؟ فقال

أعمى قلطبان ما   على قاذفه حد

فقال كذب بل عليه ثمانون جلدة ! هيه ! فقال

شبيه الوجه بالقرد   إذا ماعمى القرد

فقال والله ما أخطأ حين شبهنى بالقرد ! حسبك حسبك ! ثم صفق بيديه وقال ما حيلتى يرانى فيشبهنى ولا أراه فاشبهه !؟ وجزع جزعاً شديداً .. ومما زاد أثر البيت فى نفس بشار انه — كما اشار الجاحظ — مأخوذ من بيت صفوان الانصارى الذى هجاه به قديما وهو

واثب أقماراً وأنت مشوه   وأقرب خلق الله من شبه القرد

فكان حماد ببيته نا كئاً لجروح قديمة !! ويؤيد بشار هذا القول فيقول : لا إله إلا الله ! قد والله كنت أخاف أن يأ تى به . والله

لقد وقع لى هذا البيت منذ أكثر من عشرين سنة فما نطقت به خوفا أن يسمع فاهجى به . حتى وقع عليه النبطى ابن الزانية !!

ويقال أن الذى نبه حماداً إلى هذا المعنى هو أعشى سليم وكان مهاجيا لبشار . قال الجاحظ : كانت العرب تزعم أن لكل شاعر فحل شيطان يساعده فى الشعر . وكان بعض الشعراء يدعى ذلك . فقال بشار

دعانى « شنقناق » إلى خلف بكرة   فقلت اتركنى ! فالتفرد أحمد

يقول التفرد فى قول الشعر أحمد لى من أن يكون لى عليه معين . . . فقال أعشى سليم يرد عليه

إذا ألف الجنى قرداً « مشنفا »   فقل لخنازير الجزيرة أبشرى

فجزع بشار جزعاشديداً لأنه كان يعلم مع تغزله أن وجهه وجه قرد — وكان هذا أول ما عرف من جزعه من ذكر القرد — حتى أنشد حماد قوله فى هذا المعني !

وتمام الأبيات .

ولو نيكه فى صلد   صفا! لانصدع الصلد
دنىّ لم يرح يوما   إلى مجد ولم يغد
ولم يحضر مع الحضا   رفى خير ولم يبد
ولم يخش له ذم   ولم يرج له حمد
جرى بالنحس مذكان   ولم يجر له سعد
هو الكلب إذا مات   فلم يوجد له فقد

وقال حماد :

قل لشقى الجد فى رمسه   ومَنْ يفر الناس من رجسه
للقرد بشار بن برد ! ولا   تحفل برغم القرد أو نحسه
للقرد بالليث اغترار به   فما الذى أدناك من مسه
يا ابن استها فاصبر على ضغمه   بنابه ياقرد أو ضرسه
نهاره أخبث من ليله   ويومه أخبث من أمسه
وليس بالمقلع عن غيه   حتى يوارى فى ثرى رمسه
ما خلق الله شبيها به   من جنه طراً ومن أنسه
والله ! ما الخنزير فى نتنه   بربعه — فى النتن — أو خمسه
بل ريحه أطيب من ريحه   ومسه ألين من مسه
ووجهه أحسن من وجهه   ونفسه أنبل من نفسه
وعوده أكرم من عوده   وجنسه أكرم من جنسه

قال الجاحظ : وانا — حفظك الله تعالى — استظرف وضعه الخنزير بهذا المكان وفى هذا الموضع حين يقول « وعوده أكرم من عوده » أين عود الخنزير من الكرم !؟ قبحه الله …

« وقال »

إن ابن برد رأى رؤيا فأولها   بلا مشورة إنسان ولا أثر
رأى العمى نعمة لله سابغة   عليه ! إذ كان مكفوفا عن النظر
وقال لولم أكن أعمى لكنت كما   قد كان برد أبى ! فى الضيق والعسر

أكد نفسي بالتطيين مجتهداً ... إما أجيراً وإما غير مؤتجر

أو كنت - ان أنالم أقنع بفعل أبي - ... قصاب شاء - شقي الجد - أو بقر

كأخوتي! دائبا أشقى شقاءهم ... في الحر والبرد والادلاج والبكر

فقد كفاني العمى من كل مكسبة ... والرزق يأتي بأنواع من القدر

فصرت ذانشب من غير ما طلب ... إلا بمسألتي إن كنت في صفر

أضم شيئا إلى شيء فاحرزه ... مما أجمع من تمر ومن كسر

من كان يعرفني لولم أكن زمنا؟ ... أو كان يبذل لي شيئا سوى الحجر؟

فقل له: لاهداك الله من رجل ... فانها عرة تربى على العرر

لا! قد فطنت إلى شيء تعيش به ... يا ابن الخبيثة قد وفقت في النظر

يا ابن التي نشزت عن شيخ ميتها ... لا يرميان بذي العاهات والعجر

أما يكفك عن شتمي ومنقصتي ... ما في حر أمك من نتن ومن ذفر

نفتك عنها «عقيل» وهي صادقة ... فسل «أسيد» أو فاسال أبا زفر

يا عبد «أم الظباء» المستطب بها ... من اللوى! الست مولى الغر من مضر

بل أنت كالكلب ذلا! أو أذل! وفي ... نذالة النفس كالخنزير والنقر

وأنت كالقرد في تشويه منظره ... بل صورة القرد أبهى منك في الصور

قال أبو عبيدة كان حماد عجرد يتهم بالزندقة وكان يعير بشاراً بقبح خلقته. فلما قال فيه

والله! ما الخنزير في نتنه ... بربعه في النتن أو خمسه

بل وجهه أحسن من وجهه ... ونفسه أفضل من نفسه

قال بشار . ويلى على الزنديق ! لقد نفث بما فى صدره ! . . قيل وكيف ؟؟ قال ما أراد الزنديق إلا قول الله تعالى « لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم » فاخرج الجحود بها مخرج الهجاء . . . . وهذا خبث شديد من بشار وتغلغل !!!!

وأخذ صالح بن عبد القدوس قول حماد

وليس بالمقلع عن غيه حتى يورى فى ثرى رمسه

فقال :

والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يوارى فى ثرى رمسه

فكان سبب هلاكه عند ما حققوا معه فى تهمة الزندقة . لأن الرشيد لم يقبل توبته واحتج عليه بهذا البيت . وقال المعرى فى رسالة الغفران ان السيف هو الذى جعل صالحا يتوب . ثم ذكر الحديث « بعثت بالسيف والخير مع السيف والخير فى السيف والخير بالسيف » والحديث الآخر « لا تزال أمتى بخير ما حملت السيوف » وإلى ذلك أشار فى لزومياته :

أقروا بالاله وأثبتوه وقالوا لا نبى ولا كتاب
ووطء بناتنا حل مباح رويدكم فقد بطل العتاب
تمادوا فى الضلال ولم يتوبوا ولو سمعوا صليل السيف تابوا

وأغلظ حماد فقال :

ماصور الله شبها له من كل من من خلقه صورا

أشبه بالخنزير وجها ؛ ولا بالكلب أعراقا ! ولا مكسرا
ولا رأينا أحداً مثله أنجس أو اطفس أو أقذرا
لو طليت جلدته عنبرا لأفسدت جلدته العنبرا
أو طليت مسكا ذكيا إذن تحول المسك عليه خرا

وولد لبشار ابن فقال حماد :

سائل « أمامة » يا ابن بر د ! من أبو هذا الغلام ؟؟
أمن الحلال أتت به ؟ ؟ أم من مقارفة الحرام ؟ ؟
فلتخبرنك أنه بين العراق والشآم
والآخر النبطى وال رومى ! أيضا وابن حام
أجعلت عرسك -شقوة- غرضا لأسهم كل رام
يا ابن الخبيثة إن أم ك لم تكن ذات اكتتام
وتبدلت « ثوبان » ذا ال أير المضبر والعرام
ثوبان فتاق الازا ر ! يايره مثل الحسام
عروة كقايمة السرير ويسلها عند الرطام
وأنت سميعة بعدها بالمصمئلات العظام
أخت لكم كانت تكا بر أن تسافح عن قيام

وقال :

قد كان فى حرها « غزالة » شاغل للقرد عن شتمى وفى « ثوبان »
أو فى « سميعة » أخته وشرادها لمجونها ! مع سفلة المجان
أوفى « امامة » عرسه ! وركوبها شر البغاء باوكس الأثمان

وقال :

ولكن معاذ الله لست بقاذف بريئا ! وسباب لقوم صرائح
فما قلت فى الاعمى بجهل لأمة ولكن بأمر بين لى واضح
سأعرض صفحا عن «حصين» وأمه ولست عن القرد بن برد بصافح

والظاهر أنه كان بينه وبين حصين هذا هجاء . وأظنه هو الذى يهجوه بهذه الأبيات التى تنسب لأبى الشمقمق

هتفت أم حصين ثم قالت «من يأتيك؟»
فتحت فرجا رحيبا مثل صحراء العتيك
فيه وز ! فيه بط فيه دراج وديك

ونعرف من شعر حماد الذى تقدم أن أم بشار اسمها « غزالة » وانها كانت متهمة برجل يقال له « ثوبان » وأن أخته اسمها « سميعة » وأن امرأته اسمها « امامة » وهذا لم يكن معروفا عن عائلة الشاعر !!

وقال حماد :

« غزالة » الرجسة أو بنتها « سميعة » الناعية الفهرا

قال الجاحظ بعد ما ذكر هذا الشعر الذى مر — : وما ينبغى لبشار أن يناظر حماداً — من جهة الشعر وما يتعلق به — لأن حماداً فى الحضيض وبشاراً فى العيوق ! وليس فى الأرض مولد قروى يعد شعره في المحدث إلا وبشار أشعر منه !!!!

ولما ولى «عيسى بن عمرو» إمارة البصرة — من قبل محمد بن أبى العباس — أقبل حماد — يحرضه على بشار ويتهمه بالزندقة وغيرها . فقال :

قل لعيسى الأمير «عيسى بن عمرو» ذى المساعى العظام فى قحطان
والبناء العالى الذى طال حتى قصرت دونه يدا كل بانى :
يا ابن عمرو ! عمرو المكارم والتقـ ـوى ! وعمرو الندى ! وعمرو الطعان
لك جار بالمصر لم يجعل الـلـ ـه له منك حرمة الجيران
لا يصلى ولا يصوم ولا يقـ ـرأ حرفا من محكم القرآن
إنما معدن الزناة من السفـ ـلة — فى بيته — ومأوى الزوانى
وهو خدن الصبيان — وهو ابن سبـ ـعين — فماذا يهوى من الصبيان ؟

***

طهر المصر منه يا أيها المو لى المسمى بالعدل والاحسان
وتقرب بذاك فيه إلى الـلـ ـه ! تفز منه فوز أهل الجنان

***

يا «ابن برد» اخسأ اليك ! فمثل الـ ـكلب في الناس أنت لا الانسان
ولعمرى لأنت شر من الـكلا ب ! وأولى منه بكل هوان
ولريح الخنزير أهون من ريـ ـحك ! يا ابن الطيان ذى التبان

ولكن الأمير لم يسمع إليه ولم يتقرب إلى الله بقتله ! .. وكان برد أبو بشار طيانا كما ذكر حماد . روى «بدر بن مزاحم» قال كان

برد أبو بشار طيانا يضرب اللبن . وأرانى أبى بيتين وقال لى هذان البيتان من ضرب برد أبى بشار !.. وسمع حماد هذه الحكاية فضمنها هجاءه .... وروى « أبو عبيدة » قال . كان برد أبو بشار طيانا حاذقا بالتطيين . فلما ولد له بشار كان يقول ما رأيت مولوداً أعظم بركة منه . ولقد ولد لى وما عندى درهم فما حال الحول حتى جمعت مائتى درهم !!

هذا أكثر ماانتهى إلينا من هجاء حماد . وسيرد جزء منه متفرقا مع مناسباته وملابساته . واليك الآن خاتمة حماد — :

لما ولى المنصور محمد بن أبى العباس السفاح البصرة سنة ١٤٧ قدمها ومعه جماعة من الشعراء والمغنين . منهم حماد عجرد وحكم الوادى ودحمان . فكانوا ينادمونه ولا يفارقونه . وعاث فى البصرة وبلغ ذلك المنصور فعزله — وقد قال بعضهم أن المنصور لم يوله البصرة إلا ليظهر تهتكه أمام الملأ فيسقط في أعينهم ولا يجد له أنصاراً منهم إذا حدثته نفسه بطلب الخلافة — وكان ابن أبى العباس يهوى زينب بنت « سليمان بن على » فخطبها فلم يزوجوه لشىء كان فى عقله . وكان حماد وحكم الوادى ينادمانه كما تقدم . فقال لحماد قل فيها شعراً . فقال فيها حماد على لسان ابن أبى العباس هذا الشعر وغنى فيه حكم :

زينب ! ماذنبى ؟ وماذا الذى عصيتكم فيه ؟ ولم تغضبوا
والله ! ما أعرف لى عندكم ذنبا ! ففيم الهجر يا زينب ؟؟
ان كنت قد أغضبتكم ضلة فاستعتبونى ! إننى أعتب

عودوا على جهلى بأحلامكم   إنى — وإن لم أذنب — المذنب

وأكثر ابن أبى العباس من التشبيب بزينب يساعده حماد بشعر يقوله على لسانه. فنذر محمد بن سليمان بن على دم حماد. ولكنه لم يقدر عليه لمكانه من محمد بن أبى العباس. فلما مات ابن أبى العباس سنة ١٥٠ طلب محمد بن سليمان حماد عجرد فاستجار بعقبة بن سلم الأزدى وأقام معه مدة ينادم ولده « نافع » — وفي تلك الأثناء وقعت المهاجاة بينه وبين بشار كما تقدم — ولما عزل عقبة علم حماد أنه لا مقام له بالبصرة فاستجار بقبر سليمان بن على وأرسل إلى محمد بن سليمان شعراً يعتذر فيه. فقال محمد والله لا بلن قبر أبى من دمه. فهرب إلى بغداد فعاذ بجعفر بن المنصور. فأجاره وقال لا أرضى أو تهجو محمد بن سليمان. فهجاه! فقال والله لا يفلتنى أبداً وثما يزداد حتفا بلسانه. ولا والله لا أعفو عنه ولا أتغافل أبداً ... فهرب حماد إلى الاهواز إلى صديقه «سهيل بن سالم» مولى بنى سعد. وكان المنصور قد نزل عليه أيام استتاره بالبصرة. فلما أفضى اليه الأمر ولاه السوس وجنديسابور. وكان سهيل صديقا لبشار فلما انضم عليه حماد أفسده عليه. فقال ليهجوهما أمسى سهيل بأرض السوس مرتفعا · فى حدها! من بعد غربال وأمداد

ليس النعيم — وان كنا نزن به —   إلا نعيم سهيل ثم حماد
تا كا وتيكا! ولم يشعر بذا أحد   فى غفلة عن نبى الرحمة الهادى

فهدين طوراً ! وفهادين آونة ما كان قبلهما فهد بفهاد
سبحانك الله ! لو شئت امتسختهما قردين ! فاعتلجا فى بيت قراد

ثم ان المنصور غضب على سهيل بعد هذا فقتله ! فأقام حماد زمنا يتنقل بين البلاد إلى أن سئم فعزم على الرجوع إلى البصرة متخفيا. فلما كان بالقرب منها مرض مرضا شديداً عاقه عن المسير. وعرف أمره هناك وبلغ بشاراً مرضه. ثم نعى اليه قبل موته فقال:

لو عاش حماد لهونا به لكنه صار إلى النار

فبلغ هذا البيت حماداً وهو على تلك الحالة ! فأجابه:

نبئت بشاراً نعانى ! وللمو ت برانى الخالق البارى
ياليتنى مت ولم أهجه نعم ! ولو صرت إلى النار
وأى خزى هو أخزى من أن يقال لى «ياسب بشار !»

ثم مات حماد بتلك الجهة ودفن على تلعة هناك. ولا يعرف هذا فى أى سنة وان كان صاحب الخزانة ينص على انه قتل سنة ١٦٦ على الزندقة وهذه رواية نراها ضعيفة تفتقر إلى إثبات ... وهناك رواية ثالثة مثل هذه فى الضعف تقول ان محمد بن سليمان أرسل اليه من قتله وبر بعينه ولكنها لم تقل فى أى سنة كان ذلك !؟

وتبدأ الآن فى سرد أهاجى بشار فى حماد. فما هجاه به قوله:

أتذكر إذ ترعى على الحى شاءهم وأنت شريك الكلب فى كل مطعم
وتلحس ما فى القعب من فضل سؤره وقد عاش فيه باليدين وبالفم

وقوله :

وأفسى من الظربان في ليلة الكرى ... واخلف من صقر وان كان قد طعم

وهو كما ترى لا يرفث في هجائه ولكنه اضطر لأن يقابل حماداً ولا يرفث في هجائه إياه حتى قال حماد :

مَنْ كان مثل أبيك — يا ... أعمى — أبوه فلا أباله
أنت ابن برد ! مثل بر ... د في النذالة والرذاله
زجرتك عن حجر استها ... في الحش جارية غراله
من حيث يخرج جعد منـ ... ـتنة مدنسة مذاله
أعمى ! كست عينيه من ... وذح استها ! وكست قذاله
خنزيرة بظراء منـ ... ـتنة البداهة والعلاله
وشماء خضراء المغا ... بن ! ريحها ريح الأهاله
عذراء حبلى ! بالقو ... مي للمخانة والضلاله
مرقت فصارت قحبة ... بجمالة وبلا جماله
ولقد أقلتك يا ابن بر ... د فاجترأت ! فلا إقاله

فلما بلغت هذه الأبيات بشاراً أطرق طويلا ثم قال . جزى الله ابن نهى — وهى أم حماد — خيراً !! فقيل له علام تجزيه الخير ؟ على ما تسمع ؟ فقال نعم والله لقد كنت أرد على شيطاني أشياء من هجائه ابقاء على المودة . فلقد أطلق من لساني ما كان مقيداً عنه . وأهدفني عورة ممكنة .... فلم يزل بعد هذا يذكر أم حماد في هجائه

إياه ويذكر أباه أقبح ذكر . فلما ماتت أم حماد قال يخاطب جاراً لحماد واتهمه بأمه !

« أبا حامد » إن كنت تزنى فابعد وابلك خراً ولت به أم عجرد
خراً كان للغراب سهلا ! ولم يكن أبياً على ذى الزوجة المتودد
لقد كان للأدنى وللجار والعدى وللقاصد المعترّ والمتردد
أصيب زناة القوم لما توجهت به أم حماد الى مضجع الردى

وقال :

يا قوم ! من يعذر فى عجرد القاتل المرء على الدانق
لما رأى ميزانه شائلا وجاه بين الأذن والعاتق
مالمت حماداً على فسقه يلومه الجاهل والمائق
وما أنا من أيره واسته ملّكه إياهما الخالق
ما بات الا فوقه فاسق عليه ! أو تحته فاسق

وكان لحماد صاحب يقال له « حريث بن أبى الصلت الثقفى » فلما مات حماد عجرد أبى بشار أن يقف عن هجائه فقال لذلك الصاحب على سبيل التعزية :

بكى « حريث » فوقره بتعزية مات «ابن نهى» وقد كاناشريكين
تفاوضا حين شابا فى نسائهما وحللا كل شىء بين رجلين
أمسى حريث بما أسدى له وغدا كراكب اثنين يرجو قوة اثنين
حتى اذا أخذا فى غبر وجههما تفرقا ! وهوى بين الطريقين

يعنى انه كان يقول بقول الثنوية فى عبادة اثنين . فتفرقا وبقى بينهما حائراً — كذلك يقول صاحب الأغانى !

والبيت « تفاضا حين شابا فى نسائهما ... » فيه التفات الى « المزدكية » التى يعرفها بشار جد المعرفة . وهو مذهب اشتراكى اباحى . ملخصه : مادامت الأموال والنساء هى سبب كل الحروب والشقاق حتى بين افراد الأمة أنفسهم . فلتكن هذه الأموال مشتركه بين افراد الأمة . ولتكن النساء مشاعة للجميع !؟؟ و « تفاوضا » جعلا النساء فوضى بينهما ...

وحدث « السرى بن الصباح » قال . دخلت على بشار بالبصرة فقال أما إنى قد أوجعت صاحبكم وبلغت منه — يعنى حماد — قلت بماذا يا أبا معاذ ؟ فقال بقولى

يا « ابن نهبى » رأس علىَّ ثقيل ... واحتمال الرأسين خطب جليل
أدع غيرى الى عبادة الاثـ ... ـنين فانى بواحد مشغول
يا ابن نهبى ! برئت منك الى الله ... ـه جهاراً ! وذاك منى قليل

فقلت له قد بلغ حماداً هذا الشعر ولكنه يرويه على خلاف هذا قال فما يقول ؟ قلت يقول « فانى عن واحد مشغول » فلما سمعه اطرق وقال أحسن والله ابن الفاعلة !! ثم كان يقول — اذا سئل عن هذه الأبيات — ليست هى لى !؟

وقال حماد : والله ما أبالى بهذا من قوله . وانما يغيظنى منه تجاهله

بالزندقة . فيوهم الناس ان الزنادقة تعبد رأسا ليظن الجهال انه لا يعرفها لأن هذا قول تقوله العامة لا حقيقة له — وهو والله أعلم بالزندقه من مانى !!

والزندقة أو المانوية مذهب من مذاهب الفرس أتى مصدقا لما بين يديه من المذهب الزرادشتى متفقا معه على ان فى الكون الهين اثنين أحدهما اله النور أو الخير والثانى اله الظلمة او الشر . لذلك تسمى الزراد شتيه والمانوية «الثنوية» ولذلك تعتبر المانوية فرعا من فروع الزرادشتية حيث اتفقت معها فى الأصل وفى كثير من الفروع . فيقول الجوهرى فى الصحاح «الزنديق — أى المانوى» — من الثنوية وهو معرب ، وكلام حماد حجة في ان الزنديق فى ذلك العهد تطلق على المانوى حيث يقول «اعلم بالزندقة من مانى» وقد أوردنا هذه النبذة لاختلاف الأدباء على دلالة كلمة زنديق !؟؟

وكتب بشار الى الربيع بن الفضل حاجب المنصور وكان حماد قد اتصل به يؤدب ولده :

يا «أبا لفضل» لا تنم   وقع الذئب فى الغنم
ان حماد عجرد   إن رأى غفلة هجم
بين فخذيه «حربة»   فى غلاف من أدم
ان خلا البيت ساعة   مجمج «الميم» ... «بالقلم»

فلما قرأها الربيع طرده وأخرجه من بيته مهانا . وقال صيرفى

حماد دريئة الشعراء ... فكانت هذه أكبر ضربة نزلت على حماد أذهلته زمانا . وأثرت أكبر أثر فى علاقته مع معارفه من الأمراء . فان عيسى بن عمرو كان يواصله أيام خدمته للربيع . فلما طرده الربيع كما تقدم جفاه عيسى — وانما كان يصله لحوائج كان حماد يتوسط لقضائها عند الربيع — فقال حماد هذه القطعة المملوءة بالألم :

كم من أخ لك لست تنكره ... ما دمت من دنياك فى يسر
متصنع لك فى مودته .... يلقاك بالترحيب والبشر
يطرى الوفاء وذا الوفاء ! ويلـ ... حى الغدر مجتهداً وذا الغدر
فاذا عدا — والدهر ذو غِيَرٍ ... دهر عليك ! عدا مع الدهر
فارفض باجمال مودة من ... يَقْلِي المقلّ ! ويعشق المثرى
وعليك من حالاه واحدة ... فى العسر إما كنت واليسر
لا تخلطنهم بغيرهم ... مَنْ يخلط العِقْبان بالصقْر ؟ ؟

وأخذ أبو نواس من هذه الحادثة درسا نافعا فى الهجاء . فاستعمل هذه الطريقة مع قطرب النحوى عند ما ندبه الرشيد لتعليم الأمين . وكان أبو نواس يطمع فى أن يجعل هو مؤدبه . فلم يتم له ذلك لتهتكه وشهرته به بين الناس . فلما تمكن قطرب فى موضعه صار النواسى كالملقى على الرضف — فقد كان يتعشق الأمين — فجعل يقوم ويقعد بقطرب فى الناس . ثم أخذ رقعة فكتب فيها .

قل للامام جزاك الله صالحة لاتجمع الدهر بين السخل والذيب
السخل غر وهم الذئب فرصته والذئب يعلم ما فى السخل من طيب

فلما قرأ الرشيد هذين البيتين ! قال انظروا لا يكون هذا المؤدب لوطيا ! ؟ انفوه من الدار ... فاخرج عنها ... وجىء بمؤدب غيره ووكل به تسعين خادما يتناوبون يحفظون الامين الصبى ! ... وخرج قطرب هاربا مما شهر به الى « عيسى بن ادريس بن أبى دلف » فأقام معه بالكرخ الى أن مات رحمه الله تعالى

وضرب بشار على نغمة الزندقة فأشاع فى الناس أن حماد عجرد كان ينشد شعراً ورجل بأزائه يقرأ القرآن وقد اجتمع عليه الناس . فقال حماد علام اجتمعوا ! ؟ فوالله لما أقول أحسن مما يقول ! قال بشار فاما سمعت هذا من حماد مقته عليه !!

ومر بك ان بشارا يسمى حماداً « النبطى » فأخرجه بذلك من العرب والفرس . وقام بعضهم ينفى عنه ذلك . قال الاغانى : وكان يحيى ابن عمرو أبو حماد عجرد مولى لبنى هند بنت أسماء بن خارجة الفزارى . وكان مقيما لها فى ضيعتها بالسواد فنبطه بشار وهجا حماد فقال :

واشدد يديك لحماد أبى عمر فانه « نبطى من دنانير

فقيل لصالح بن سليمان الخثعمى إن بشارا المرعث هجا حماداً فنبطه . فقال رأيت جد حماد وكان يسمى كايبا وكانت صناعته لا يكون فيها نبطى . كان يبرى النبال ويريشها . فكان يقال له كليب النبال !!

وللفصل فى أفضلية الشاعرين وقيمة هجائهما . فروى آراء الادباء فى ذلك العهد .... حكى «محمد بن النطاح» أخوا «بكر بن النطاح الحنفى» الشاعر الفارس المشهور . قال . كنت شديد الحب لشعر حماد عجرد . فأنشدت يوما أخى بكر قوله :

أسأت فى ودى لمن أسانا   أساءة لم تبق إحسانا
قرعت سنى نادما سادما   لو كان يغنى ندمى الآنا
ياضيعة الشعر ! ويا سوأتا   لى ! ولأزمانى أزمانا
من بعد شتمى «القرد» لا والذى   أنزل توراة وقرآنا
ما أحد من بعد شتمى له   أنذل منى ! كان من كانا

فقال لى لمن الشعر ؟؟ فقلت لحماد عجرد . فأنشأ متمثلا :

ما يضر البحر أمسى زاخرا   ان رمى فيه غلام بحجر

ثم قال يا أخى إيش هذا الشعر !؟ إن نسيانه أذين بك : والحر من كان أستر على قائله !!

وقال على بن المهدى — : أجمع علماء البصرة أنه ليس فى هجاء حماد عجرد لبشار الا اربعون بيتا معدودة . ولبشار فيه من الهجاء أكثر من ألف بيت جيد — فانظر الى الكثرة الضائعة من شعر بشار — وكل واحد منهما قد هتك صاحبه بالزندقة وأظهرها عليه . فسقط حماد وهتك بفضل بلاغة بشار وجودة معانيه . وبقى بشار على حاله لم يسقط !!

بشار وسيبويه:

سيبويه هو إمام البصريين . كنيته «أبو بشر» واسمه «عمرو ابن عثمان» . ولد بفارس ونشا بالبصرة فنبغ فى النحو وأحاط بأصوله وفروعه . بعد أن لازم الخليل بن أحمد . ثم ألف كتابه المشهور !

وتناظر هو والكسائى فرجح عليه . ولكن الأمين تعصب لأستاذه الكسائى وتحامل المجلس كله عليه ارضاء للأمين . وكانت المناظرة فى كلمة قالها الكسائى وهى «كنت أظن الزنبور اشد لسعا من النحلة فاذا هو إياها» فقال سيبويه ليس كذلك بل «فاذا هو هى» ولا يجوز النصب أبداً . وهذا هو الحق . ولكن الأمين وشيعته أتوا بأعرابى ورشوه على ان يقول ان الحق مع الكسائى . ففعل . وعلم سيبويه انهم تحاملوا عليه . فخرج من بغداد وقد حمل فى نفسه لما جرى عليه فمات فى طريقه الى فارس بقرية من قرى شيراز يقال لها البيضاء سنة ١٧٧

أما اصطدامه ببشار فلنقده بيتا من قصيدته التي يمدح بها المهدى يقول فيه يصف السفينة التى جاء عليها من البصرة :

تلاعب نينان البحار ! وربما رأيت نفوس القوم من جريها تجرى

فعابه سيبويه وقال انه ليس من كلام العرب وأن «النون» وهو الحوت لا يجمع على «نينان» فقال بشار :

سيبويه ! ياابن الفارسية ! ماالذى تحدثت من شتمى ؟ وما كنت تنبذ ؟

أظلت تغنى سادراً فى مساءتى ... وأمك بالمصرين تعطى وتأخذ !؟

وقد كذب هذا المعرى فى رسالة الغفران تكذيب شك . وسنناقشه بعد أن نورد أقواله . قال : وحكى عنه انه عاب عليه قوله

على « الغزلى » منى السلام ! فطالما ... لهوت بها فى ظل مرئومة زهر

وقال لم تستعمل العرب « الغزلى » . . . فقال بشار هذا مثل قولهم « البشكى » و « الجمزى » ونحو ذلك . . . وجاء بشار فى شعره بالنينان فيقال انه أنكره عليه . وهذه أخبار لاتثبت . وفيما روى فى كتاب سيبويه ان « النون » يجمع على « نينان » فهذا نقض للخبر !

وذكر من نقل أخبار بشار إنه توعد سيبويه بالهجاء . وانه تلافاه واستشهد بشعره . ويجوز أن يكون استشهاده به على نحو مايذكره المتذاكرون فى المجالس ومجامع القوم . وأصحاب بشار يروون له هذا البيت :

وما كل ذى لب بمؤتيك نصحه ... وما كل مؤت نصحه بلبيب

وفى كتاب سيبويه نصف هذا البيت الآخر . وهو فى باب الادغام لم يسم قائله . وزعم غيره أنه لأبى الاسود الدؤلى !

وهنا ينتهى كلام المعرى . ولا نجد فيه شيئا يستحق المناقشة الا قوله أن سيبويه ذكر فى كتابه أن النون يجمع على نينان . فان هذا لا ينقض الخبر فربما كان سيبويه شاكا فى جمع النون ولم يمر عليه كيف تجمعه العرب . فلما ذكره بشار وناقضه فيه حتى قيل ان بشار غيره

وقال « تيار البحار » بدلا من « نينان البحار » ... رجع سيبويه بعد ذلك يبحث عن جمع النون حتى عثر عليه ووجد ان الحق مع بشار فذكره فى كتابه كى لايقع سواه فى هذا الخطا الذى وقع هو فيه !!

وقد دافع المعرى عن سيبويه أيضا فى التهمة التى وجهت اليه من أنه هو الذى وشى ببشار إلى المهدى . قال : وزعموا أنه — اى بشار — كان بشار سيبويه . وانه حضر يوما حلقة يونس بن حبيب النحوى . فقال هل هنا من يرفع خبراً . قالوا لا ! فأنشدهم « بنى أمية هبوا من رقادكم ... » وكان فى الحلقة سيبويه فيدعى بعض الناس إنه وشى به ... وسيبويه — فيما أحسب — كان أجل موضعا من أن يدخل فى هذه الدنيات بل يعمد لأمور سنيات !!

بشار والاخفش الأوسط:

واصطدم الاخفش أيضا ببشار . وهو أبو الحسن سعيد بن مسعدة الاخفش النحوى البصرى — وهو الاخفش الاوسط — كان من أئمة اللغة وأخذ النحو عن سيبويه مع أنه كان أكبر منه . فكان يقول « ماوضع سيبويه فى كتابه شيئا الا بعد أن عرضه على » وهو الذى زاد في العروض بحر الخبب ... وكانت وفاته سنة ٢١٠ هجرية

والآن أقصر عن سمية باطلى   وأشار بالوجلى على مشير

وقوله :

على الغزلى منى السلام فربما   لهوت بها فى ظل مرثومة زهر

وقوله :

تلاعب نينان البحار ! وربما رأيت نفوس القوم من جريها تجرى

فقال لم يسمع من الوجل والغزل « فعلى » ، ولم أسمع بنون ونينان — أنظر ردنا على المعرى فى الكلام على سيبويه — فبلغ ذلك بشاراً فقال . ويلى على القصارين ! متى كانت الفصاحة فى بيوت القصارين ؟؟ دعونى وإياه . . . وعزم على هجائة ! !

فبلغت كلمته الاخفش . فبكى وجزع . فقيل له ما يبكيك ؟ فقال وما لا أبكى وقد وقعت فى لسان بشار الاعمى !؟ فذهب أصحابه إلى بشار فكذبوا عنه واستوهبوا منه عرضه . وسالوه الا يهجوه !! فكف عن ذكره . وصار الاخفش بعد ذلك يحتج بشعره كتبه . . . وتوفاه أيضا أستاذه سيبويه . فكان إذا سئل عن شىء فأجاب وعنة ووجد لة شاهداً من شعر بشار احتج بهٔ استكفاء لشره !!!

بشار وأبو دهمان الغلابى

أبو دهمان شاعر من شعراء البصرة ممن أدرك الدولتين . وهو فى أهل بيت بالبصرة يعرفون ببنى غلاب وهو جد لهم من محارب ابن خصفة . وكان طيبا ظريفا مليح النادرة فهو القائل لما ضرب المهدى أبا العتاهية بسبب عشقة عتبة :

لولا الذى أحدث الخليفة فى الـ عشاق من ضربهم إذا عشقوا

لبحت باسم الذى أحب ! ولكـ نى امرؤ قد ثنانى الفرَق

ووقعت له مع بشار هذه النادرة :

مر أبو دهمان ببشار يوما وهو جالس على بابه وحده وبيده مخصرة يقلبها بأصابعه . وقدّامه طبق فيه تفاح واترج . فلما رآه وليس معه أحد تاقت نفسه إلى مداعبته وأن يسرق مابين يديه . فجثا قليلا ومدّ يده ليتناول الطبق . فرفع بشار القضيب خلسة وضربه ضربة على يده كادت تكسرها . فقال أبو دهمان قطع الله يدك ياابن الفاعلة .. أأنت أعمى !؟ فقال بشار يا أحمق ! فاين الحس ؟؟

الفصل الرابع

خاتمة

بشار والمهدى

ولى المهدى الخلافة وبشار قد طار صيته في العراق العربى . فاتصل به شاعرنا اتصالا وثيقا . فقد كان مقيما ببغداد من عهد المنصور كما تقدم . وجعل بعد ذلك يتردد على البصرة ثم يفد على المهدى فى كل سنة . ولقد برزت شخصيته آن ذاك وتجلت شاعريته المطبوعة وبزغت قصائده المحبرة فتغلغلت أشعتها فى البلاط العباسى فأيقظت مشاعر من فيه ونبهت عواطفهم ورسمت لهم خوالجهم وصورت أحلامهم . فنمت شجيرات الترف واللهو التى غرسها المهدى فى البيت العباسى تحت أشعة هذه الشمس البازغة فى سماء البيان العربى . ولولا ما اشتهر به المهدى — أو ماطبع عليه — من الغيرة الشديدة مما جعله أخيراً يقصى الشاعر وينبذه نبذ النواة . ما كانت خاتمة بشار على هذا الوجه المنكر !!

وأول ما بدأ بشار فى مدح المهدى كان فى السنة الأولى من

خلافته سنة ١٥٩ عندما توسط له روح بن حاتم المهلبى كما مر بك . ولم يصلنا ماامدحه به والمفهوم انه تهنئة بالخلافة .

ثم قدم من البصرة في السنة الثانية سنة ١٦٠ وكان المهدى بالرصافة فدخل عليه البستان وأنشده مديحا فيه تشبيب حسن . فنهاه عن التشبيب والغزل وأمره أن يقول مديحا خالصا . فقال :

مديح خالص

كأنما جئته أبشره ولم اجىء راغبا ومحتلبا
يزين المنبر الاشم بعط فيه ! وأقواله إذا خطبا
تشم لفلاه فى الندى كما يشم ماء الريحان منتهبا

فأعطاه خمسة آلاف درهم وكساه وحمله على بغل . وجعل له وفادة فى كل سنة . ونهاه عن التشبيب البته ! ولكن بشاراً لم ينته فأضر بنفسه اضراراً شديداً . فانه لما قدم على المهدى فى السنة الثالثة وامتدحه بقصيدته الرائية — وستمر بك — أعطاه وفادته المعتادة ولم يتعطف عليه . ثم أعرض عنه اعراضا تاما وأقام بشار سنة كاملة يستعطف فيه ولكن ذلك لم يجد شيئا فارتحل من بغداد إلى البصرة وتغزل ماشاء فى قالب غريب يذكر فيه أن المهدى نهاه عن التشبيب ثم يتغزل فى أثناء كلامه حتى انه لم يترك ذلك النوع من الغزل ولا فى قصيدته التى رثى بها ندماءه . ثم لما تضايق هجا المهدى ووزيره يعقوب بن داؤد فحاكماه وبتهمة الزندقة وقتلاه بالبصرة !!

ومما يدلنا على ذلك الاتصال الوثيق ! هذه الحكاية — : دخل المهدى إلى بعض حجر الحرم فرأى جارية تغتسل . فلما رأته حصرت ووضعت يدها على فرجها . فقال المهدى « نظرت عيني لحيني » ثم ارتج عليه . فقال من بالباب من الشعراء ؟ قالوا بشار . فأذن له فدخل . فقال له أجز :

نظرت عينى لحينى . . . . . .

فقال :

نظرت عينى لحيني   نظراً وافق شينى
سترت لما رأتني   دونه بالراحتين
فضلت منه فضول   تحت طي العكنتين

فقاطعه المهدى قائلا : قبحك الله ! ا كنت ثالثنا ؟ ثم ماذا ؟ فقال :

فتمنيت وقلبي   للهوى في زفرتين
إنى كنت عليه   ساعة أو ساعتين

فضحك المهدى وأمر له بجائزة : فقال يا أمير المؤمنين أقنعت من هذه الصفة بساعة أو ساعتين ؟؟ فقال اخرج قبحك الله !!

ونفهم من هذا أن بشاراً كان رجلا ذكيا حقا وذا خبرة بدخائل القصر وما يجرى فى حجره . ويؤيد هذا المؤرخين القائلين ان المهدى كان أول خليفة عباسي اكب على اللهو والقصف حى عاتبه فى ذلك وزير يعقوب بن داؤد فسخط عليه المهدى وتعلل حتى حبسه عند

ما كثرت الوشايات على هذا الوزير !

ومن الأدلة على استسلام المهدى لشهواته حكاية استمتاعه بالاختين «الخيزران» و «أسماء» . . . فقد كانت الخيزران لرجل من ثقيف باعها بمكة . فاشتراها رجل وعرضها على أمير المؤمنين المنصور . فقال لها من أين أنت ؟ قالت المولد مكة والمنشأ حرش . قال ألك أحد ؟ قالت مالى أحد إلا اله وما ولدت أمى غيرى . فقال ياغلام اذهب بها إلى المهدى وقل له هذه تصلح للولد !

فلما أتى بها إليه وقعت منه أحسن موقع . ومكثت عنده فولدت له موسى وهرون . عندذلك قالت لى أختان ولى أم وأخوان . فكتب إليهم المهدى بالمجىء . فلما جىء بهم تزوج جعفر بن المنصور إحدى أختيها وتسمى «سلسل» وبقيت أختها الثانية «أسماء» بكراً !!

فقال المهدى للخيزران : قد ولدت رجلين وقد بايعت لهما بالخلافة . وما أحب أن تبقين أمة بل أحب أن أعتقك . ولذا فيجب أن تخرجين إلى مكة وتقدمين بعد الحج فأتزوجك . فقالت الصواب رأيت يا أمير المؤمنين . فأعتقها من ساعته وخرجت بعد أيام إلى مكة . فلما أيقن ببعدها أرسل إلى أختها أسماء وأمهرها ألف ألف درهم وتزوجها ومكث معها مدة . فلما أحس بقدوم الخيزران خرج إليها يستقبلها . فقالت له ما خبر أسماء ! وكم وهبت لها ! فقال ومن أسماء ! قالت امرأتك ! فقال ان كانت أسماء امرأتى فهى طالق ! فقالت له طلقتها حين علمت

بقدومى . فقال أما وقد علمت فقد أمهرتها ألف ألف درهم ... ثم تزوج الخيزران وطلق أختها ويظهر لى أن بقدر حب الرجل للنساء تكون غيرته وبذلك يمكننا أن نعلل غيرة المهدى الشديدة التى جعلته يمنع بشاراً أن يتغزل !!

وإليك أيضا بعض حوادث الاتصال بين الخليفة والشاعر — :
بعث إليه المهدى يقول له . قل فى الحب شعراً ولا تطل . واجعله قاضيا بين المحبين ! ولا تسم أحداً . فقال :

قضاء الحب !

اجعل الحبّ بين حِبّي وبيني ... قاضيا ! انى به اليوم راضى
فاجتمعنا ! فقلت يا حب نفسى ... ان عينى قليلة الاغماض
انت عذبتنى وانحلت جسمى ... فارحم اليوم دائم الامراض
قال لى : لا يحل حكمى عليها ... انت أولى بالسقم والأمراض
قلت — لما أجابنى بهواها — : ... شمل الجور فى الهوى كل قاضى

فبعث اليه المهدي : حكمت علينا ووافقنا على ذلك .... ثم أمرله بألف دينار !

ودخل بشار على المهدى وقد عرضت عليه جارية مغنية يسمع فى غنائها وهو في غاية الطرب ، فقال لبشار قل فى صفتها شعراً . فقال :

ورائحة ! للعين فيها مخيلة ... إذا ابرقت لم تسق بطن صعيد
من المستهلات السرور على الفتى ... خفا برقها فى عصفر وعقود

حسدت عليها كل شيء يمسها ... وما كنت — لولا حبها — بحسود

***

وأصفر مثل الزعفران شربته ... على صوت صفراء الترائب رود
من البيض! لم تسرح على أهل ثلة ... سواما! ولم ترفع حدوج قعود
كأن أميراً جالسا فى ثيابها ... تؤمل رؤياه عيون وفود
كأن لسانا ساحراً فى كلامها ... أعين بصوت للقلوب صيود
تميت به ألبابنا وقلوبنا ... مراراً! وتحييهن بعد همود
إذا نطقت صحنا وصاح لنا الصدى ... صياح جنود وجهت لجنود
ظللنا بذاك الديدن اليوم كله ... كأنا من الفردوس تحت خلود
ولا بأس! الا اننا عند أهلنا ... شهود! وما ألبابنا بشهود

وقال أيضاً:

وصفراء مثل الخيزرانة لم تعش ... ببؤس! ولم تركب مطية راعى
إذا قلدت اطرافها العود زلزلت ... قلوبا دعاها للوساوس داعى
لعمر أبى زوارها الصيد انهم ... لفى منظر منها وحسن سماع
كأنهم فى جنة قد تلاحقت ... محاسنها! من روضة وبقاع
يروحون من تغريدها وحديثها ... نشاوى! وما تسقيهم بصواع
تصلى لها آذاننا وعيوننا ... إذا ما التقينا والقلوب دواعى
لعوب بألباب الرجال! وإن دنت ... أطيع التقى! والغى غير مطاع

ومن نوادر بشار أثناء تردده على المهدى هذه النادرة — : كان

بشار جالسا فى دار المهدى والناس ينتظرون الأذن · فقال مولى من موالى المهدى يقال له « المعلّى بن طريف » ما عندكم في قوله الله عز وجل « وأوحى ربك الى النحل ان اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر » فبدر بشار قائلا — النحل التى يعرفها الناس — قال هيهات يا أبا معاذ ! النحل بنو هاشم · وقوله « يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس » يعنى العلم ··· فقال له بشار جعل الله طعامك وشرابك وشفاءك فيما يخرج من بطون بنى هاشم · فقد أوسعتنا غثاثة ! فغضب وشتم بشاراً · وبلغ الخبر المهدى فدعا بهما وسألهما عن القصة . فحدثه بشار بها · فضحك حتى أمسك على بطنه · ثم قال للمولى · جعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطون بنى هاشم · فانك بارد غث !

وحدّث بشار عن نفسه · قال · دخلت على المهدى فقال لى فيمن تعتد يا بشار ؟؟ فقلت أما اللسان والزىّ فعربيان . وأما الأصل فعجمى كما قلت فى شعرى :

ونبئت قوما بهم جنة ... يقولون من ذا ؟ وكنت العلم
الا أيها السائلى جاهداً ... ليعرفنى ! أنا أنف الكرم
نمت فى الكرام بنى عامر ... فروعى ! وأصلى قريش العجم
وانى لأغنى مقام الفتى ... وأصبى الفتاة فلا تعتصم

وكان « أبو دلامة » حاضراً فلما سمع البيت الأخير قال : كلاّ فوجهك أقبح من ذلك ووجهى مع وجهك · فقال بشار · كلا !

والله ما رأيت رجلا أصدق على نفسه وأكذب على جليسه منك!!
والله انى لطويل القامة تام الالواح اسجح الخدين . ولرب مسترخى المزورين للعين فيه مراد قد من الفتاة حجرة وجلست منها حيث أريد ... أفأنت مثلى يامرضعان ! ؟

فسكت أبو دلامة !! ثم قال له المهدى . فمن أى العجم أصلك ؟ قال من أكثرها فى الفرسان وأشدها على الاقران أهل طخارستان . فقال بعض الحاضرين اولئك الصُغْد . قال لا ! الصغد تجار . . . فلم يردد ذلك المهدى ! !

ودخل « يزيد بن منصور الحميرى » على المهدى وبشار عنده ينشده قصيدة امتدحه بها . فلما فرغ أقبل عليه يزيد — وكانت فيه غفلة — فقال ياشيخ ما صناعتك ؟ قال أثقب اللؤلؤ ! فضحك المهدى وقال لبشار اعزب ويلك ! اتتنادر على خالى ؟ ؟ فقال وما أصنع به ؟ يرى شيخاً أعمى ينشد الخليفة شعرا ويسأله عن صناعته ؟ ؟

وكان يزيد سيداً شريفاً يتعصب لليمن وحمير وقد انقطع له أبو محمد اليزيدى « يحيى بن المبارك التميمى » انقطاعا تاما حتى نسب اليه وسمى « اليزيدى » وحتى ترك ذلك أثراً بليغا فى شعره إذ كان يمدح اليمن وحمير حتى وفى غير مناسبة !

وقد غضب يزيد على بشار لتنادره عليه . فدخل فيما بعد على المهدى — وكان يعلم مقدار غيرته — فضرب له على هذا الوتر . . .

قال : يا أمير المؤمنين قد فتن النساء بشعر هذا الاعمى . فأى امرأة لاتصبو الى مثل قوله . . . وأشار الى هذه القصيدة :

طال هذا الليل ! بل طال السهر ... ولقد أعرف ليلى بالقصر
لم يطل حتى جفانى شادن ... ناعم الاطراف فتان النظر
لى فى القلب منه لوعة ... ملكت قلبى وسمعى والبصر
فكأن الهجر شخص ماثل ... كلما ابصره النوم نفر
أيها النوام هبوا ويحكم ... وسلونى اليوم ما طعم السهر

☆☆☆

عجبت فطمة من نعتى لها ! ... أيجيد النعت مكفوف البصر ! ؟
بنت عشر وثلاث ! قسمت ... بين غصن وكثيب وقمر
درة بحرية مكنونة ... مازها التاجر من بين الدرر

☆☆☆

أذرت الدمع وقالت : ويلتى ... من ولوع الكف ركاب الخطر
امتى ! بدد هذا لعبى ... ووشاحى حله حتى انتثر
فدعينى معه يا أمتى ... علنا فى خلوة نقضى الوطر
فاقبلت فى خلوة تضربها ... واعتراها كجنون مستعر
بابى والله ما أصنعه ... دمع عين ـ غسل الكحل ـ قطر

فنهى المهدى بشاراً عن الغزل وألح عليه فى ذلك لأنه مجاهرة بالفسق وتحريض عليه ! ولم يكن بشار جاهلا غيرة المهدى . بل كان

بها جدّ عليم . ولكنه كما يقول — يأبى أن يعطى ضيما عليه فى شجنه!!

فقد جلس المهدى للشعراء يوما وأذن لهم . وفيهم بشار وأبو العتاهية وأشجع السلمى — وكان اشجع يأخذ عن بشار ويعظمه— فلما سمع بشار كلام ابى العتاهية قال لاشجع . يا اخا بنى سليم اهذا ذلك الكوفى الملقب ؟ ؟ قال نعم ! قال لاجزى الله خيراً من جمعنا معه . . . ثم أنشد أبو العتاهية :

الا مالسيدتى ؟ ما لها ؟ أدلا فاحمل ادلالها ؟

فقال بشار لاشجع « ويحك يااخا بنى سليم ! ما أدرى من أى أمريه أعجب ! أمن ضعف شعره ؟ . . . أم من تشبيبه بجارية الخليفة وهو تسمع بأذنه ! » فلما انتهى الى قوله :

اتته الخلافة منقادة اليـه تجرر أذيالها

قال بشار لاشجع — وقد اهتز طربا — ويحك يا أخا بنى سليم! أترى الخليفة لم يطر عن فراشه لما يأ تى به هذا الكوفي ؟ ؟

وقالت جوارى المهدى للمهدى « لو أذنت لبشار ان يدخل الينا ويؤانسنا وينشدنا . فهو محجوب البصر لا غيرة عليك منه » فأمره فدخل عليهن . فاستظرفنه وقلن له . وددنا والله يا أبا معاذ أنك أبونا حتى لا نفارقك . فقال يشار . ونحن على دين كسرى ! !

فبلغت المهدى كلمته هذه فأمر ألا يدخل عليهن بعد هذه المرة . . .

والسر فى هـذه النكتة انهم حينما يصيرون على دين كسرى وهو

المجوسية جاز له ان يتزوج فى « بناته » وينكح منهن !.. قال الحصرى القيروانى . وكان المتنبى نظر الى هذا فقال :

يا أخت معتق الفوارس فى الوغى لأخوك ثم أرق منك وارحم
يرنو اليك مع العفاف وعنده ان المجوس تصيب فيما تحكم

فلما ألح المهدى على بشار في منعه عن الغزل دخل عليه « أبو عبيدة » مدافعا عن بشار . فقال . ما أحسب يا أمير المؤمنين شعر هذا الاعمى أبلغ فى هذه المعانى من شعر كثير وجميل وعروة وقيس. وتلك الطبقة !! فقال المهدى ليس من يسمع هذه الاشعار يعرف المراد فيها . وبشار يقارب النساء حتى لايخفى عليهن مايقول ومايريد! وأى حرة حصان تسمع قول بشار فلا يؤثر فى نفسها ، فكيف بالمرأة الغزلة أو التى لا هم لها الا فى الرجال !؟... ثم أشار الى هذه القصيدة التى يخاطب بها بشار « عمر بن سعيد » وقد كان ارسله اهل بشار اليه لينهاه عن التشبيب بجارية يقال لها « مكنونة » فكانت هذه القصيدة جوابا .

مغازل أشر

قد لامنى فى خليتي « عمر » واللوم فى غير كنهه ضجر
قال أفق !قلت لا ! فقال بلى قد شاع للناس منكم الخبر
قلت: إن شاع مااعتذارك مما ليس فيه من عندهم عذر
عجز لعمرى ! وليس ينفعنى! فكف عني العتاب يا عمر

وارجع اليهم وقل قد أبى   وقال لا افيق ! فانتحروا

☆☆☆

ماذا عليهم ؟ وما لهم !؟ خرسوا   لو أنهم فى عيوبهم نظروا
أعشق وحدى ويؤخذون به   كالترك تغزو فتؤخذ الخزر
لا استطيع الهوى وهجرتها   قلبي ضعيف ! وقلبها حجر
كأن وجدى بها وقد حجبت   فى الرأس والعين والحشا سكر
يا عجبا للخلاف ! يا عجبا !   بغى الذى لام فى الهوى الحجر

☆☆☆

حسبي ! وحسب الذى كلفت به   منى ومنه الحديث والنظر
أو قبلة فى خلال ذاك ! ولا   بأس إذا لم تحل لى الأزر
او عضة فى ذراعها ! ولها   فوق ذراعى من عضها أثر
أو لمسة دون مرطها بيدى   والباب قد حال دونه الستر
— والساق براقة مخلخلها —   أو مص ريق وقد علا البهر
واسترخت الاكف للعراك وقا   لت « إيه عنى » والدمع منحدر
« انهض ! فما أنت كالذى زعموا   أنت وربي مغازل أشر »
« قد غابت اليوم عنك حاضنتى   والله لى منك فيك ينتصر »
« يارب خذلى ! فقد ترى ضرعى   من فاسق جاء ما به سكر »
« أهوى الى معضدى فرضضه   ذو قوة — ما يطاق — مقتدر »
« الصق بى لحية له خشنت   ذات سواد ! كأنها الأبر »

« حتى علانى واسرنى غيب ويلى عليهم لو أنهم حضروا »
« أقسم بالله لا نجوت بها فاذهب فانت المساور الظفر »
« كيف بأمى اذا رأت شفتى ألم كيف ان شاع منك ذا الخبر »
« قد كنت أخشى الذى ابتليت به فيك ! فماذا أقول ؟ ياعبر ! »
قلت لها عند ذاك « يا سكنى لا بأس ! انى مجرب خبر »
« قولى لهـا بقة لها ظفر ان كان فى البق ما له ظفر ! »

وتروى الحكاية وبعض الابيات لمطيع بن اياس وهو خطأ. فلا شك فى أنها لبشار فان عليها طابعه الخاص الذى لا يختلط مع غيره !!

ولما تأكد بشار ان المهدى جاد معه اعتراه هوس فصار يذكر ذلك فى كل مناسبة من شعره . وجعل يمدح المهدى ويقول له انه قد ترك الغزل وقد ودع الغوانى . ثم يأخذ فى ذكر حوادثه الماضية والتأسف على الايام السالفة فلا يخلو ذلك من الغزل . ولا يرضى عليه المهدى ولا يسمع اليه . . . . واليك أمثلة من هوسه فى شعره عند ما حرم عليه الغزل . قال :

والله ! لولا رضى الخليفة ما أعطيت ضيما على فى شجنى
وربما الخير لابن آدم فى الكره ! وشق على الهوى على البذن
فاشرب على أبنة الزمان فما تلقى زمانا صفا من الأبن
الله يعطيك من نواضله والمرء يغضى عينا على الكمن

☆☆☆

قد عشت بين الريحان والراح والـ أزهار ! فى ظل مجلس حسن
وقد ملأت البلاد مابين يغـ بور الى القيران فاليمن
شعراً ! تصلى له العواتق والثيـ ب ! صلاة الغواة للوثن
ثم نهانى المهدى فانصرفت نفسى ! صنيع الموفق اللقن
فالحمد لله لاشريك له ليس بباق شىء على الزمن

وقال عند ما سأله «عمرو بن سمعان» أن يتغزل :

وقال «هات شوقنا !» فقلت له أنائم أنت يا عمرو بن سمعان !؟
أما سمعت بما قد شاع فى مضر وفى الحليفين من بكر وقحطان
قال الخليفة «لا تنسب بجارية إياك إياك ان تشق بعصيان»

وقال مادحا المهدى :

أفنيت عمرى ! وتقضى الشباب بين الحميا والجوارى الأواب
والآن شفعت أمام الهـدى وربما طبت لحب ! وطاب
لهوت حتى راعنى داعيا صوت أمير المؤمنين المجاب
لبيك ! لبيك ! هجرت الصبا ونام عـذالى ومات العتاب
أبصرت رشدى وتركت المنى وربما ذلت لهن الرقاب

☆☆☆

ياحامد القول — ولم يبله — سبقت بالسيب مساك السحاب
الفعل أولى بثناء الفتى ماجاءه من خطأ أو صواب
دع قول واه وانتظر فعله ينبى عن اللقحة ما فى الجلاب

إذا غدا المهدى فى جنده   أوراح فى آل الرسول الغضاب
بدا لك المعروف فى وجهه   كالظلم يجرى فى الثنايا العذاب

وقال :

يامنظراً حسنا رأيته   من وجه جارية ! فديته
لمعت الى تسومنى   ثوب الشباب ! وقد طويته
والله رب محمد   ما ان غدرت ! ولا نويته
امسكت عنك ! وربما   عرض البلاء وما ابتغيته
ان الخليفة قد أبى   واذا أبى شيئا أبيته
ومخضب رخص البنا   ن بكى على وما بكيته
قام الخليفة دونه   فصبرت عنه وما قليته
ونهانى الملك الهما   م عن النساء فما عصيته
بل قد وفيت ولم أضع   عهداً ! ولا وعداً وعدته

☆☆☆

وأنا المطل على العدى   واذا غلا الحمد اشتريته
أصفى الخليل اذا دنى   واذا نأى عنى نأيته
وأميل فى أنس الند   يم عن الحياء ! وما اشتهيته
ويشوقنى بيت الحبيـ   ـب اذا غدوت ! وأين بيته ؟

وكان الخليل بن احمد يستحسن هذه القصيدة ويعجب بها :
وكذلك كان قائلها . . فقد حدث « الفضل بن يعقوب » قال .

كنا عند جارية لبعض التجار بالكرخ تغنينا وبشار عندنا . فغنت قوله « إن الخليفة قد أبى ... » فطرب بشار وقال هذا والله أحسن من سورة الحشر ! !

وقال الجاحظ : ان المهدى نهى بشاراً عن الغزل والنسيب · فقال هذه الأبيات ! فغضب عليه المهدى وأعرض عنه ·

وقال بشار أيضا :

يامرحبا ألفا وألفا — بالكاسرات إلى طرفا
رجح الروادف كالظبا — ء إتعرضت حواً وو طفا
انكرن مركبى الحما — ر !وكن لاينكرن طرفا
وسألنى « أين الشبا — ب؟» فقلت بان وكان حلفا
أفنى شبابى فانقضى — حلف النساء تبعن حلفا
أعطيتهن مودتى — فجزيننى كذبا وخلفا
وقصائد مثل الرقى — أرسلتهن فكن شغفا
أوجمن كل مغازل — وعصفن « بالغيران » عصفا
من كل لذات الفتى — قد نلت نائلة وعرفا
صدت الاوانس كالدمى — وسقيتهن الخمر صرفا

ثم قدم على المهدى فى السنة الثالثة من خلافته سنة ١٦١ وامتدحه بهذه القصيدة واصفا السفينة التى قدم عليها من البصرة إلى بغداد :

وداع الغوانى

تجاللت عن فهر وعن جارتى فهر ... وودعت «نعمى» بالسلام وبالبشر
فقالت «سليمى» : فيك عنا جلادة ... محلك دان والزيارة عن غفر !!
أخى فى الهوى ! مالى أراك جفوتنا ... وقد كنت تقفونا على العسر واليسر
تثاقلت ! إلا عن يد استفيدها ... وزورة أملاك أشد بها أزرى
وأخرجني عن وزر خمسين حجة ... فتى هاشمى يقشعر من الوزر
دفنت الهوى - حيا - فلست بزائر ... سليمى ! ولا صفراء ! ما قرقر القمرى

***

ومصفرة كالزعفران جلوتها ... إذا اجتليت مثل المفرطحة الصفر
ورب ثقال الردف هبت تلومنى ... ولو شهدت قبرى اصلت على قبرى
تركت لمهدى الأنام وصالها ... وراعيت عهداً بيننا ليس بالختر
ولولا أمير المؤمنين محمد ... لقبلت فاها ! أو لكان بها فطرى

***

على الغزلى منى السلام ! فربما ... لهوت بها فى ظل مرثومة زهر
لعمرى لقد أوقرت نفسى خطيئة ... فما أنا بالمزداد وقرا على وقر
تسلى عن الأحباب صرام خلة ... ووصال أخرى ! ما يقيم على أمر
وركاض أفراس الصبابة والهوى ... جرت حججا ! ثم استقرت فما تجرى
فأصبحن ما يركبن إلا إلى العلا ... وأصبحت لا يزرى علىّ ولا أزرى

فهذا ! وإني قد شرعت مع التقى ... وماتت هموى الفارقات فما تسرى

***

وعذراء لا تجرى بلحم ولا دم ... قليلة شكوى الأين ! ملجمة الدبر

إذا ظعنت فيها الفلول تشخصت ... بفرسانها ! لا فى وعوث ولا وعر

وإن قصدت زلت على متنصت ... ذليل القوى ! الاشيء يفرى كما تفرى

تلاعب نينان البحار ؛ وربما ... رأيت نفوس القوم من جريها تجرى

إلى ملك من هاشم فى نبوة ... ومن حمير فى الملك والعدد الدثر

من المشترين الحمد ، تندى من الندى ... يداه ! ويندى عارضاه من العطر

***

بنى لك « عبد الله » بيت خلافة ... نزلت به بين الفراقد والنسر

وعندك عهد من وصاة « محمد » ... فرعت به الأملاك من ولد النضر

إذا القطر لم يغزر علينا سماؤه ... بأرض ! وثقنا من سمائك بالغزر

فألزمت حبلى حبل من لا تغبه ... عفاة الندى ! من حيث يدرى ولا يدرى

فأعطاه ما كان يعطيه قبل ذلك ولم يزده شيئا وفي رواية انه لم يحظ منه بشيء . فقيل له انك لم تجد فى مدحه . فقال لا والله ! لقد مدحته بشعر لو قلت مثله فى الدهر لأمنت من صرفه ولكنى أكذب فى العمل فأكذب فى الأمل ... وقيل له ان مدائحك فى عقبة بن سلم الازدى فوق مدائحك كل أحد . فقال إن عطاياه إياى كانت فوق كل عطاء ... وصار بشار بعد أن كان يمدح المهدى وعنده أمل فى

العطاء والصلة . بمدحه وملء رأسه أمانى لا يعرف أتصدق أم تكون كاذبة . فانطقه ذلك بهذه الكلمة المأثورة . قال « الانسان لا ينفك من أمل ، فان فاته الأمل عول على المنى ... إلا أن الأمل يكون بسبب . وباب المنى مفتوح لكل من أراد الدخول » ... وقد استشهد بشار على قوله أن مدائحه لعقبة بن سلم فوق مدائحه كل أحد فقال : دخلت اليه يوما فانشدته « حرم الله ان ترى كابن سلم ... » فأمر لى بعشرة آلاف درهم . وها أنا قد مدحت المهدى ويعقوب بن داؤد وأقمت بابوابهما حولا فلم يعطيانى شيئا ! أفألام على مدح هذا !؟

ومن مدائحه فى المهدى قوله :

على جنبات الدست منه مهابة   وفى الدرع عبل الساعدين قروع
يشق الوغى عن رأسه فضل نجدة   وأبيض من ماء الحديد وقيع
غير أن من دون النساء كأنه   أسامة ذو الشبلين حين يجوع
إذا اختزن المال البخيل فانما   خزائنه خطبة ودروع

ولما امتدح بشار وزير المهدى « يعقوب بن داؤد » وعده ولم يعطه شيئا . فقال بشار يستنجزه ويهدده :

يعقوب ! قد ورد العفاة عشية   متعرضين لسيبك المنتاب
فسقيتهم وحسبتنى كمونة   نبتت لزراعها بغير شراب
مهلا اليك ! فاننى ريحانة   فاشمم بانفك واسقها بذناب
طال الثواء على تنظر حاجة   شمطت لديك ! فمن لها بخضاب ؟

تعطى الغزيرة درها ! فاذا أبت كانت ملامتها على الحلاب !

فلم يحظ منه بشيء ! وكان يضرب فى حديد بارد . . .

قال صاحب الاغانى : يقول بشار ليعقوب أنت من المهدى بمنزلة الحالب من الناقة الغزيرة التى اذا لم يوصل الى درها فليس ذلك من قبلها وانما هو منع الحالب . وكذلك الخليفة ليس من قِبله — أى هذا البخل — لسعة معروفة وانما من قبل السبب اليه ! !

أقول : وهذا خطأ فالحالب هو الشاعر نفسه · وفى ذلك يقول !

حلبت بشعرى راحتيه فدرتا سماحا ! كما در السحاب مع الرعد

فهو يقول ليعقوب: أنت كالناقة الغزيرة لسعة ثروتك وأنا كالحالب لها . فاذا أبت هذه الناقة أن تعطى درها كانت ملامتها واجبة على الحلاب وكان لزاما عليه أن يلومها ويذمها — لا كما يقول صاحب الاغانى من أن اللوم يقع على الحلاب . ولا كقوله اذا لم يوصل الى درها — فكذلك أنا معك إذا منعتنى عطاءك وجب على هجاؤك !! فلا دخل هنا للمهدى كما ترى ولا لغيره . فيعقوب هو المخاطب المطالب وهو الممدوح المهدد . والـكلام على ما أرى أبسط من أن يحتاج الى شرح . وقد يعكس بشار فيجعل الممدوح حالبا لشعر الشاعر بما يصله به من الصلات فيقول مهددا أيضا :

أحسن صحابتنا فان مدرك بعض اللبانة باصطناع الصاحب

واذا جفوت قطعت عنك منافعي   والدر يقطعه جفاء الحالب

فلما لم يحظ بشار بشيء جعل يقطع الطريق على يعقوب في غدواته وروحاته طالبا منه صلته . وكان طريقه الى منزله عليه . فمر به يوما فصاح به بشار

« طال الثواء على رسوم المنزل »

فاجابه يعقوب فوراً :

« فاذا تشاء أبا معاذ فارحل »

عندئذ رحل بشار الى البصرة بعد أن مكث حولا ببغداد — كما يقول — يتردد على أبواب القصر فيطرد . وبعد أن يئس من المهدي ووزيره ! وامرائه أيضا الذين غضبوا لغضب أميرهم . فقال مودعا ببغداد شر وداع واخبثه :

ترحل ؛ فما بغداد دار اقامة   ولا عند من أمسى ببغداد طائل
محل أناس سمنهم في أديمهم   وكلهم من حلية المجد عاطل
ولا غرو إن شلت يد المجد والعلا   وقل سماح من رجال ونائل
فأن غضغض البحر الغطامط ماءه   فغير عجيب أن تغيض الجداول

ويريد بالبحر المهدي كما هو ظاهر وبالجداول أمراءه !!

وأخذ بعد ذلك في هجاء يعقوب بن داؤد بن طهمان وزير المهدي ولكنه لم يصلنا شيء من ذلك اللهم إلا قوله حينما ولى يعقوب أخاه

« صالحا » بعض الولايات فقال :

هم حملوا فوق المنابر صالحا ... أخاك ! فضجت من أخيك المنابر

ثم هجا المهدى فقال :

بنى امية ! هبوا من رقادكم ... إن الخليفة يعقوب بن داؤد

ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا ... « خليفة الله » بين الناى والعود

وأقذع فقال :

خليفة يزنى بعماته ... يلعب بالدابوق والصولجان

أبدلنا الله به غيره ... ودس «موسى» فى حر «الخيزران»

وأنشدهما — هما وهجاء في يعقوب — فى حلقة « يونس بن حبيب النحوى » بعد أن سألهم وقال « ههنا من نحتشمه ؟؟ » فقالوا لا !! ولكن ما كان المهدى يصل البصرة متفقدا . هو ووزيره يعقوب . حتى سعى بعضهم ببشار وأبلغ الشعر يعقوب بن داؤد وهو الذى بيده مقاليد كل أمر حتى اضطر بشار أن يقول فيه « ان الخليفة يعقوب ابن داؤد » ولا يبعد أن يكون الساعى هو يونس نفسه . فقد كان من العلماء المحرضين على بشار . فمن كلامه : العجب من الازد ! يدعون هذا العبد ينسب بنسائهم ويهجو رجالهم . ويقول :

ألا يا صنم الأز ... د الذى يدعونه ربا

ألا يبعثون اليه من يفتق بطنه !؟

والذى جرأ الساعى على السعى به أن المهدى كان قد قبض عليه

أول ما دخل البصرة . وذلك أنه لما انحدر اليها فى تلك السنة وهى الثامنة من خلافته سنة ١٦٦ سمع أذانا فى ضحى النهار عندما بلغ البطيحة . فقال : انظروا ماهذا ؟؟ فاذا بشار سكران يؤذن فى الطريق فى غير موعد صلاة ! فقال : يازنديق عجبت أن يكون هذا من غيرك ! أتلهو بالآذان فى غير وقت الصلاة وأنت سكران !؟

ثم هتف برئيس الشرطة « ابراهيم بن عثمان بن نهيك » الذى يقول فيه أشجع بن عمرو السلمى :

فى سيف إبراهيم خوفٌ واقع ... لذوى النفاق ! وفيه أمن المسلم
فيبيت يكلأ ـ والعيون هواجع ـ ... مالَ المضيع ! ومهجةَ المستسلم
شد الخطام بأنف كل مخالف ... حتى استقام له الذى لم يخطم
لا يصلح السلطانَ إلا شدّةٌ ... تغشى البرىء بفضل ذنب المجرم
ومن الولاة ! مفخمٌ لا يتقى ... والسيف تقطر شفرتاه من الدم
منعت مهابته النفوسَ حديثها ... بالأمر تكرهه ! وان لم يعلم

وأمره بأمره — كما يقول حبيب بن نصر المهلبى — ثم لم يلبث إلا قليلا حتى دخل عليه وزيره يعقوب بن داؤد وقد سعى إليه من سعى بهجاء بشار . فقال يا أمير المؤمنين أن هذا الملحد الزنديق قد هجاك ! قال بم ؟ قال لا أطيق قوله ! فأقسم عليه المهدى . . . فكتبهما ! فلما وقف عليهما كاد ينشق غيظا . وعول على قتل بشار . فزاد فى تحريضه يعقوب وقال ان بشاراً زنديق وقد قامت عليه البينة ثم لفق

أقوالا كثيرة من مثل ما رواه « المازنى » حيث قال . قيل لبشار أتأكل اللحم وهو مباين لمذهبك !؟ فقال انما أدفع به شر هذه الظلمة !!

فلما أزف خروج المهدى من البصرة أخرجه ابن نهليك معه فى زورق حتى بلغوا البطيحة فتذكره المهدى وأرسل إلى ابن نهيك يأمره بجلده وضربه ضرب التلف . فأقيم بين يديه على صدر الحراقة وضرب سبعين سوطا أتلفته . وقيل أن الذى تولى ضربه « حمدويه » صاحب الزنادقة وقيل بل هو « عبد الجبار » وهو الأصح ! فكان إذا أصابه السوط يقول « حس » وهى كلمة يقولها العرب للشىء إذا أوجع . فقال بعضهم انظروا إلى زندقته كيف يقول « حس » ولا يقول « بسم الله » فقال بشار ويلك ! أطعام هو فأسمى الله عليه ؟؟ فقال أحد الحاضرين أفلا قلت « الحمد لله » قال أو نعمة هى فأحمد الله عليها !؟

وقال أثناء ضرب الجلاد له : ليت عينى أبى الشمقمق ترانى حيث يقول

إن بشار بن برد تيس أعمى فى سفينة

ثم ظهر عليه الموت فألقى فى سفينة من السفن الراسية على الشاطىء . ثم رمى به إلى البطيحة فى موضع يقال له الخرارة . فحمله الماء إلى البصرة فأخذه أهله ودفنوه خارجها على التلعة التى دفن بها حماد عجرد . وعمره قد نيف على التسعين سنة ١٦٦ هجرية ؛ وقد حبس يعقوب فى هذه السنة أيضا !!

وبعث المهدى إلى منزله من يفتشه — على ما حكاه ابن خلاد — فوجدوا ذلك الطومار الذى كتب فيه انه أراد أن يهجو آل سليمان ابن على ولكنه تركهم اجلالا للنبى صلى الله عليه وسلم. فلما قرأه المهدى بكى وندم على قتله وقال لا جزى الله يعقوب خيرا فانه لما هجاه لفق عليه شهوداً أنه زنديق فقتله! وندمت حيث لا ينفع الندم...

وقد علق الأستاذ طه حسين فى كتابه حديث الأربعاء على مقتل بشار فقال «ولقد تقرأ أن بشاراً عند ماضربه المهدى الضرب الذى أماته لم يبق شريف من أشراف البصرة إلا تلطف له وأرسل اليه الهدايا. ثم نقرأ أنه مات وأخرجت جنازته فلم يتبعها من أهل البصرة أحد الاجارية سوداءسندية عجماء تصيح واسيداه! واسيداه! فأين هؤلاء الأشراف الذين تلطفوا له واستبقوا إلى إرسال الهدايا إليه قبل أن يموت؟ وما بالهم لم يشيعوه بعد أن مات؟» وهذا خطأ من الأستاذ إذ أن المهدَى إليه والمتلطف له هو «عبد الجبار» صاحب الزنادقة لا بشار وقد وهم حضرته فى ارجاع الضمير. قال «عمر بن شبة» أمر المهدى «عبد الجبار» صاحب الزنادقة فضرب بشاراً. فما بقى بالبصرة شريف إلا بعث إليه بالفرش والكسوة والهدايا..... وهذا هو ما يقتضيه سياق الكلام ويؤيده أيضا تصدق أهل البصرة بالأموال الكثيرة بعد قتل بشار!!

ولقد كان من غرائب الصدف أن يتجاور بشار وحماد عجرد بعد

موتهما . فمر بقبريهما أبو هشام الباهلى الشاعر البصرى الذى كان يهاجى بشاراً فقال :

قد تبع الأعمى قفا عجرد ... فأصبحا جارين فى دار
قالت بقاع الارض : لامرحبا ... بقرب حماد وبشار
تجاوروا بعد تنائيهما ... ما أبغض الجار الى الجار !
صارا جميعا في يدى مالك ... في النار ! والكافر فى النار

وقال شامتا مودعا لبشار :

يابؤس بيت ! لم يبكه أحد ... أجل ! ولم يفتقده مفتقد
لا أم أولاده بكته ! ولم ... يبك عليه لفرقة أحد
ولا ابن أخت يبكى ولا ابن أخ ... ولا حميم رقت له كبد

ولما بلغت وفاته يونس النحوى أنكر ذلك وقال لايمت ! فقال له الرجل الذى بلغه أنا رأيت قبره ! قال أنت رأيته ؟ قال نعم والا فعلىّ وعلىّ ـ وحلف له حتى رضى ـ فقال يونس لليدين وللفم ! !

وأخرجت جنازته فما تبعها الا أمة له سوداء سندية عجماء ماتفصح تصيح واسيدّاه ! واسيدّاه ! .. فتباشر أهل البصرة لما نعى لهم . وهنا بعضهم بعضا وحمدوا الله وتصدقوا لما كانوا قد منوا به من لسانه .... رحمه الله وغفر له ماأساء إنه هو الغفور الرحيم ! !

استدراك

قولنا « ولها أيضا يقول أبو نواس » فى ترجمة « رحمة الله » التى شبب بها بشار ص ٨٧ خطأ من الكتاب الذى نقله عنه تلك الحكاية . وصوابه أن أبا نواس خمّن الشطرة الاولى من البيت الثانى من شعر بشار . وقال البيتين المتقدمين متغزلا فى « رحمة بن نجاح » عم نجاح ابن سلمة الكاتب وكان يتعشقه ويشبب به

وقد سقط منا من غزله قوله :

ومرتجة الارداف مهضومة الحشا ... تمور بسحر عينها وتدور
اذا نظرت صبت عليك صبابة ... وكادت قلوب العالمين تطير
خلوت بها لا يخلص الماء بيننا ... الى الصبح ! دونى حاجب وستور
وقد كنت فى ذاك الزمان الذى مضى ... أُزاد ! ويدعون الهوى فأزور
فان فاتنى إلف ظللت كأنما ... يدير حيائى فى هواه مدير
والآن أقصر عن سمية باطلى ... وأشار بالوجلى علىّ مشير

يشير بذلك الى منع المهدى له عن الغزل ! !

وقوله :

وبيضاء بضحك ماء الشبا ... ب فى وجهها لك إذ تبتسم

جارية خلقت وحدها ... كأن النساء لديها خدم

حسان العذارى إذا جئنها ... أطفن بحوراء مثل الصنم

يرحن فيمسحن أركانها ... كما يمسح الحجرَ المستلم

ظمئت اليها فلم تسقنى ... برئ ! ولم تشفنى من سقم

اذا قلت لها « جودى لنا » ... خرجتْ بالصمت عن «لا» و«نعم»

هذا ! وأرانى لست محتاجا الى تنبيه القارئ الى بعض أغلاط مطبعية ؟

فهرس